روايات عالمية

محاكم التفتيش

١٥٧ شارع عبيد – روض الفرج

تليفون ٤٠٥٨٨ – ٤٠٨١٤ – ٤٠٧٥٣ – ٤١٠١٢ – ٤٥٣٤٦

العدد ١٨٥ الثمن ٣ قروش

روايات عالمية

محاكم التفتيش

عن الكاتب الانجليزى الكبير

رفايل سابانيني

مؤلف روايتى : سكارامونش . والقرصان

الفصـــل الاول
الفيلسوف المعتزل

كثيرا ما كان يقال عن « روجر تريفانيان » وهو من كبار الاشراف ويلقب بالارل اوف جارز ، انه يفضل صحبة الموتى على صحبة الاحياء . وكان هذا القول تهكما بنزوعه الشديد الى العزلة ، وانكماشه فى القراءة والدرس والاطلاع .

ولكنه لم يكن يابه بهذه النكتة الساخرة ولو سئل فى شانها لاجاب بان الاخيار وحدهم هم الموتى ، لانهم بموتهم لم يعودوا على فعل الشر قادرين . !

ولا يخفى ان حالة نفسية كهذه لا بد ان تكون نتيجة تجربة مؤلمة فى الحياة . وهذا هو الواقع فى حياة روجر تريفانيان . فقد كان صديقا حميما للامير ال توماس سيمور الذى ادت به الدسائس فى البلاط الانكليزى الى آلة الاعدام وكاد هو لصداقته به يساق اليها على اثره .

وكانت تهمة سيمور انه يحب الاميرة اليصابات . وانه قد تآمر معها على خلع نائب الملك والاستيلاء على زمام السلطان من يديه . وقد قبض على جميع الذين كانوا متصلين بالاميرة واصدقاء لسيمور . فكان تريفانيان من بينهم . وقد سيق الى مجلس الوصاية متهما بالاشتراك فى تلك المؤامرة على امل ان يشهد على صديقه ويثبت التهمة عليه . !

ولكنه ظل وفيا لذلك الصديق حتى النهاية ، فلم يتمكن المجلس من حمله على خيانة عهد صاحبه .. لا بالارهاب ولا بالاغراء .. فبقى سجينا فى البرج الى يوم تنفيذ حكم الاعدام فى ذلك الصديق الحميم الذى آخلص

اليه ، فسمحوا له بالمرور بطلبه . وادنوا له فى شيء لم يعلن الرغبة فيه ، وهو نقله من محبسه الى الشرفة التى كان سجينا فيها .. ليخلوا اليه .. قبل الوداع .

وكان تريفانيان يومئذ فى الحادية والعشرين .. وهى السن التى يكون فيها حب الحياة عند الانسان قويا غلابا مستحوذا على سائر المشاعر بقدر كره الموت لديه .. حتى ليفزع من مجرد رؤيته السانحا على وشك الممات او فى ساعته الاخيرة .. فلما ادخلوه عليه وجده فى حالة سكون غريب لم يفهم سره .. لان الاميرال سيمور كان ايضا صغير السن .. لم يتجاوز الثلاثين .

ولم يكد يرى تريفانيان قادما نحوه حتى استوى على قدميه لتحيته فى فرح وسرور .. ولبث يتحدث اليه بكل هدوء عن صداقتهما .

وحين رأى حزن تريفانيان وألمه .. ناشده الا يحزن مروعا مخيفا اذا ما وطن المرء نفسه على لقائه .

وطفق يشبه بانه قد ودع الاميرة فى كتاب قضى الليلة الماضية كلها فى كتابته .. وانهم فى السجن رفضوا ان يعطوه قلما ومدادا فاحتال على ان يكتب بقطعة من خشب مدببة وان يجعل المداد من دمه .. وان هذا الكتاب قد اخفاه تحت فرشة حذائه .. على أن يستأنس رجلا موثوقا به فى تسليمه للاميرة عقب تنفيذ حكم الاعدام فيه .

وقد بدت على شفتيه وهو يقول ذلك ابتسامة غريبة كما لمعت عيناه ببريق عجيب تحيرفى فهمها تريفانيان فى تلك اللحظة ، وعجب أشد العجب .

واخيرا تعانقا ثم افترقا .. واعيد تريفانيان الى سجنه حيث لبث يدعو الله لصديقه ويحاول حل لغز ذلك الحديث الذى حدثه به صديقه فى تلك الخلوة الرهيبة ،

ولكنه لم يعرف السر فى ذلك الحنين ، وان كان قد علم به بعد ذلك .

لقد تبين « سيمور » من معرفته بالرجال وخبرته بالحياة ان ايفاد تريفانيان اليه فى السجن لهذا الوداع الاخير لا يمكن أن يكون صادرا من شفقة عليه ، او رثاء له .. وانما كان خصومه يرجون من وراء ذلك ان يتنهز سيمور الفرصة فيرسل الى الاميرة كتابا او رسالة تكشف عن علاقته بها ، حتى لقد بثوا العيون والارصاد خلف جدران محبسه ليسترقوا السمع والبصر خلال زيارة صديقه له

هذا ما خطر فى بال سيمور فكان حديثه مع صديقه فى خلوتهما ملك من الكتاب الذى كتبه للاميرة بمداد من دمه . لكى يعرف خصومه بوجود ذلك الكتاب فيستولوا عليه . لانه لوحى فى كتابته أن لا يذكر فيه شيئا يدين الاميرة او يثبت التهمة عليها اذا هو وقع فى ايديهم .

لقد كان ذلك آخر دليل قدمه سيمور لاثبات اخلاصه وتفانيه وان كانت ظروفه وكتابة الخطاب بمداد من الدم قد اولدت حكايات واشاعات واقاصيص عن علاقة الاميرة به راحت بومئذ ولاكتها الافواه .

وخرج تريفانيان من هذا الحادث ناجيا بالحياة . ولكنه افتقده مع ذلك الايمان بالناس وبغض اليه الحياة الاجتماعية ، وحبب اليه العزلة والابتعاد عن البلاط والفرار من خدمة الملوك .

وذهب يستأذن الاميرة الياصابات ، وفى اثناء الحديث ذكر ذلك الكتاب فما كان من تلك الفتاة الهيفاء التى لم تكن جاوزت السادسة عشرة الا ان ارسلت زفرة تم البعثها انتسامة حزينة لو انها لاحت على وجه امرأة تبلغ شعف سنها لكانت عجيبة . بل موضوع استغراب .. وراحت تعيد الكلمات التى قالتها من قبل بحذر واحتياط ، وان تغيرت

بومثل نفسها ، وهي « لقد كان رجلا كثير الذكاء قليل المعرفة . يرحمه الله ! » .

ولعل هذا هو الذي جعل تريفانيان يشدد في طلب العزلة ويزداد كراهية في عيشة البلاط . فقد كاد يتعرض للموت ، كما شاهد منذ جاور قصور الملوك ما يتزاحم في افقها من المطامع ، وما يجري فيها من المخازي وما يكتشف المرء فيها من الأخطار .

وهكذا سافر تريفانيان الى املاكه الواسعة في كورنوال ليقيم بها اقامة دائمة ، ويرعى شئون اسرته بنفسه ، وكان ابناؤه قد عهدوا بها الى الخدم والنظار والوكلاء ، وقد اصبحت الاميرة بعد ذلك ملكة واحبت ان تكافيء الذين خدموها في ايام محنتها فارسلت اليه تستقدمه . ولكن هذه الدعوة المغرية مع ذلك لم تستهوه فابى الذهاب .

وتزوج بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ باحدى بنات اسرة شريفة حسبة تدعى آل جودولفين ، وكانت حسناء يقول الرواة عنها انها باعت من الحسن درجة تجعل كل من يراها لاول نظرة يحس دبيب الحب لها في جوانحه .

واذا صح هذا الذي روى عن جمالها ، فالظاهر ان الحسن كان هو كل ما لديها من مواهب وصفات وكأنما كان زواج تريفانيان بها عاملا آخر يزيده كراهية في الحياة وشؤما بها ومقتا للناس اذ دلته بسلوكها وسوء سيرتها وخلوها من جمال النفس على ان الظاهر الجميل خداع ، والاديم الابيض الناصع قد يحجب خلف القشرة احشاء الفاكهة

ولعل الاقدار ارادت خيرا به اذ اصيبت بعد ولادتها الاولى بحمى النفاس فقضت نحبها عقب الوضع باسبوعين وبعد ان عاشرته خمسة اعوام ساءته فيها سوء العذاب .

وكان يوم مماتها في السادسة والثلاثين ، ولكنه مع ذلك لم يفكر لحظة واحدة في تجربة الحياة الزوجية مرة اخرى فقد اصبح يومئذ مربي النفس متعلما متبرما يضع كل همه في قراءة الكتب واقتناء غرائب المؤلفات ، حتى جمع لديه في قصر تريفانيان القائم وسط املاكه الشاسعة مكتبة حافلة بأكبر ذخائر الفكر وكنوز العلم والمعرفة .

وعلى مر السنين امسى يعيش الفلاسفة ، مكبا طيلة يومه على الكتب ، يبحث ويدرس مختلف النظريات ، في غير اتصال بالحقائق الواقعية او اهتمام بالحياة التي تضج وتعج من حوله حتى يكاد ينسى نفسه وسط الكتب ، ولا يعرف سياق الحوادث الجارية .

وكانت انجلترا في ذلك العهد مصابة بداء الخلاف الديني ، وانقسام اهلها بين البروتستانت والكاثوليك ، ولكنه لم يتاثر بذلك ولم يهتم ، كما كانت بلاده في خطر شديد من غارة اسبانيا عليها وعداوتها المبيتة لها . والناس في قلق بالغ ، يتهيأون ويتدربون ويستعدون للقاء الغزاة والمغيرين ، فلم يكن تريفانيان ليحفل بذلك الخطر او تستيقظ في صدره عاطفة الشعور بالجو الذي يعيش فيه ، وكانت قد تقدمت به الاعوام وخلاه المشيب .

وقد تركت له زوجته طفلة ، قبل وفاتها ، تتركها تنشأ كما تشاء ، ومن الغريب الذي لا يكاد يصدق ان الطفلة عرفت كيف تختار ، لانها كانت الشخص الوحيد الذي فهمه على حقيقته ، بل في الواقع الشخص الوحيد الذي كان يحبه ، لانه لم يكن بالطبع يجد من احد محبة بسبب نفوره من الانسانية وشدة تبرمه بالحياة .

وكانت الصبية قد اكتسبت شيئا كثيرا من جمال امها كما ورثت عن ابيها سمو النفس ونبالة الاحساس وعظيم السجايا والخلال التي كان يمتاز بها في شبابه قبل

ان يلقى ايمانه بالناس .

واذا كانت قد بلغت الخامسة والعشرين ولم تتزوج بعد ، فان الذنب ذنبها هي دون احد سواها ، لان الخطاب وطلاب الزواج بها لم ينقطع فيضهم من وقت بلوغها السابعة عشرة من العمر حتى لقد كان قدومهم وذهابهم بهذا الاستمرار مما يثير غضب ابيها ويزيده سأمة وضجرا .

وقد اشتهرت بانها قد دمرت قلوبا كثيرة ، وحطمت افئدة عشاق عديدين ، برفضها جبهم ، وابائها عزلهم واقبالهم على خطبة ودها وكسب رضاها ، حتى بقيت هكذا في مثل جمود صخور الساحل القريب من دارها ، تلك الصخور الشاهقة التي تتحطم على اديمها السمين في مهاب الزوابع والاعاصير .

لقد كانت تحب حريتها الشخصية اكثر من كل شيء في هذا العالم ، وتابى التفريط فيها ؛ وكان هذا هو جوابها كلما طلب خاطب يدها ، اذ شبت كالملكة ذاتها بالعيش عذراء ، واثرت هذا العيش على سواه ، فلم تفكر في تغيره او التحول عنه باية حال .

ولم يكن ذلك عذرا تتذرع به فقط لرفض الخطاب ، ولكنه كان الحقيقة بالفعل ؛ فقد نشأت اللادي مرغريت بريفاليان بسبب نفسية والدها وطبعه ونزعاته تحب عيشة الاسترجال وتحرص على حريتها كل الحرص ، وتتنزه في حركاتها وسكناتها بالشبان والرجال ، فكانت في سن السادسة عشرة تقود وتروح طليقة العنان ، لا تسأل عما تفعل ، وليس على ساوكها من رقيب ولا حاسب ، وتصرف اكثر وقتها في ركوب الخيل والخروج الى مسارح الصيد ومطارد القنص ، كانها فتى من فتيان العصر سواء بسواء .

والغريب ان هذه النزعة الاسترجالية لم تخشن من انوثتها مطلقا ، بل اكسبتها بالعكس جمالا معنويا آخر

بجانب جمالها الجسدي وخلع عليها وقارا ومهابة فاتنة ، وتركها قوية الارادة في ضبط نفسها وامتلاك نفوس الآخرين

وفي ذلك العيد الذي نقص عليكم نباه ، كانت مرغريت قد تاهزت الثالثة والعشرين ولا تزال عذراء معتزمة البقاء هكذا ما شاء الله ان تبقى ، فلم تكن تشجع احدا من الشبان الملتفين حولها ، اللهم الا شابا واحدا مليحا محببا يدعى « جرفاس كروتي » سليل اسرة عريقة تقيم بجوار اسرة ابيها ، في « أرونياك » . ويدعى صيدها السير « جون كليجرو » وهو رجل اعزب لم يزرق بولد ، فاحب جرفاس حبا ابويا وود ان يأخذ بيده في هذه الحياة ويرقى به مدارج السلم الاجتماعي الى الذروة العالية .

وكانت بين كليجرو وبين اسرة جودولفين ، وهي اسرة والدة مرغريت ، صلة وثيقة من نسب قديم ، فكان يعد نفسه فردا من أهل البيت ، لا تكليف يمنعه من زيارته في اي وقت ، وانه ليدخل على بريفاليان منزله غير مستاذن ولا طارق ، ولا حافل بدعوة الشيخ وجفوة استقباله .

وكان كليجرو هو الذي استطحب لاول مرة الشاب جرفاس الى قصر بريفاليان في احد الايام .. حين كان هذا فتى في السادسة عشرة وسيما مليحا جذاب الملامح ترعرع قبل الاوان .

فلم تلبث « مرغريت » ان استلطفته وانست اليه .. وراحت تعامله معاملة صديق من الشبان لصديقه .. فتشجعه هذا على التردد على القصر في غالب الاحيان .. وكانا متماثلين في العمر والاذواق والمنازع ومطالب اللهو والتسلية .. فتمكنت بينهما الصداقة وتوثقت اسبابها .

وكان كليجرو بعد ترد طويل قد اعتزم ان يسلك فتاه هذا في دراسة الحقوق على أمل ان يجد له مستقبلا في عالم السياسة قائلا انه اذا ظهر ان له من جمال العقل

ويرتبق الذكاء مثل ما له من جمال الوجه وزينة المعارف وشادة المحيا . فسوف يكون له بلا ريب شان فى قصر الملكة وهى المعروفة باستحسان الملاح من الشباب وترقيتهم الى اعلى المراكز والاخطار .

ولهذا لم يتردد فى استقدام المعلمين والاساتذة الى قصر اردنياك لتربية الشاب وتثقيفه على النحو الذى فكر فيه .

ولكن كان رأى الفتى نفسه مختلفا مع رأى الشيخ فى هذا الشأن ، وهو ما يحدث غالبا .. فقد كان كروسى ذا مزاج خيالى ، وعاطفة غولة واحساس رقيق . فلم يجد فى دراسة القانون شيئا يتناسب مع مزاجه هذا ومشاعره ، وان كان كليجرو كثيرا ماحاول اقناعه بمزايا هذه الدراسة وفضلها الكثير .

لقد كان الشاب جرفاس يتطلع الى حياة المخاطر .. ويريد أن يعيش عيش المجازف المقتحم .. معتقدا أن من يحيا فى خطر انما يحيا اصدق الحياة . !

وكان العالم يومئذ شاجا باسداء الوقائع العجيبة التى وقعت للبطل المخاطر « سير فرانسيس دريك » .. الذى طاف العالم بسفينته فلم يلبث البحر ان استهواه بمخاطر ركوبه وطوافه .. وما تخيل فيه من الفرص السوانح لكشف اسرار الدنيا وعجائبها .. وارتياد المجاهل وتخومها .. والاهتداء الى البحار المجهولة وسواحلها .. والاقطار السحيقة واهلها الذين لم تسمع الدنيا بخبرهم .

فما زال بقريبه وراعيه الحنون كليجرو حتى اقنعه بتفاهة دراسة القانون ومزايا حياة الملاح على صدر الاوقيانوس .

وكان كليجرو رجلا عاقلا خبيرا .. فادرك ان النجاح لا يؤاتى رجلا فى عمل لا يميل اليه بسليقته ولا يضع فيه

قلبه وخاطره .

وهكذا اخذ السير جون كيلجرو الشاب الى لندن ، وكان ذلك عقب بلوغه العشرين من العمر .

ولكن قبل أن يسافر جرفاس فى أول رحلة له احب أن يطمئن الى مصير عاطفته .. ويؤمن على احاسيس قلبه .. فراح يعرض على مرغريت فؤاده ويده وما ملكت . والمستقبل الذى ينتظره .. وما سيظفر به فيه من ثمرات كفاحه وجهاده .

وقد وقع هذا من مرغريت موقع الدهشة ، فقد كانت من كثرة اختلاطها به تعده بمثابة اخ لها .. ولبيحه ما تبيحه الاخت عادة لاخيها من رفع الكلفة .. ومقتضيات المودة والالفة .. حتى لقد سمحت له فى بعض المناسبات مثلا بتبادل قبلة او قبلتين فى حماسة العاطفة الاخوية البريئة .. فلا عجب اذا هى فوجئت فى المكاشفة مفاجأة .. حتى خيل اليها أن انتقال الموقف من مجرد عاطفة اخوية الى علاقة غرامية امر فكه يثير الضحك .

فلم يسعها الا ان تصارحه برايها هذا .. فلم يكد يسمعه حتى غضب واشتد فى تعنيفها ولومها .. وراح يحتج ثم يتوسل .. ثم يعود غاضبا تاركا لثورته النفسية آخر العنان وأبعد المدى .

ولكن مرغريت ظنت عادلة فقد علمها الاعتداد بالذات الذى اكتسبته من تربيتها كيف تتمالك نفسها ، وراحت تلتجىء فى مناقشته الى تلك الحجة التى طالما اتخذتها سندا لها فى رفض الخطاب وهى انها تؤثر البقاء عذراء على عتبة الزواج ، وانها انما ترى ذلك اسوة بالملكة كأنما قد جعلت العذرة مزية من مزايا الملكات !

وثار جرفاس من الصدمة فذهب مطرقا حزينا ليستأذن من ابيها قبل السفر . وكان هذا فى تلك اللحظة

غارقا فى فلسفة افلاطون ذاهلا عن كل شىء فلما دخل جرفاس عليه مستأذنا ازعج وأراد ان يقطع سبيل هذا الازعاج باختصار الكلام ، ولكن جرفاس أصر على أن يعرض عليه قصة شدود مرغريت فى رأيها فى الحياة ، وكان يطمع من ذلك بلا شك فى تأييد الشيخ له ومساعدته على رد مرغريت الى الصواب والعدول بها عن فكرتها الخاطئة .

غير أن تريفالبان الذى كره هذه دخوله وازعاجه على تلك الصورة لم يكد يسمع القصة حتى راح يحملق البصر فى وجهه من تحت حاجبيه الكثيفين ، ثم قال :

ـ اذا أرادت عمى أن ترعى فرودا فى جهنم فما لك أنت وهذا الشأن ؟

واذا كان كروسيى قد شعر بصدمة اليمة من رأى مرغريت فيما يعده هو أهم شىء فى الحياة ، فان الصدمة التى شعر بها من كلام أبيها كانت بلا شك أقسى وأشد .

ولكنه لم يشأ أن ينهزم بهذه السرعة ، فقال :

ـ ان الامر يهمنى لانى أريد أن أتزوج بها .

غير أن الشيخ ظل يحدجه بنظره فى صمت ، ثم قال أخيرا :

ـ وما الذى تريده مرغريت ؟

فأجاب الفتى بقوله : لقد حدثتك بما قالت لى انها تريده .

فعاد الشيخ يقول فى تمثيل :

ـ اذا كانت قد قالت لك هذا الذى تقول انها قد قالته فلست أدرى ما الذى حدا بك اذن الى ازعاجى بهذا الشكل ؟

ولو سمع شاب غير جرفاس هذا القول من الشيخ لتخاذل واستسلم ، ولكن جرفاس استخلص منه فكرة طيبة فى مصلحته ، واحسب كيلجرو كان على حق فيما تصوره حين خطر له أن يسلك هذا الفتى فى دراسة الحقوق ، فانه كان

بلا ريب سيروح محاميا عظيم الشأن ، لو لم ينزع الى البحر ومخاطره .

فقد راح يقول

ـ اعتقد ان سيدى النورد يعنى انى بهذا الطلب جدير وانما اذا امكننى أن أحمل مرغريت على تغيير رأيها .

فقاطعه الشيخ قائلا :

ـ انى أعنى أنك اذا استطعت صرف مرغريت عن رأيها هذا فسوف أفكر فى الامر لان من عادتى أن لا أبحث فى شىء أكثر مما هو تحت يدى ولا أزعج نفسى باحتمالات قد لا تتحقق مطلقا .

هذه هى النصيحة التى أقدمها اليك كهدية وداع وأعتقد أنها أغلى وأثمن من أية هبة أو منحة يمكن ان تقدم اليك ، اذهب يا فتى فلعلنا نسمع عنك خيرا وليكن التوفيق لك رائدا .

وانصرف الشاب مطأطىء الرأس كاسف البال .

الفصل الثانى
العاشق

وسافر جرفاس وهو يعتقد أن الشيخ والد مرغريت لم يكن مشجعا له ، ولكن اى شىء يشتهيه الشباب ولا يعتقد أنه فى النهاية يدركه ؟

ولهذا لم يلبث اعتداده بنفسه وايمانه بأن النجاح حليفه ان عاوداه فنشط واشتغلت حماسته للمستقبل قبل الرحيل ووصل الى لندن مع كيلجرو بعد أسبوع ، وكان هذا رجلا كبير النفوذ ، فلم يكن من العسير عليه أن يتوصل الى البلاط ، فضلا عن أنه كان صديقا للاميرال لوردهوارد أوف ايفنجهام ، فلم يتردد فى مقابلته وعرض أمر الشاب عليه ، فاستقبله

الاميرال بترحاب ووعده بالمساعدة ، وكان الاخراط فى سلك البحرية فى ذلك الوقت سهلا وبالاخص بالنسبة للشبان الذين ينتمون الى اسرات عريقة .

ولكن الصعوبة كانت فى ايجاد عمل فى الحال لجرفاس ، وخطر للاميرال ان يقسم الشاب الى السير جون هوكنز وهو من كبار رجال البحر واصحاب السفن ، فتحدث الرجل الى الفتى ليختبره ، واذا به يشهد له فى الحال بالذكاء . كما أبدى اعجابه بقوامه وحسن بنيته ، وبريق العزم وقوةالارادة التى تلمع فى عينيه .

وعلى الفور أعطاه كتابا لقريبه ، وهو السير فرانسيس دريك ، وكان هذا يوشك أن يسافر من بليموث فى سياحة لا يعرف أحد غرضها .

ومن ثم عاد جرفاس مع الشيخ كيلجرو فى لندن لمقابلة السير فرانسيس دريك فى ثغر بليموث ، فلما اطلع هذا على كتاب النوصية احتفل به ، ثم تطلع الى الشاب فاشتد اهتمامه وأبدى عنايته بالمسألة ، فلم يتردد فى اعطائه عملا دون ان يعين له مداه ، وانما قال انه اسطولا من خمس وعشرين سفينة خصوصية على وشك الابحار ، وهى لا تحمل ترخيصا ملكيا ولا اعترافا من الدولة بها ، بل قد تضطر الحكومة الى التبرؤ منها اذا انكشف سر العمل الذى تريد أن تؤديه ، أى انه عمل خطر ، ولكنه مع ذلك شريف لا غبار عليه .

فلم يتردد جرفاس فى قبول العمل دون ان يسأل عن جلية حقيقته ، واستأذن من الشيخ ، وانتقل الى سفينة السير فرانسيس دريك ، فلم تمض اربعة أيام حتى كانت السفينة فى عرض البحر جارية .

وكانت انجلترا كلها تعلم الغرض من سفر هذا البطل العجيب ، وان لم تكن تدرى كيف تراه سيعمل على تنفيذه ،

بل كان هو أيضا لا يعرف السبيل ، ولكنه كان طلبها وطنية كما كان الشعب الانكليزى عن بكرة أبيه متحمسا غاضبا يطلب الثأر من اسبانيا عدوة بلاده وخصمها المبين واذا كانت الحكومة قد عجزت عن الانتقام للشعب من ذلك العدو فليقم افراد منه اذن بذلك الانتقام لانهم غير مقيدين مثلها بكثير من الاعتبارات السياسية كما هو شأن الحكومات .

وكانت الاقاليم الشمالية فى ذلك العام فى خطر من المجاعة بسبب القحط الذى حل بها وقلة المحصول .

وعلى الرغم من الجفوة الخفية التى كانت يومئذ بين اسبانيا وانجلترا تلك الجفوة التى يحتمل فى اى وقت أن تؤدى الى وقوع حرب شعواء بينهما ، وعلى الرغم من المؤامرات التى كان فيليب الثانى ملك اسبانيا يدبرها بتحريض البابا لتأديب الملكة الكافرة الخارجة على الدين التى تحتل عرش انجلترا والتى شجعها البابا وحكم بكفرها ولفظها من رحمة الكنيسة ، كانت المملكتان فى سلام ، فى الظاهر فقط ، ومن حيث العلاقات الرسمية لا اكثر ولا اقل .

وكانت انجلترا تملك من القمح ما هو اكثر من حاجتها ، ولا مانع عندها من توريد كميات منه لتلك الاقاليم المهددة بالمجاعة ولكن بالنسبة لما حدث يومئذ من الاعتداءات الوحشية التى اوقعها ديوان التفتيش على فريق من البحارة الانكليز الذين قبض عليهم فى بعض الثغور الاسبانية ، لم تكن سفينة من السفن التجارية فى انجلترا تريد أن تخاطر بالسفر الى اسبانيا ما لم تحصل على ضمان يقيها شر العدوان ويكفل لها السلامة من الاذى ، وكانت هذه الضمانات تقدم على شكل تعهدات من الملك فيليب الثانى بأن السفن التجارية المحملة قمحا سوف لا تتعرض لأى اعتداء .

ولكن على الرغم من هذه التعهدات كانت سفن القمح التى

تصل الى الاقاليم الشمالية مثل كوروبا وبنباو وسانتاندر لا تليث ان يقبض عليها وتصادر حمولاتها ، ويعتقل بحارتها ورجالها ، بحجة ان انجلترا كانت يومئذ تمد يد المساعدة الى هولندا والبلاد الواطئة وكانت هذه قد شقت عصا الطاعة على اسبانيا في ذلك الحين .

ولم تنفع يومئذ المفاوضات السياسية فان الملك فيليب جعل يتجلل من المسئولية وينهرب من التبعة ، مدعيا ان البحارة الانكليز الذين قبض عليهم لم يعودوا تحت يده ، ولم يأمر هو باعتقالهم وانما هم قد وقعوا في قبضة رجال الدين ، او ديوان التفتيش ، باعتبارهم كفرة يستحقون التاديب فمنهم من كان يترك في السجن ليتلوى ويتعذب ، ومنهم من كان يرسل الى اللبنان لقطع الحجر كاسرى ، كما ان فريقا منهم كانوا يحرقون في المحارق التي تقام خصيصا لهذا الغرض في يوم معين يعتبر عند رجال الكنيسة عيدا عظيما من الاعياد

ولم يكن هناك اى امل في انقاذ الذين لا يحكم عليهم بالموت حرقا وانما كان الامل الذي يساور الانكليز هو مجرد الانتقام لهم ، باعطاء اسبانيا درسا قاسيا لا تنساه ، ويبوح على الدهر عبرة بالغة .

على انه لم يكن هذا في وسع الملكة ، لانها لا تستطيع ان تفعله باسمها ولانها على فرط غضبها من هذه الحوادث المتكررة كانت حكيمة في اعتقادها انه لم يكن من المعقول والصواب الدخول في حرب مع اسبانيا العظيمة القوية في وقت لم تكن انجلترا فيه على استعداد لمحاربتها ، ولكنها مع ذلك كانت لا تضن بعطفها على الافراد المخاطرين الذين يقتحمون الاخطار في سبيل الانتقام لبلادهم من عدوها اللدود ، حتى اذا ما قبض عليهم ، امكنها ان تنهرب من المسئولية عن عملهم — هذا هو سر سفر السير فرانسيس دريك باسطولها الصغير

المؤلف من خمس وعشرين قطعة ، او قل هذا هو الغرض الذي سافر جرفاس كروسبي لتجربة حظه في سبيل تنفيذه، كعمل من اعمال البطولة الوطنية فوق عهد الاوقيانوس المحيط العظيم .

وقد استغرقت هذه السفرة عشرة اشهر ، وكانت ملأى بالحوادث حافلة بالمخاطرات ، حتى لو ان شابا مثله قضى عشرات السنين في ركوب البحار في الظروف العادية لما تلقى من التجربة والدراية على القتال البحري ومطالبه وفنونه مثل ما اصاب جرفاس في تلك السفرة القصيرة

فقد ذهبت السفائن اولا شاخصة نحو نهر ، فيجو ، في شمال اسبانيا وكان الوقت موسم جمع الاعناب من الكروم، فلم يكد القوم يشعرون بظهور السفن الانكليزية في مياههم حتى ازعجوا وتركوا عملهم ولكن دوريك ارسل اليهم اعلانا يؤذنهم فيه بغرض مقدمه ، كما بعث الى حاكم المدينة يسأله هل يعتبر ملك اسبانيا في حرب مع ملكة انجلترا ؟ فاكد له الحاكم ان لا حرب مطلقا بينهما .

فعاد يسأله وكيف اذن قبض على السفن الانكليزية التي جاءت الى النهر وصودرت حمولاتها واعتقل ضباطها ورجالها، وعوملوا اسوأ المعاملة ، فمنهم من سجن ، ومنهم من أسر ، ومنهم من سيق الى الموت في المحرقة ، على الرغم من تعهدات الملك ومواثيقه ؟

ولكنه لم يتلق من الحاكم جوابا صريحا ، وما كان محتاجا في الواقع الى الجواب ، وانما كان غرضه من ذلك كله تفهيم الحاكم ان رجال البحر الانكليز لا يمكن ان يقبلوا ان يعامل اخوتهم بهذه المعاملة .

وراح يطلب من الحاكم الغذية ومية ، كما اباح لرجاله ان ينزلوا الى البر لاعمال السلب والنهب ، لكي يعطى الحاكم

مثالا لما يمكن أن يحدثه فى المدينه اذا ثابت عليه أو حاولت مقاومته ...

وغادرها بعد ذلك حامل الوطاب بالمؤونة ، وهى فى عجب ودهشة من جرأة هذا الانكليزى .. اللعين !

وانطلق شاحصا بسفائنه الصغيرة الى ثغر سانتياجو فهاجمها واستولى عليها . وكان قد اعتدى فيها الاسبان من قبل على بحار انكليزى صغير السن ، فما كان من دريك ورجاله الا أن اعملوا فيها الحريق ، وصبوا عليها وابل النيران حتى تركوها طلالا واطاسا متداعية ، على سبيل تذكير الملك فيليب بأن اعماله الوحشيه لم تكن فى مقدور اسبانيا وحدها وان العقاب بالمثل قانون قائم فى الارض وله رجال يتقدونه فى البادى بالسوء والمتقدم بالعدوان

وقضى الاسطول عيد الميلاد فى الماء الاسبانية ثم اتجه نحو ثغر سان دومنيجو ، وزينت القصور العالية والحصون المنيعة وقمر العظماء والاغنياء من الاسبان ، ولكنه وجد مقاومة من أهلها ، فقد خرج القوم مشاة وركبانا لمنع رجاله من النزول الى البر ، وتبادل الفريقان النيران ، فقتل الاسبان قائد الجماعة التى عهد اليها بالنزول وكان الشاب جرفاس من أفرادها ، فلم يكن منه الا أن تقدم بكل جرأة وحماسة ويدافع من نفسه دون أية سلطة لديه ، فأقبل مكان القائد القتيل ، ومار بالجماعة بكل شجاعة حتى اقتحم المدينة مع المقدمة التى استبقته بقيادة كريستوفر كارليل فكان للانكليز بهذه الحركة الجريئة منه النصر المبين .

ولما سمع دريك بما كان من بسالة الشاب واقدامه أمر بتثبيته فى القيادة التى عرف كيف ينتهز الفرصة لاتخاذ جرأة واختصاصا .

وسلمت الحصون القائمة فى المدينة بعد المقاومة الفاشلة

وحاصرها الانكليز واقتضوا أهلها الفدية .

وتحول الاسطول الى قرطاجنة . حيث لقى مقاومة اشد من السابقة ولكنه تمكن من اخضاعها ، كما راح جرفاس يظهر كذلك بسالته النادرة وبراعته فى قيادة رجاله والهجوم بهم على بيادة الاسبان ومقاتلتهم بالسلاح الابيض فى ملحمة عنيفة . انتهت سريعا بتسليم المدينة ودفع الفدية المطلوبة .

ورأى البطل دريك أن ما فعله يعتبر كافيا لاقناع الملك فيليب وديوان التفتيش ان الانكليز قد لا يناموا على الضيم ، ولا يصبرون على الاذى ، فاعتزم العودة الى بلاده .

وفى طريقه الى السواحل الانكليزية راح يدمر اسطولا اسبانيا فى فلوريدا ، حتى وصل الى ثغر بليموث فى نهاية شهر يوليو ، وقد أثبت للعالم كله أن أعظم دولة فى الارض وهى اسبانيا لا تزال على قوتها وعظمتها معرضة للهزيمة مستهدفة للغلبة عليها ، كما جعل الحرب أمرا لا بد منه ، بعد أن تحداها على هذه الصورة الجريئة .

وكان جرفاس كروسبى الذى عاد الى موطنه فى اروتياك غير الشاب جرفاس الذى سافر منذ عام ، فقد تغير وعاد خلقا جديدا ، اضجته المخاطر ، وافادته التجارب ، وغيرت من شأنه المعارك والملاحم ، واكسبه العلم بالدنيا وما فيها قوة الاعتداد بالنفس والثقة بالذات ، كما لفح السفر سحنته ، فاستحال أسمر البشرة ، كث اللحية ، عجيب المنظر غريبا عن العين التى ألفت رؤيته قبل الآن .

وذهب على أثر عودته الى قصر تريقانيان وهو مقتنع الآن بأن الاستيلاء على قلب الحسناء مرغريت أمر لا يذكر بجانب الاستيلاء على مدائن الاسبان .

ولكن اللادى مرغريت لم تظهر أية حماسة أو اعجاب بفعاله حين ذهب يقص قصته وهى حاضرة مع أبيها وهو

ممتعض لا يريد سماعها .

ولم يكد يفرغ منها حتى قال الشيخ ان دربك لم يكن في كل ما فعله سوى قرصان سفاك أثيم وأمنت ابنته على رأيه . ارجع جرفاس غاضبا حانقا من أن تقابل أعمال البطولة التي أداها بهذه الدراية وذلك الاحتقار !

والواقع ان الأول اوقد جاور كان من كثرة الاطلاع والانكماش الى الفلسفة فتوصل الى النظر الى الدين نظرة جديدة هي أدعى وأسمى بكثير من نظر المسيحيين المتعصبين لمسيحيتهم ، فلم يعد يؤدي فرائضها بأن شكل من الاشكال .

ولكنه خلف هذه الفلسفة الجديدة كان يشعر بحنين وعطف على تلك العقيدة التي كان يعتنقها في شبابه .. عقيدة آبائه الاولين . وكانت هذه الحماسة الكامنة في أعماقه تظهر في المناسبات القليلة التي ينتبه فيها من ذهوله الفلسفي الى مشاكل وطنه ومسائل بلاده .

وهذا الشعور هو الذي خلق الجو الذي نشأت مرغريت فيه فجعلها كسائر أشراف القصر وسادته .. متسائرة في أعماق قلبها بالعطف على ملكة اسكوتلاندة السجينة في أحد سجون انجلترا سجنا قد لا تخرج منه الا الى القبر .

وقد تشعر مرغريت ببعض الكراهية لاسبانيا واستنكار فظائعها وما يشاع عن شنائع محاكم التفتيش فيها .. ولكن ذلك لا يلبث ان تخف حدته وتسكن ثائرته بميلها الى اعتبار الملك فيليب نقمة من الله على انجلترا وأهلها ، لتخليص تلك الملكة المذنبة من أجل الدين !!

وقد لاحظت غضب جرفاس وجومه وصمته عند انصرافه من القصر عقب تلك المقابلة التي لم يكن ينتظرها . فابتسمت في تلك اللحظة ولكنها لم تلبث أن عادت بعد انصرافه تفكر ملياً ، مسائلة نفسها : ترى هل أله شديد الى حد سيحمله

على جفاء مستديم فلا يعود اليها ابدا ؟!

وأجابها خاطرها معترفا بأنها سوف تحزن وتغتم اذا حدث هذا حقا ، فقد كانا صديقين حميمين دائما ، وهي لا تريد أن تنتهي صداقتهما على هذه الصورة .

والظاهر أن هذه النهاية لصداقتهما لم تكن ايضا رغبة جرفاس ، لانه عاد بعد يومين عادتا ساكن النفس .

ولما جيء وهو قادم نحوها صائحة : « أهلا وسهلا بالقرصان المحترم !! » ، لم يسعه سوى الضحك .. وقد أدرك انها انما قالت ذلك لترضيته .

وكان يود أن يقبلها كالعادة الاخوية التي لزمها فيما مضى وارتضتها هي منه ، الا أنها رفضت ذلك بسبب اللحية الطويلة التي تركها تنبت وتطول قائلة انها تأنف من أن يقبلها وهو بهذا الشعر المسترسل .. اذ يخيل اليها ان دبا مشعرا يلثم وجهها !!

فعاد اليها في اليوم التالي حليقا قد جز لحيته المستكرة. فلم تكد تراه حتى ضحكت وأطالت المزاح والسخرية والعبث به ، الى حد انه غضب فأمسكها بخشونة وقبلها بالاكراه مرارا وتكرارا من شدة الانفعال والغضب ولكي يريها أنه السيد المالك وأنه الرجل الذي لا يمتنع عليه شيء يريده ، ولا يعز عليه ما يطلبه .

وأخيرا تركها تفلت منه .. وهم بأن يضحك ويسخر منها بدوره .. ولكنها وقفت حيالة منفعلة مرتجفة .. لاهثة الانفاس .. شاحبة المحيا ، مضطربة الحلائل .. يبدو الشرر من عينيها .

ووقفت هكذا طويلا تنظر اليه بهاتين العينين الغاضبتين في صمت فلم يكد يراها على تلك الصورة الرهيبة حتى خجل وشعر بأنه كان في مسلكه سوقيا جافا سيء الادب .

وأخيرا تمالكت نفسها وقالت فى صوت هادئ :

ـ يا عجبا ... ! يلوح لى انك لا تزال تتصور انك الى الآن فى سان دومنيجو ... !

قال متدمتما ولم يفهم المراد : فى سان دومنيجو ... ؟!

قالت : نعم حيث تعلمت أن تتصرف مع النساء هذا التصرف .

فصاح مستحييا : انا ... ؟! اقسم لك يا مرغريت ...

ولكنها لم تعبأ بايمانه واقسامه .. بل قاطعته قائلة :

ـ ولكن يجب ان تفهم انك هنا فى قصر تريفاليان .. لا فى مدينة عاجمها الفراصنة .. وان تتذكر انى اللادى مرغريت .. لا فريسة من الفريسات الاسبانيات ..

فشعر بانه قد جرح وأهين اهانة بالغة .. فصاح بها قائلا :

ـ بالله يا مرغريت كيف تظنين بى هذا الظن ..

وامسك عن الكلام لانه شعر بان الموضوع دقيق لا يسمح بان يشرح امام النساء .

ولحت هى مبلغ تأثره مما قالت فارادت ان تغيب السهم فى أعماقه تشفيا منه ومبالغة فى الانتقام . فقالت :

ـ ان هذا الاقدام منك بلا ادنى تحفظ يوحى بكثرة الخبرة وطول التعود فالحمد لله على أننى قد عرفت بالرغم من هذه الاساءة نوع المخاطرة التى خضتها والمشاهدات التى شاهدتها ، وان كان هذا الجزء من القصة قد حذف من الرواية التى قصصتها على ابى بنفسك .

ويظهر يا سيدى انك تعلمت الشىء الكثير فى اسبانيا وأرض الاسبان ولكنى لو كنت فى مركزك لما فعلت فى انجلترا ما تعلمت أن افعله هناك ؟

ولم تنتظر حتى تسمع منه شيئا ، بل انصرفت تاركته

هكذا واجما مذهولا فى حيرة بالغة من أمره . وقد هم بان يلحق بها . ولكنه ادرك أن لا فائدة من ذلك . فلم يسعه غير الرجوع الى اروبياك كاسف البال ، يناجى النفس قائلا أن الزمن وحده كفيل بمحو ما كان منه وتغيير رأيها فيه .

ولكن الزمن مع ذلك لم يعطه اية فرصة اذ تلقى قبل أن ينتهى الشهر كتابا من السير فرانسيس دريك يستدعيه الى لندن بليموث ولئن كان جرفاس عاشقا أبله ، الا انه كان بحارا ماهرا يرتجى منه وكان هذا هو اعتقاد دريك فيه ، وكان بحاجة الى كثير من امثاله ، اذ كانت الحرب قائمة ولم يبق شك فى قدومها .

وكان المعروف أن الاسبان يبنون اسطولا ضخما فى ذلك الحين ، كما أن اليزبث اوف بارما كان مشتغلا فى فلاندرز ـ أى هولندة ـ بتعبئة جيش عرمرم من خيرة الجنود فى أوربا لاجل غزو انجلترا بمجرد الانتهاء من بناء الاسطول العظيم الذى تتحدث عنه .

وقبل الرحيل ذهب جرفاس لتوديع مرغريت وأبيها ، فوجد هذا كعادته فى مكتبه ، بين كتبه واجلاده ، وأسفاره ودفاتره . وكانت رؤية الشيخ على هذه الصورة من قلة المبالاة بالخطر المحدق بوطنه ، فى نظر جرفاس اشنع وأفظع من وقفة نيرون على اطلال روما وهى تحترق لاهيا متفرجا .

ولكى يشبه الشيخ من سآمته أو ذهوله ، التفت يتحدث اليه عن غارة الاسبان على انجلترا كأنها قد حدثت فعلا .

ولكن الشيخ لم يجزع ولم يبد أى تأثر ... !

وانصرف جرفاس من حضرته لمقابلة مرغريت . وكان الوقت غريبا ، واليوم جميلا ، فوجدها فى الحديقة تتنزه مع جماعة من المعجبين بها والمتغزلين بحسنها ، ومن بينهم الشاب الجرىء ليونل تريسليان الذى أخذ يكثر من التردد على القصر

في تلك الايام . والفتى بيتر جودولفين وهو وان كان حفاقريبا من أقارب مرغريت ، فليس من القرابة الوثيقة حتى يطمع في كسب القرب وتمني الوصال . وكان اولئك جميعا من شبان العصر المعنين بالاناقة والرشاقة وحسن الهندام لا يفكرون في غير الزينة والتجميل واختيار اثاني التطرية وأفخم الحلل والثياب .

فانقض جرفاس على حلقتهم بتلك الاخبار الخطيرة عن الحرب وهو يتوقع أن يزعجهم بها ويخرجهم من هذا اللهو والاستهتار .

ولكنه احب أن يتجاهلهم فتحول الى مرغريت قائلا :

ـ لقد جئت لاستأذنك في السفر فقد استدعاني الاميرال لأن امير بارما يوشك الاغارة على انجلترا .

فبدت حركة اهتمام من الجماعة نوعا ما . وكان يمكن ان تزيد شيئا فشيئا لولا أن الشاب جودولفين عمد الى المزاح والمداعبة فقال :

ـ لا بد أن الامير لم يسمع بأن المستر كروسبي قد انضم الى الاميرال .

فضحك الجميع الا مرغريت ، ولعل هذا وحده هو الذي حرك جرفاس للجواب . فراح يقول :

ـ ولكنه سيسمع بذلك حتما ، فاذا كانت لديكم ايها الشبان المتقاعدون والفتيان القابعون في دوركم رسائل تريدون ايصالها اليه فاني لا أتردد في حملها اليه !

وكان يود أنه اشتبك في مشادة مع أحد منهم أومعهم جميعا ، الا أنهم لم يتساوا التحرش به ، فقد كانوا فتيانا ناعمين لينين ، اخوة رشاقة وتكسر وخنوثة ، ولذلك التزموا السكوت ، بينما تشجع هو بوجود مرغريت فاظهر لهم منتهى السخرية .

وحينما تركهم منصرفا فارقتهم مرغريت منصرفة معه الى المنزل ولكنها لم تكد تبلغ الردهة الفسيحة حتى وقفت ، ليوقف هو ليودعها الوداع الاخير قبل الرحيل .

وكانت عيناها في تلك اللحظة ترسلان نظرات يبدو فيها بريق الجد والاهتمام .

قالت : أهناك حرب حقا يا جرفاس ؟!

قال : هذا هو ما فهمته من الرسائل التي تلقيتها ومن استدعائي بهذه السرعة ، فقد نبه علي بأن أسافر حالا لأن كل انسان أصبح مطلوبا !

فالقت احدى يديها على ذراعه وقالت :

ـ في حراسة الله تذهب يا جرفاس وبالسلامة تعود .

ولا شك في أن كلامها كهذا مألوف في هذه المواقف ، ولكن النغمة التي قيل بها نغمة لم يسمع مثلها من صوتها في يوم من الايام ، وكان يصح أن تشجعه هذه النغمة وتجرئه . وهو الجريء المفرط في الجسارة الى حد التهور ، بل كان يصح أن يقبلها في تلك اللحظة ، وهو متأكد أنها لن تؤنبه في هذه المرة ولن تعاتبه ولكنه لم ينتبه الى هذه الحقيقة ، ولم تخطر مطلقا بباله ، كما أنه لم يلاحظ أن الامتناع عن تناول ما تعرضه المرأة ، هو أمر ألم لها وادعى الى اغضابها من الاقدام على اغتصاب ما لم تعرضه أو تقدمه !

وهكذا بينما كان قلبه يخفق رجاء وأملا في بغيتها الرقيقة ونظرتها العطوفة ، كانت ضربات قلبه أيضا سريعة شديدة الخفقان من شدة التهيب والخوف ، فقال متلعثما :

ـ اذن ستنتظرين .. يا مرغريت ؟!

قالت : وأي شيء آخر أفعل ؟ هل تريد مني أن الحق بك ؟

قال مضطربا : أريد أن أقول هل ستنتظرين حتى

أعود ؟

فابتسمت فى اغراء وقالت : يجوز !

فعاد يقول فى لهفة المتشكك :

ـ أحائز وليس مؤكدا يا مرغريت ؟!

فصاحت به قائلة : بل مؤكد يا صديقى !

قالت ذلك لأنها لم تشأ أن تقسو فى اجابتها وهو مسافر فى أمر يحتمل ألا يعود منه .

وكان تصور هذا وحده كافيا لترقيق قلبها اذ تخيلت ماذا يكون من أمها وحزنها اذا هو استشهد ولم يعد من القتال .

أخذتها الشفقة عليه فأعطته الجواب الذى خانته الشجاعة فلم يجرؤ على طلبه منها ، قالت :

ـ اعلم ياجرفاس انى اذا رضيت الزواج فلن أتزوج أحدا سواك !

فلم يكد يسمع ذلك حتى طفر قلبه من شدة الفرح وصاح بها :

ـ أحقا يا مرغريت !

وفى تلك اللحظة حضر جودولفن الشاب ، الرشيق ليعرف ما الذى حجب اللادى مرغريت عن ضيوفها الكرام .

وتألم جرفاس ولعنه فى سره واضطر الى الاستئذان ، ولكنه كان مسرورا مرتاح الخاطر ، فاكتفى بأن تناول اليد الناعمة الناصعة التى كانت ملقاة على ذراعه فلثمها بخشوع واحترام ، وغمغم قائلا :

ـ ان هذه الكلمات التى فهت اللحظة بها ستكون لى درعا واقيا من الاخطار .

وكأنما خجل من هذا التصريح فانصرف مسرعا لا يلوى على شىء .

الفصل الثالث
فى مياه كاليه

لم تكن الحرب متوقعة بالسرعة التى تخيلها جرفاس .. بل كانت هناك أسباب وبواعث تمنع كلا من أسبانيا وانجلترا من الاقدام على الحرب هكذا وشيكا وبلا سابق انذار .

لقد كان البابا يلح على الملك فيليب بأن يقوم بواجبه بصفته النصير الأوحد للدين المسيحى ، فيخلع الملكة من عرش انجلترا بعد أن طردها غيظه من رحمة الله !!

ولكن الملك فيليب لم يكن أحمق ولا متهورا حتى يقدم على هذا العمل دون أن يعرف ما وجه الفائدة التى تعود عليه هو منه .

والظاهر انه كان يرى أن مصلحته من ذلك لا تذكر بجانب مصلحة البابا ، فعرض عليه أن يتولى غيظته نفقات الحرب وتكاليفها اذا كان حقا يريدها خدمة للدين .. فما أن سمع البابا سكتاس الخامس بهذا الاقتراح حتى تملكته ثورة الغضب فألقى بصحاف الطعام من فوق المائدة ساخطا متذمرا .. !

أما انجلترا فلم تكن لها أدنى رغبة فى الحرب ، لانها كانت ترى اسبانيا اقوى منها وأعز نفرا وأضخم جيشا وعدة وعديدا ، وعندها المستعمرات الواسعة ، والاموال الطائلة ، وجزائر الهند الغربية من أملاكها الممتدة النطاق .. ولكن لما كان الخطر عليها قادما من هذه الناحية ، كان الواجب أن تتأهب وتحتاط لذلك الخطر .

وهذا هو سر الحركات البحرية التى كان الانجليز يقومون بها ، ومن أجلها دعى جرفاس على عجل .

وكان العمل جاريا على قدم وساق فى عمارة السفن

وتخزين المؤونة وجمع الذخيرة وصنع البارود . وكانت الاوامر التي تصدر من القصر مضطربة . مما يدل على ان الحرب غير مؤكدة . فيوما يصدر الامر بتعبئة الاسطول .. ويوما يصدر بوقف التعبئة .. وحينا بالتجهز والاستعداد .. وحينا آخر بالكف عنهما في الحال . وهكذا دواليك !!

ولكن الشان والابطال الذين اعتزموا المخاطرة في سبيل بلادهم لم يأبهوا بهذه الاوامر .. وانما واصلوا الاستعداد .

وربما كان في فكر السير فرانسيس دريك البطل البحري انه اذا لم تأت الحرب فلا بأس على كل حال من معاكسة اسبانيا ومضايقتها من حين لآخر بالمناوشات والاشتباكات .

ـ كان (دريك) ترضانا بالطبع والسليقة .. ولصا من لصوص البحار بالملكة والاستعداد . ومن واجب الانكليز أن يحمدوا الله على أنه كان كذلك . لانه عرف كيف ينقذ انجلترا يومئذ من عدد مبين .

ومما زاد في خطورة الموقف أن الانكليز رأوا الا سبيل للتخلص من المؤامرات والدسائس والمكائد التي كانت تكاد وتبيت لمحاولة اعادة ملكة اسكوتلاندة السجينة الى العرش .. غير اعدامها بلا تردد ولا ابطاء .. لان هذا العمل حرك الملك فيليب ضد انجلترا وجعله يعتقد أن لا بد له من غزوها للتدخل في أملاكه وتصبح جزءا من امبراطوريته الواسعة الارجاء .. كما وجد فيه مبررا كافيا لاثارة حرب دينية ضد أولئك الانكليز المارقين من الدين .

فلم يلبث أن أطلق رجال الدين .. أو زبانية محاكم التفتيش .. اجوان سان دومينيك كما كانوا يومئذ يسمون، للمناداة في طول اسبانيا وعرضها الى نصرة الدين .. والذود عن العقيدة .. وما لبث الافاقون المخاطرون من كل حدب وصوب أن هرعوا عارضين سيوفهم المشرعة لخدمة الملكة ضد اعدائها

الكافرين .

وهكذا اطلقت الكلاب الضارية من سلاسلها المربوطة في الاطواق !

وكان غرض الملك فيليب يرمي الى اطلاقها على انجلترا لكي تعيش عيشها وتعمل فيه انيابها الحداد .

وادرك السير فرانسيس دريك أن الحكمة تقضي بالا يقف مكتوف اليدين .. بل يجب أن يواصل التأهب والاستعداد .

ولهذا سافر دريك الى لندن وقابل الملكة وعرض عليها رأيه في هذا الشأن ، فلم ترح اليه بل قابلت مشروعاته واقتراحاته بفضب واستياء اذ كانت تأمل أن تصل بالسفارة والوساطة والمفاوضة الى الصلح مع فيليب على اعتقادها أنه لا يريد الحرب منتصحا بنصيحة البرنس اوف بارما الذي كان منشغلا في فلاندرز ـ أي البلجيك وهولندة ـ بقطع دابر الثورات والقلاقل ، فلا متسع أمامه للعمل في حرب أخرى ضد الانكليز .

ولما رأى دريك هذا الخروج من الملكة الى السلم . قال لها :

ـ أنت اذن تريدين السلم يا مولاتي فدعيني افعل شيئا لضمانها !

فاستفسرته ماذا يعني بهذا ويقصد . فكان جوابه انه الى تلك اللحظة لا يعرف ماذا هو صانع ولا يتأتى له أن يعرف متى يصل فعلا الى المياه الاسبانية . وان كان مع ذلك لا يعرف الى أين يتجه وأية ناحية على التعيين اليها يقصد . وانما يكفي لضمان مصلحة الملكة أن تتأكد أنها باظهار قوتها على هذه الصورة ستوفر تظفر في أي اتفاق على الصلح . بأحسن الشروط كما أنها ستزيل من أذهان اعدائها أي ريب في أنها انما اصطلحت عن ضعف ، وجنحت الى السلم عن خوف وتجنبت

الحرب من خشية واشفاق !

وضحك الرجل فى نهاية شرحه وبيانه قائلا :

ـ يعنى بالصراحة يا مولاتى اننا من المصلحة أن « نيلف » ونعمد الى المخادعة والايهام .

وكان دريك رجلا قويا ساحر الشخصية ويكفى ان يرسل بريق عينيه النفاذتين الرهيبتين لكى يسلم برأيه ويمتثل لمشيئته .

وكان يومئذ قد بلغ الاربعين، قوى البنية ، شديدة الاسر، مقبول الوجه ، متناسب المحيا ، مرسل اللحية تخفى حركات فمه التى تنم عن قوة ارادته .

فلم يسع الملكة الا التسليم له وهى كارهة .

ولاحظ هو هذا النكره فخشى أن تعاود الملكة التردد ، والتقلب فى الرأى ، فبادر غير متمهل الى الرحيل على سفينته « البوتا فنتام » وفى رفقته أسطول مؤلف من ثلاثين سفينة شراعية اذ لم يكن البخار قد اكتشف بعد .

ومن عجائب المصادفات انه لم يكد يقلع بأسطوله حتى وقع ما كان يخشاه وهو وصول رسول من الملكة ليحجزه عن السفر ، ولكنه كان قد رحل وربما كان على علم سابق بأن امرا بالحجز كان موشكا أن يصل اليه فعجل بالرحيل لينفلت !

وبعد ستة أيام من بداية سفره وصل الى مياه كاليه ، فعرف منها فى الحال ماذا يجب أن يفعل ، اذ رأى زحاما من السفن فى حوض تلك الميناء دليلا على أن هناك تجريدة بحرية فى طريق التجهيز والاعداد للتعبئة ضد انجلترا فعول على مباغتتها والاستيلاء عليها فجأة وهى آمنة .

وخدمة المد واعانته الريح فما لبث أن تمكن منها جميعا

قبل أن تدرك ماذا جرى ، وكان هذا العمل الجرىء منه بلا شك آخر ما كانت اسبانيا تتوقعه .. فلم تنبت انجلترا أن أطلقت عليه من البطاريات الاسبانية .. ولكن بغير جدوى .. لانه كان قد عرف كيف يحيط بها .. ويستولى عليها .. ويجردها من كل ما رأى أنه ينفعه ويصلح له ، ثم لم يكد يفرغ من تجريدها حتى احرقها جميعا وبذلك أتلف ما قيمته الاموال الطائلة .

واستأنف الرحيل وهو معتقد بعد هذا الحادث الذى وصفه بانه قد أحرق به لحية الملك فيليب ، ان « الارمادا » ـ أى الاساطيل الاسبانية ـ ستعجز عن الخروج للغارة على سواحل انجلترا طيلة ذلك العام .

وكان مصيبا فى تقديره ، فلم تخرج اسبانيا اساطيلها العظيمة او الارمادا الضخمة الرهيبة الا فى شهر مايو من العام التالى ، اذ ابحرت فى مائة وثلاثين سفينة من شواطىء نهر التاجاس ، تتقدمها السفينة « سان مرتان » رافعة علم الاميرالية ، التى عقدت لدوق « مدينا سدونيا » .

وقد حوت السفن ثلاثين الف رجل ، وهى تجرى فى البحر باسم الله مجراها ، مسافرة فى سبيل حرب مقدسة لنصرة الملة والدين ! حتى لقد اعترف كل رجل منهم بذنوبه الماضية واستغفر من آثامه . فقبلت توبته ، ورضيت استغفارته وانابته ، وبورك فى سفرته ، ودعى له بالسلامة وتلقى البركة والغفران ، من رجال الدين ..!

وقد زود كل منهم بصليب صغير . كما طرزت على العلم الاسبانى صورة السيدة مريم العذراء وابنها المسيح عليهما السلام ..!

وزودت السفائن من مطالب العناية بالارواح أكثر مما

زودت به من مطالب العنـاية بالابدان ! اذ بينما اقامت مالنى قسيسى ، لم يكن عدد الاطباء والجراحين الذين سافروا معهـا لخدمة الحملة يتجاوز المائة !

على أن « الارمادا » لم تلبث أن وجدت عوائق فى الطريق أخرتها عن المسير ، مما يوحى بأن الله لم يشأ أن تكون النصرة لدينه على يد اسبانيا او بأمر الاسبان !..

واخيرا فى نهاية شهر يوليو ، وصل الاسطول الاسبانى الى ميـاه بحر المانش .. ولم يبق شـك فى أنه جاء لغـزوة الانكليز .. ولكن دريك كان بالمرصاد .. منتظر اليوم الذى يقع هذا الحادث فيه لتنفيذ ما عقد العزم عليه .

فلم يكد يشـعر بذلك .. حتى تسلل خفيـة من ميناء بليموث فأرسل خمسين مركبا من مراكبه .. خافقة الاشرعة والساريات .. زاحفة صوب سفن إسبانيا العظيمة لكى تريها انها يقظى منتبهة لحركاتها وسكناتها . فلم يلبث الاسبان أن فركوا أعينهم من فرط الدهشة ، ولكن البطل دريك لم يترك لهم لحظة من الوقت ليأخذوا منه حيطتهم ، لانه اطلق سفنه المشتعلة حتى اخترقت مؤخرة الاساطيل الاسبانية وراحت وهى هكذا تندفع من مرمى بران مدافعهـا تصب وابلا مدرارا من مدافعها التى كانت اكبر وأضخم على السفن التى فى المؤخرة ، فاضطرب نظام الاسطول الاسبانى وتدافعت مراكبه . فكانت خسائرها من التدافع والتزاحم بسبب كثرة عددها وعديدها اكثر وابلغ من خسارتها بسبب هذه المباغتة الداهمة .

وقـد أخذ الدوق « مدينـا سيدونيا » يشهد هـذه المفاجأة التى لم يتوقعها .. فوقف مبهوتا مشدوها ..

لم يكن فى الحقيقة خبيرا بحروب البحر واسرارها . ولا هو بالمقاتل المحارب فى شىء ، حتى لقد اعترف بهـذا العجز حين حمله الملك فيما بعد المسئولية عن هذه الهزائم المتكررة ،

ولم يكد يركب البحر حتى شكا من دوار ، ولزم سريره من وعكته ، فما بالك وقد فوجىء بتلك الالاعيب الانكليزية العجيبة ، وهذه الفنكات الطارئة المدهشة ..!؟

وهكذا وجد الدوق نفسه وهو يقود اعظم واكبر واروع ما شهدت الدنيا من الاساطيل والمراكب تحت رحمة السفن الانكليزية ، هى تطاردة فى المانش ، وكأنهـا الذئاب تطارد قطعانا من الماشية !

وما لبث القائد الاندلسى ، دون بدرو فالدز ، ولعله كان اقدر قواد الارمادا ، وأعظم امراء البحر من الاسبان كفـاءة ومهارة ان تألم واغتم ، واحبط به ! فلم ير بدا من التسليم كما أن سفنا أخرى كثيرة اصيبت بخسائر بالغة فى اليوم الاول من القتال بسبب تلك المناورات ، فلم تعد تصلح لقتال ، أو تقوى على المثابرة .

وفى اليوم الثالث . وكان يوم الاثنين ، استراح الفريقان ، فلم يقاتلا ، وانما قضاء الاسبان فى لم شعثهم والاستعداد للقتال .

فلما كان اليوم التـالى ـ الثلاثاء ـ تغير مجرى الريح ، فكان فى هذه المرة معهم ، وكان منتظرا اذن ان ينتهزوا هذه الفرصة فينقضوا على الانكليز ويبيدوهم !. وقد اعتقدوا أن الله ـ اخيرا بتسخير الرياح لهم ـ قد اراد أن تكون نصرة دينه على ايديهم ! ولكن مالبثوا للاسـف ان تبينوا فى ذلك اليوم أن الشيطان كان يحارب فى صف الانكليز ، لأن الدائرة دارت عليهم ، وتكررت فاجعة يوم السبت . على الرغم من مهادنة الريح لهم ، حتى كادت سفينة القائد العام نفسهـا تتعرض للخطر .

وانقضت الاربعاء فى راحة فلم يقع قتال ، ولكن يوم الخميس

انتهى بهزيمة أخرى : وأخيرا تبين الدوق أنه لم يبق أمامه سوى محاولة الاتصال بامير بارما ليمده بحاجته من المؤونة والمعونة ولهذا اتجه باسطوله المتروح المكدود الى مياه كاليه ليلقى فيها مراسيه وهو مطمئن الى أن الانكليز لا يجرؤون على متابعته فى تلك المياه المحايدة .

ولكنه أدرك خطأه فى الحال اذ تبين له انهم راحوا يلقون مراسيهم هم أيضا على مسافة ميلين من موضعه .

وبينما كان الاسبان يضمدون جراحهم ويصلحون شباكهم ويدفنون قتلاهم ، كان الانكليز يتدبرون الموقف وقد جلس الاميرال الاكبر هوارد اوف ايفنجهام فى القمرة الكبيرة بسفينة الاميرالية ارك رويال يتشاور فى الامر مع كبار ضباط الاسطول وقواده .

ولم يكن الانكليز يجهلون الغرض الذى كان الاسبان يرمون اليه من الرسو فى مياه كاليه . ولا الخطر عليهم وعلى الكنترا نفسها فى تركهم فى ذلك الموضع ، فان الامدادا لم تكن مع هذا كله قد عطبت عطبا يشل من حركتها ولكن الروح المعنوية هى التى تأثرت أكثر مما تأثرت السفن فقد أزالت تلك الضربات الفجائية من اعتداد الاسبان بانفسهم وهزت من ثقتهم بذاتهم ، واذا كان الاسبان قد خسروا عددا عديدا من رجالهم ، ففى وسع امير بارما أن يسد النقص من هذه الناحية ، كما أن الشجاعة والثقة الذاتية قد تستعادان بالراحة والاستجمام ، وفى الامكان أيضا اصلاح عطب السفن التى اصيبت بسوء ، وتجديد المؤن واستكمال الذخائر .

كانت هذه الاعتبارات وحدها كافية لكى تبين للانجليز وجوب العمل السريع واتخاذ خطة عاجلة لمهاجمة الاسبان حتى لايتركوا على هذه الصورة فيتمكنوا من الاستعداد

وتجديد النشاط .

وكان هناك سبب آخر يقضى بأن لايترك الاسبان فى أمان مطلقا وهو أن المؤن قد بدأت تنفد عند الانكليز ، لذلك كان الموقف يدعو الى البدار الى العمل على أية صورة من الصور .

فكان رأى دريك احراق سفنهم بأية حيلة كانت ، وكان المنتظر أن يكون المد فى تلك الليلة متجها نحو مراسى الاسبان ، وفى الامكان استغلال هذا المد فى تعويم بعض السفن تحت ستر الليل لاشعال النار فى بعض قطع اسطولهم .

ووجد هذا الرأى ارتياحا عند أكثر القواد . وانما وجه الاعتراض عليه أنه لا يمكن تنفيذه ليلا حتى يتيسر نهارا معرفة مواقع الاسبان بالضبط واستكشاف مراسيهم ، وهو مالا سبيل اليه من مكانهم هذا البعيد من المراسى الاسبانية .

هذه هى الصعوبة التى كانت تحول دون التنفيذ .

ولكن أحد القواد — وهو هوكنز — أبدى اقتراحا لتذليل هذه العقبة ، غير أن الاميرال هز رأسه متشككا فى وجاهته قائلا انه يعتقد أن الشخص الذى يرسل لاستكشاف الموقع لن يعود .

فقال دريك : هذا يتوقف على صفة الشخص نفسه ومقدرته وأمثال هذه المشكلات والصعاب يمكن التغلب عليها بالبراعة والاقدام .

ولكن القائد الاكبر هوارد لم يقتنع .. فعرضت اقتراحات أخرى وآراء كثيرة تناقش فيها المجلس واحدا بعد الآخر ورفضها جميعا وانتهى المطاف بهم الى الفكرة الاولى .

فقال هوكنز : الواقع أنه ليس أمامنا غيرها ، والا فلا مفر من الاستغناء عن الاستكشاف مطلقا .

وقال الدوق هوارد : سيكبدنا هذا حسارة أرواح كثيرة .

ولكن دريك كان عنده الجواب على هذا الاعتراض . فقال :

- كل انسان منا هنا مغامر بحياته والا لما جئنا .

فنظر هوارد اليه مليا ثم سأله :

- وهل تعرف رجلا يستطيع أن يقوم بهذا العمل ؟

قال : نعم .. وهو موجود بالفعل وقد جاء معي وهو الساعة منتظر اوامري .. انه في الحق فتى باسل ، ذكي ، اخو همة . كأنما قد خلق للطوارئ والصعاب والأزمات ، لايخاف شيئا ، ولا يرهب امرا ، ولقد خبرته في سان دومنيجو ، ومن ذلك الحين لم يفارقني .

وسمع هوارد هذا الوصف فقال :

- ولكن حسارة أن نفقد رجلا كهذا الذي تصف .

قال : كلا ، فما هو بالرجل الذي يجعلنا نخسره ، فاذا وافقت ارسلت في طلبه اللحظة لكي تقابله في هذه المسألة ؟

وعلى هذه الصورة دخل جرفاس في حضرة مجلس الحرب أو بالتالي دخل في التاريخ .

ولم يكد يظهر امام هؤلاء القواد حتى اعجبهم شكله ومظهره ، ولكنهم مع ذلك احسوا الاشفاق عليه ، لشبابه ، ولبلغ الخطر الذي سيتعرض له .

ولكنهم ماكادوا يسمعون ضحكته عقب أن سمع من دريك بالمهمة المطلوبة منه ويشهدون استهانته بها حتى وقع حبه في قلوبهم واكبروه كل الاكبار .

ووقف جرفاس يصغي الى شرح المهمة وبيان تفاصيلها بكل انتباه ولهفة .. حتى اذا وعاها جميعا وعرف ما هو مطلوب منه قال .

- بما ان الوقت اصيل والليل لم يحل بعده فلا ينبغي تضييع الوقت بل يصح أن أقوم بذلك في الحال .

فزاد هذا في اعجاب القوم به .. حتى لقد مد اليه القائد العام يده مصافحا قبل انصرافه . واختلجت شفتاه .. وابرقت عيناه .

واخيرا قال :

«حين» تعود - وقد شدد في نطقه لكلمة «حين» هذه - ارجو أن أراك .

• • •

في ذلك الاصيل كان الدوق «مدينا سيدونيا» يتمشى مع جماعة من الضباط على سطح سفينته سان مارتان وهو مفكر ساهم واذا به فجأة يلمح من بعيد مركبا شراعيا صغيرا قد انفصل عن مراسي الانكليز وجاء مسرعا صوب مراسي الاسبان .

ومن فرط دهشته هو والذين معه وقفوا جميعا يتأملون مشهد هذا المركب الشراعي الذاتي نحوهم ، كما وقف آخرون في السفن الاخرى يشاهدونها وهم جامدون في أمكنتهم مشدوهين .

وكان أول ماخطر لدون انها لابد أن تكون قادمة اليه برسالة من الانجليز .

وقد نبهه بعض الضباط الذين كانوا معه الى هذا الخطأ لاسيما وان السفينة القادمة لم تكن رافعة علم السلام كما هو شأن كل سفينة تحمل رسولا من قبل العدو .

وفي هذه اللحظة كانت السفينة قد اقتربت كثيرا منهم وقد وقف جرفاس بقسمه عند دفتها ومعه شاب قد جلس الى منضدة وحمل في يده قلما ، وعلى أحد جانبيها وقف جندي من المدفعية بجانب مدفع متأهبا لاطلاقه في اية لحظة وعلى

سائرة بسرعة مدهشة ، حتى استدارت حول سفينة الدوق وراحت تطلق طلقة عليها ، ولو رأى دريك هذا العمل الذى أتاه جرفاس فى تلك اللحظة لسماه مجرد ايهام للتظاهر كما اعتاد أن يقول ، وقد كان الغرض الحقيقى منه فى الواقع تضليل الاسبان حتى لايكتشفوا سبب هذه المفاجأة وداعيها وهو انما جاء ليستكشف الموقع ، لا لتضرب وتهاجم ، كما أراد بهذا العمل أن تضلل وتوهم .

ولم يتوان جرفاس لحظة فى تقدير المسافة من الشاطىء الى موقع السفن الاسبانية وملاحظة مواقع هذه بالنسبة لسفينة القائد العام ، واملاء ملاحظاته بالتفصيل والدقة للشاب الجالس الى المنضدة بصفة سكرتير له .

وقد انتهى من هذا العمل بسرعة مدهشة، دون ان يتعرض أحد له .. ولكن لم يلبث أن افاق احدهم من هذا الذهول الذى اعتراهم جميعا .. فراح يسائل نفسه : ماذا عسى أن يكون وراء هذه الجرأة المتناهية فى تلك السفينة الصغيرة.. وكيف تترك هكذا دون اتخاذ اى اجراء نحوها .. فلم يتردد مع هذا الخاطر الذى اعتراه فى تلك اللحظة فى اصدار الامر باطلاق النار عليها .

ولكن الطلقة لم تصب الهدف ، وانما مست شراعها الكبير مارقة فى الفضاء .

وتنبهت السفن الاخرى فى الحال من جمودها فاطلقت مدافعها ، ولكن عملها هذا جاء متأخرا .. لان السفينة كانت قد جاوزت مرمى المدافع الاسبانية .

وكان دريك واقفا فوق سطح مركبه «الريفنج» ـ اى الانتقام ـ منتظرا جرفاس حين جاء هذا فبادره قائلا :

ـ ماهذا يافتى ؟ وكيف نجوت ؟

فدفع جرفاس اليه بالاوراق التى حوت التفاصيل

والمعلومات المطلوبة التى املاها لرفيقه .. فنظر دريك اليها مبهوتا وراح يصيح به قائلا :

ـ بالله العرش .. احساب وتقدير وتدوين ايضا .. هيا بنا الى الاميرال .

وفى تلك الليلة خرجت ثمان سفن مدهونة بالقطران تحت جنح الظلام يدفعها المد .. ويصحبها التيار .. تتقدمها سفينة القائد .. ميممة مواقع الاعداء .. وقد أصر جرفاس على ان يتول هذه السفينة بالذات كنتيجة منطقية لقيامه من قبل بعملية الاستطلاع والاستكشاف ، واعتبارها فى الاهمية دون الاولى بكثير .

وما كادت السفن السود تدنو من سفائن العدو حتى اخذ رجالها يتسللون منها الى السفينة القائدة .. بعد ان اشعلوا فى جوانبها النيران . ولم يلبث النيار المتقاذف ان حملها وحدها مع الريح صوب سفن الاسبان وقد استحالت شعلات متأججة من النيران .

واشتد الذعر ، وتفاقم الهلع وسط الاسطول الاسبانى وخيل للقوم ان هذه السفن التى شب فيها الحريق ، لابد ان تكون ممتلئة بارودا وكان مجرد تصورهم هذا كافيا لاشتداد الرعب الذى استول عليهم اذ أيقنوا انها لاتلبث أن تنفجر. وان من الحكمة ان يبادروا الى الخروج من موقعهم هذا قبل انفجارها حتى لاتنسف اسطولهم نسفا .

وفى الفجر وجد قائد الاسبان العدو منقضا عليه بشجاعة مدهشة وعزم لايعرف اليأس . فاشتبك الجمعان فى قتال مخيف لم تشهد البحار يوما ارهب منه ولا اروع ولا أشد هولا . ولم يكد المساء يؤذن حتى تحطمت قوى الارمادا تماما أولئك القراصنة المكرة الدهاة ، ولم يبق منها الا عدد يسير من السفن نجت هاربة نحو الشمال .

وراحت السفن الانجليزية تطاردها فى فرارها ... كما تطارد الذئاب الانعام الهاربة ، حتى شردتها كل مشرد فى البحر الشمالى تاركتها للرياح تفعل بها ماتشاء .

وحق النصر للانكليز فى ذلك اليوم العظيم .

الفصل الرابع
السير جرفاس

فى احد ايام اغسطس كان مستر جرفاس كرومبتى احد المجتمعين فى بهو القصر الملكى بهويتهول .

ولم يكن المجتمعون فى البهو غير الاميرال ورجاله العديدين وقد حضروا استجابة لدعوة الملكة .

وكان شعور جرفاس فى تلك اللحظة مزيجا من الفرح بهذا المركز الذى أحرزه ، والتهيب من وجوده بين هؤلاء السادة كبار المراكز والاخطار .

وكان فى صدر القاعة مقعد اعلى وارحب من المقاعد الأخرى المصفوفة فى جوانبها الفسيحة وهو مذهب فخم جميل النقوش ، وقد جلست فيه سيدة يخيل لرائيها لاول وهلة أنها غادة شرقية من كثرة ما عليها من حلى وحلل ، وهى ذات وجه ناحل ، وخد أثيل وأنف طويل ، وقد اكتحلت وصبغت بالاحمر وجهها فى شىء من الاسراف لايكون مثله من الطبيعة وارجوانها الخفيف ، وقد غطت نحرها وجيدها بأمسطة من لؤلؤ كانها تحاول بها أن تخفى ذبول جمال بشرتها التى كانت يوما ناعمة فاتنة لولا فعل الايام والسنين .

وكان ثوبها كذلك مرصعا بكرائم الدر والجواهر وقد امسكت بمروحة محلاة أيضا بنوالم من اللآلىء تهزها برفق فى يدها ، لكنها تظهر جمال كفها الذى لم يذهب الدهر به وتخفى أسنانها القبيحة التى لم تستطع فنون التطرية ان

تزيل شكلها القبيح .

وقد اصطف عن يمينها وشمالها عرب من الوصيفات الحسان من اشرف الغيد فى البلاد واجملهن وجوها وأصبحهن طلعات .

ووقف عن اليسار رجل طويل ناحل متشح بسواد ملتح لحية بيضاء لاتناسب بينها وبين قبح وجهه . وكان هذا هو السير فرانسيس والسنجهام .

وكان اللورد موارد أوف افنجهام واقفا يقص على الملكة تفاصيل ماجرى فى بحر المانش بين سفن الجانترا وأساطيل الاسبان .

ولم يكن اللورد محدثا بارعا ، ولا هو بالراوية الحاذق فى وصفه وبيانه .

فلما أتى على ذكر استكشاف موقع الاسبان وايفاد سفن لاحراق اساطيلهم ، كاد يختصر فى وصفها ، لولا أن قاطعته الملكة قائلة له فى مثل لهجته ولغته .

ـ على رسلك ياهذا ولا تغذ المسير فانى اراك قد تشرت ذلوعك للرياح فلم تعد سفن الاسبان تلاحقك . الا قف لحظة وخبرنا كيف جرى ذلك الاستكشاف ؟ فانى اراك قد اوجزت حيثما ينبغى الاطناب .

فشرع يفصل الامر تفصيلا وسط سكون تام كان أحرى بان يوحى اليه التأنق فى العبارة ، وحسن اختيار الالفاظ .

واستضحكت الملكة وتبعها الآخرون وقد أثرت فى نفوسهم قصة تلك البسالة الشخصية التى امتلكت منهم الاسماع .

قالت الملكة : يمين الله انك لبحار أحسن منك محدثا راوية ، فقد تغفل ابدع الدقائق وتهمل الـ التفصيلات فلنقل لنا ماسم ذلك الفتى الذى انطلق يستكشف موقع

الاعداء على صدر جاريته الصغيرة .

وسمع جرفاس اسمه يذكر فى تلك اللحظة فارتجف وخفق قلبه ، وخيل اليه ان اللورد هوارد لفظ به فنزل من الاسماع منزل الرعد فى وسط السكون الرهيب وجلاله فلم يلبث أن اصطبغ وجهه حياء كالفتاة واضطرب فى موقفه .. اذ شهد وجوه معارفه الواقفين حوله وكأنما قد رآها من خلال الغمام ، وهم يلتفتون اليه ويبتسمون له اغتباطا وارتياحا لذكر اسمه فى هذه الحضرة العلية .

وعند ذلك طارت خواطره الى مرغريت فتمنى لو انها كانت حاضرة موقفه هذا وسمعت اسمه يذكر على الصورة ، اذن لتحقق ايمانها به ولوجدت الحجة القاطعة على صدق وعدها له بان تكون شريكه له فى الحياة .

وانتهى الامير ال من القصة فقالت الملكة فى حماسة وتأثر بالغين انها فى الحق قد سمعت أغرب قصة فى العالم والها تحمد الله على هذا التوفيق الذى تم على أيدى هؤلاء الابطال الصناديد .

وتلا ذلك عرض قواد الاسطول وضباطه السكبار على جلالتها لتتعرف بهم .

وتبع هذا العرض عودة الامير ال الى مكانه ، ليتقدم نائب الامير ال سير فرانسيس دريك فيعرض على جلالتها المتطوعين من أبناء الاسرات الشريفة الذين قبلوا الانخراط معه وكان منهم كثيرون تطوعوا أيضا بنفقات تجهيز سفنهم ودفعوا تكاليفها من جيوبهم الخاصة .

وكان اول من قدمه دريك من الشباب المتطوعين هو جرفاس كروسبى وكان واقفا مشرئب العنق مستوى القد ، فى ثوب من المخمل زاده جمالا وبهاء ، فبدا فى تلك اللحظة من فرط الحداثة ونضرة الشباب بحيث تلوح البطولة التى ابرزها

أكبر من سنه واعجب ماتكون من فتى مثله .

فما مثل بين يدى الملكة نظرت اليه نظرة اعجاب وتقدم هو فجثا عند قدميها ليقبل يدها ، فغطت جلالتها جبينها فى عبسة خفيفة من الدهشة والارتياك وهى تتامل قصة راسه وصغرة شعره الذهبى ، وما كاد هو يلثم يدها اجميلة حتى هم بالاستواء على قدميه فقالت بصوتها الخشن :

— لم هذه العجلة ؟ .. ابق جاثيا ايها الطفل . ابق جاثيا .. من الذى امرك بان تنهض ؟

فادرك خطاه واحمر وجهه ولبث جاثيا . وتحولت هى الى السير فرانسيس دريك مسائلة :

— أهذا هو الذى ذهب فى السفينة الصغيرة فاخترق مراكب الاسبان فى عباه كالليه ؟

قال : هو بالذات يامولاتى .

فقالت برفق مخاطبة جرفاس :

— لقد كان عملا رائعا يدل على شجاعة عظيمة ذلك الذى ادبته يابنى ؟

وامسكت لحظة ثم قالت :

— وأرى أن هذا العمل خليق بحظوة خاصة ، جزاء لصاحبه وتشجيعا للآخرين ، حتى يحذوا حذوه ويقتحموا قعوته .

وفى تلك اللحظة شعر جرفاس على غير انتظار بظهر السيف يلقى على كتفه ، وسمع الملكة تأمره بالوقوف بعد جثوته التى حسبها قد استطالت حتى اضجرته .

وما كاد يقف حتى عجب لنفسه كيف لم يتبين من قبل جمالها الغريب وكيف كاد يهم بالضحك عند اول نظرة تطلع بها اليها عند دخوله فلم يستطع ان يقول اكثر من أن تمتم وهو فى نشوة عجيبة من السرور .

- بورك فيك ياصاحبة الجلالة .

فابتسمت له وعمر وجهها وشفتيها في الحال مثل حاطف فبدت جميلة رائعة في ذلك اليوم على غير المألوف .

وكانت تلك التحية التي اختص بها قد رفعته الى مرتبة «سير» وهي من مراتب الشرف والفخار .

فلما انصرف من حضرة الملكة بعد هذا مع المنصرفين لم تسعه الدنيا من شدة الفرح ، وراح أول ماخطر له أن يذهب في الحال ليحمل النبأ السار للفتاة التي تنتظره، فاستأذن من السير فرانسيس دريك في العودة الى «اروتيك» فاذن له .

وما كاد يصل الى داره حتى طلب جوادا ليركبه الى قصر تريفانيان .

وفي المدخل المؤدي الى باب القصر لقي سالسبا في خدمة الـ جودولفن منتظرا بحرس ثلاثة جياد فعلم منه أن بيتر جودولفن وتريسليان وروزاماند أخت بيتر في القصر من الصباح وانهم تناولوا فيه طعام الغداء .

فاستاء جرفاس ولكنه علم من السائس انهم على وشك الانصراف لان الساعة كانت قد جاوزت الثالثة فتنفس الصعداء .

ووجدهم جلوسا في الحديقة كما وجدهم كذلك من سنتين حين ذهب الى القصر يستأذن مرغريت ويودعها قبل الرحيل ، لقد كان يومئذ متطلعا الى المجد ، متلهفا على الفوز بالشرف والشهرة والفخار ، أما اليوم فهو عائد اليها كاسبا ماكان يتطلع اليه ، ظافرا من ذلك كله بما كان حالما من الاحلام .

وارسل الخادم الذي تلقاه الى مرغريت ليبلغها بحضوره فدخل الخادم عليها معلنا بقوله :

- السير جرفاس كروسبي قد حضر يامولاتي .

وعلى هذه الصورة ، وبهذا اللقب الجديد ، تقدم جرفاس

وقد ارتدى أحسن ثيابه للقاء مرغريت رافع الرأس مختال في مشيته .

وبدت مرغريت لاول وهلة مضطربة لاهثة الانفاس ، لما لاحت الدهشة على وجوه الذين معها وظهرت امارات الارتباك .

وتبادل جرفاس ومرغريت النظرات في صمت وانحنى لها كثيرا وتناول يدها فلثمها قائما بهذا في تلك اللحظة كمقدمة لما سينعم به حين يتخلص من الثلاثة .

وبادر الى تحقيق هذا الغرض فقال :

- لم يمض على وصول غير ساعة واحدة .

وقد قصد بذلك الى افهام مرغريت كيف انه جاء مسرعا متلهفا لايفكر في غير لقائها بعد طول الغياب ، ثم التفت الى الشاب تريسليان فقال :

لقد اصبح اخوك أوليفر سيرا ، اذ انعمت عليه الملكة بهذا اللقب في الساعة التي انعمت به علي انا كذلك في قصر وايتهول .

فوقع النبأ المزدوج موقع الدهشة من الجميع ، الا بيتر جودولفن فقد حاول السخرية من الخبر والتهكم به كعادته فصاح ضاحكا وهو يقول :

- ياللعجب ! لقد هزلت اذن الالقاب ورخصت ، حتى اصبحت تتساقط هكذا كاليرد أو كالوابل المدرار .

وشعر جرفاس بهذه السخرية الموجهة اليه ولكنه تمالك غضبه وقال :

- كلا ياسيدي لم تهزل ولم ترتخص ، وانما تنعم بها الملكة على من تعتقد انهم مستحقوها والجديرون بها والاحرياء ولا ازال اذكر كلمة قيلت في حضرة الملكة ، وهي ان سفوة فتيان الحنترا وابطالها هم اولئك العشرون الفا الذين

ركبوا البحر لتحطيم قوى اسبانيا واساطيلها المسوانح في البحار ، فاذا انعم بلقب الشرف والمجد على عشرين منهم ، فلم تهزل الرتب اذن ولم ترخص ، لان واحدا في العشرين الفا قد اصابها ، ولو انهم جميعا أنعم عليهم لكان من الحمق ايضا ان يتهكم الانسان بعمله لهذا لاغرض منه سوى تجييزهم عن اولئك الذين قبعوا في ديارهم حذر الموت ، واعتمدوا على اولئك الابطال في الحرب من أجلهم والقتال .

فاضطرب الجميع وسادهم سكون اليم ، وبدا الاستياء على جبين اللادي مرغريت ، وتبينت مايدلر به الجو المكهرب بينهما فتدخلت لحسم النزاع فصاحت بهما قائلة :

ـ ناشدتكما الله كفى فلسنا نريد مزيدا .

والتفتت الى جرفاس فقالت :

ـ ان أبي ياجرفاس سيفرح بلقائك ، انه الآن في مكتبه وكان ذلك منها طردا له أو ابعادا ، وقد شعر هو بأنها قد اخطأت بذلك في حقه فغضب ، ولكنه مع ذلك أخفى استياءه وقال بكل هدوء :

ـ سأنتظر اذن حتى تنتهي فتذهب اليه معا .

وشعر الآخرون بالمعنى المقصود فاستداروا واسرعوا الى استئذان مرغريت في الانصراف .

وما كادوا يذهبون حتى نظرت مرغريت الى جرفاس بابتسامة مريرة قليلا وقالت وهي تهز له رأسها : لقد اخطأت ياجرفاس .

قال : كيف أخطأت ؟ وهل كان محسنا أن اهان واسكت على الضيم ؟ أهذا ماتنتظرين من زوجك أن يفعله ؟

قالت وهي تحملق البصر فيه : زوجي .

واستضحكت وعادت تقول :

ـ من فضلك ذكرني متى كان زواجي بك ؟ فوالله لقد نسيت .

قال : ماأظنك تسيب انك وعدتيني أن تتزوجيني .

فأجابته بتلك اللهجة ذاتها : لاأذكر وعدا كهذا .

فاشتد انفعاله ولكنها بقيت على هدوئها ، ومضت تهز رأسها وهي تقول :

ـ ان كل ماأذكره هو انني لن أتزوج أحدا غيرك .

قال : وهل هناك فرق ؟

قالت : نعم وهو انني أستطيع أن أحافظ على وعدي هذا ومع ذلك استمر على ليتي في قضاء بقية الحياة بلازواج اذا شئت .

قال وهو يقلب الامر في خاطره : وهل تشاءين ؟

قالت : لابد لي أن أقتنع باختيار العكس .

فسألها بلهجة المتحدي وقد شعر بجرح بالغ من هذا التجاهل لقيمته الجديدة ووضعة شأنه :

ـ وما الذي يقنعك ؟ بل كيف يتيسر اقناعك ؟

فنظرت اليه وهي واقفة حياله هادئة ساكنة الاوصال متمالكة نفسها تماما .. قالت :

ـ بطريقة غير الطريقة التي أردت الآن أن تقنعني بها

وعندئذ أحس بأن ذلك الفرح الذي بعثه على المجون ، وذلك الفخار الذي سرى في نفسه من ناحية هذا اللقب العظيم الذي أجرزه أخيرا وفاز به ، والحيلاء التي نفخت أوداجه قد تلاشت جميعا ؟ فقد كان يظن انه سوف يدهشها بما أحرز فاذا الواقع غير ذلك ، واذا الحقيقة مجردة من كل أولئك واذا قلبه قد استحال كالرصاص في صدره ، وقد اطرق بذلك الرأس الذي كان مرتفعا عاليا ، ووقف منكمشا منزويا ذليلا محطما لايقدر على شيء .

وراح يقول : لن أتردد في تنفيذ أي شيء تطلبين وتحقيق

اى مطمح تقترحين . لانني احبك يامرغريت . وانا لك مدين بهذا اللقب الذى ظفرت به . لانك كنت الهامي فيما فعلت . والوحي الذى بعثني على ماأقدمت عليه فنجحت فيه وأبليت وكان الخاطر الوحيد الذى يشغل ذهني يومئذ هو ان اجعلك فخاخرين بي وترضين عني . وان ماجنيته وما أنا غدا جانيه لن يكون شيئا ذا قيمة اذا لم تشاركيني فيه وتشاطريني اياه ! ..

وتطلع ببصره اليها فادرك انه قد آثر في نفسها بكلماته تلك وأذاب قليلا من جمودها وفتور عاطفتها اذ رآها تبتسم له في شيء من الحنان وقليل من الرقق والعطف . فشجعه هذا على الاسترسال في حديثه .

قال محتجا متشكيا :

- انك تسيئين معاملتي ! وتقابلين مقدمي في عجلة ولهفة واشتياق بهذا الاستقبال الفاتر الذى لم أكن انتظره

فاجابته قائلة : لانك أردت أن تشتجر .

قال : أو لم اهاجم ؟ الم يتهكم جودولفن بي ؟ اية منزلة له عندك حتى يفوز منك بهذا الرضى عن مشاجراته وحماقة تصرفاته ؟

قالت : انه من اقاربي ياجرفاس

قال : وهل هذا يعطيه الحق في اهانتي، اهذا ماتعلمين؟

قالت : لنتس جودولفن .. الا تريد أن ننساه ؟

قال : من كل قلبي .

فاستضحكت وتناولت ذراعه ، وقالت :

- تعال اد الواجب لوالدى ، وستقص على مسامعه قصة بطولتك وساصغي أنا الى ماكانت قائل فقد تنسيني القصة فاصغ عما كان منك .

فنظر اليها وهو في شك لحظة . وعند ذلك خيل اليه

انه قد لمح بريق التحدى في عينيها فخطر له أن يجازف وليكن من الامر مايكون ، فتناولها بين ذراعيه وراح يقبلها تقبيلا ، فاحتملت ذلك منه في هذه المرة غير غاضبة ولا متململة وانطلقا ليزعجا الشيخ الفيلسوف في سكونه .

الفصل الخامس

طريح البحر

فتح الدون بدرو دى مندوسا اولونا الملقب بالكونت ماركوس وشريف اسبانيا العظيم عينيه وتطلع ببصره الى السماء المحتجبة الاديم خلف طبقات كثاف من الغمام ، وكان الوقت فجرا والظلام لايزال مرسلا على الكون ثوبه الاسود وشملته الحالكة، ومضت لحظات عليه وهو على تلك الحال قبل أن تتنبه حواسه من ذهولها ويدرك ماحوله ويشعر بالوجود

وما لبث أن أحس انه طريح الشاطىء ، مقرور متخشب من شدة البرد ، ضعيف مضمحل القوى متخاذل الساقين ، ولكنه لم يدر كيف حدث ذلك وفي اى موضع من الارض هو ولا كيف ساقت به الاقدار الى ذلك المكان .

وبجهد جهيد تحامل على ساقيه فوقف ، ولكنه أحس دوارا شديدا من فرط الضعف فرقد ثانية فوق الثرى ، وفي انبطاحته تلك لم يلبث ان بدا الغشاء الكثيف على حواسه ينجاب شيئا فشيئا ،واذا الذاكرة تعاوده ، فاستوى جالسا، وراح يرسل بصره الشارد نحو البحر ملتمسا رؤية امارات او علامات ، تدل على موضع السفينة التي غرقت في الليل . فترامت لعينيه الصخرة التي ارتطمت بها فحطمتها تحطيما وهي عالية شاهقة تتكسر الأمواج المزبدة على اديمها الصلد ، ولكنه لم يلمح للسفينة أو حطامها اثرا ، وان كانت الزوبعة قد هدأت وتلاشت غير تاركة شيئا من معالم فعلتها وآثار

تخريبها وتدميرها غير ما بدت صفحة البحر به ومن أديم مائع مائج يزمجر بين الفترات .

وهكذا جلس الدون بيدرو يعالج تذكر ما جرى له .. كاسف البال مهموما باسما لا يدرى ماذا هو صانع .. فما عتم أن تذكر رجال سفينته الجهلاء الذين ذهبوا يسيرون بها في لجة الليل على غير هدى ولا علم لهم بالموضع والطريق . ولم يكن لهم من باعث على هذه المخاطرة غير غريزة الحرص على الحياة والدفاع عن الذات ، دون ادراك أو تعقل .

وتذكر الدون بيدرو كيف انه كان قد خرج من بلاده اسبانيا ليحارب الانكليز وينصب سفنهم في البحر كما خرج مئات الآلوف من الاسبان البواسل الشجعان للذود عن دين الله وحماية ملته من هؤلاء الكفرة الانكليز الذين خرجوا عليه واستبدلوا منه مذهبا جديدا من صنع انفسهم ، وأزرت به العاصفة ليلا فحطمت سفينته .. وقد تمثل نفسه قبل ان تهم راحت تقذفه فوق الشاطىء فهبط هبطة عنيفة كادت تقضى على انفاسه الباقية .

لقد شعر بأنه كان ميتا ثم بعث حيا .. ولكنه لم يفرح بعودة الحياة اليه أو عودته الى الحياة . لأنه أدرك ان النجاة من هذه الأرض الكافرة التي قذفته الأمواج اليها .. من رابع المستحيلات .. اذ لا يكاد يكتشف امره حتى يعيده أعداء الملة الى الموت بأشد واقسى مما عاناه من الغرق في الليلة الماضية .. بل سيجر عليه غضب موت اليم رزىء رهيب لا يقاس بجانبه ما رأى بالأمس وشاهده .. فتمنى لو انه كان أمس في الهالكين .

وعلى خيوط الضياء التي بدأت تلوح في السماء استطاع ان يكتشف الأرض التي حوله فاذا هي صخرة جرداء لامسكونة

ولا مأهولة . وأدهل كل ماحوله صخور شم كستها الطبيعة عنتا ونضرة فوق قممها العالية .

لقد عرف بعد ذلك انه قد نزل بموضع ما في اقليم كورنوال فقد كان ملاح السفينة في الليلة الماضية يحدثه عن هذه السواحل فلم يلبث أن تذكر ما سمعه ووجد المعالم منطبقة على ما سمع .

ومن فرط حزنه وغمه وبأسه جلس ينظر من جديد في موقفه . واذا به يضحك بغتة ضحكة سخرية مرة هزلة .. لقد ضحك للتناقض الذي بدا في تلك اللحظة له بين الكيفية التي وصل بها الى سواحل انجلترا وبين تلك التي كان قد رسمها واعد خطتها من قبل . فقد كان يشارك مولاه الملك فيليب في امكان التغلب على انجلترا وسحقها بالاقدام .. وتطهيرها من الكفر الذي لوثها وردها الى الايمان .

ولم يكن أحد يتوقع مطلقا ان تأتي النتيجة بالعكس .. فيلاقي ذلك الاسطول الضخم العظيم « الارمادا » الذي أرسلته أسبانيا عبر البحار .. الهزيمة الساحقة من أيدي أولئك الكفرة بتلك السرعة المدهشة كأنما كانت العناصر نفسها والطبيعة والرياح قد اصطلحن على مقاومة الاسبان !.

ولم يكن عند الأسبان الذين اقلهم الاسطول الهارب من وجه عدوه المنتصر غير أمل واحد .. وهو أن تكتب لهم النجاة والعودة الى وطنهم سالمين .

ولكن لم تكد تلك السفن تطوف بالجزر الانكليزية حتى عصفت بها الرياح .. فمنها ما ضل طريقه في البحر مزقا .. ومنها ما حطمته العاصفة العاتية .

وكانت سفينة الدون بدرو التي تسمى « الكونسيبتو » قد نجت من العاصفة بمعجزة في أول الأمر . ولكنها انما كانت قد نجت في « كيلجرو » لكي تهلك أخيرا على سواحل

كورنوال ... ويتجو عن وجهه من الدهشة على تلك الصورة التطارا لميتة أشنع وأبشع !

وكانت الشمس في تلك اللحظة قد طلعت وراحت تبدد السحب الثقال التي تحجب السماء .. فتحامل ليقف وينفض عن ثوبه ماعراه من بلل البحر وقطره ونداه .. وكان طويل القد ، جميل القوام ، حسن التركيب لا يتجاوز الثلاثين من العمر .. ولم يستطع ما صنع الغرق به أن يحجب جماله ومهابة صمته .

وكانت ثيابه وحدها كافية للدلالة على جنسيته . فقد كان مرتديا ثوبا أسودا غامرا يشف عن ثياله محتشدة وشرف ارومته وما تدل على جانبه من خمائل سيف ملتمع النصل ، بل من مشهد حذائه المستطيل وكانت فردة منه قد نزلت الى ما بلي ركبته ، وتهاوت الأخرى الى ما قبل قدمه .

ولذلك اضطر الى أن يجلس ثانية ليخلعهما ويخرج الماء الذي ملأهما وثقلهما ، ويعاود انتعالهما . واستأنف المسير متلفتا حوله ملقيا بصره في ذلك الفضاء الساكن الرهيب .

وما أن سار غير بعيد حتى لمح منظرا غريبا حياله ، منظر أشياء قاتمة متناثرة على مدى الشاطئ ، فاتجه نحو أقربها منه واذا به يرتاع ويتراجع مذعورا . لقد كان ذلك هو جثة ميت فعرف في الحال وجه «هرداتو» وهو أحد ضباط السفينة .

وتركها الدون يدرو وهضى في طريقه فلم يلبث ان أتى على جثث كثيرة منتشرة على مدى بصره ، فنظر اليهم بتلك الرهبة التي يثيرها مشهد الموتى في نفوس الأحياء .

ولكنه ما كاد ينصرف عن مشهدهم هذا حتى تذكر أنه رأى في منطقة خاصرة «هرداتو» خنجرا بديعا مرهف النصل

محمزته الغريزة الى أخذ السلاح .

فعاد أدراجه اليها وانحنى على الجثة فانتزع السلاح من المنطقة وشده الى حزامه . ولم يقف عند هذا الحد من الاحتياط ضد العدو المجهول فقد تذكر اذ ذاك ان رجال السفينة كانوا قد قبضوا رواتبهم قبل قيامهم من بلادهم وانهم بالطبع لم يجدوا شيئا يصرفونها فيه فخطر له ان يبحث في جثث الموتى عن تلك النقود ليدخرها للمستقبل . ولكنه شعر بتكره من هذا العمل واستنكف في بادىء الأمر ، ثم لم يلبث أن تغلب على هذا الاحساس فتحسس الانطقة وراح يجمع النقود ويخبئها في ثيابه !

وكان ميزان النهار قد اعتدل في تلك اللحظة فمشى على غير هدى ، يبحث عن ثغرة في تلك الصخور الشم التي تحاذي البحر لعلها مؤدية به الى موضع مأهول . فما عتم ان لمح فتحة بين تلك الجدران الصخرية الصماء على مسافة غير بعيدة منه . فتحامل وأسرع نحوها ، وما كاد ينفذ منها حتى أسلمته الى أرض معشبة يخترقها نهر فضفاض حلو الخرير فاقبل على ضفافه ينهل منه ، وراح يغتسل ويزيل ما صنع البحر به وما تغير من سحنته .

وانتعشت نفسه قليلا وفارقه تشاؤمه واستأنف المسير واذا به يرى دربا مطروقا حفت الاشجار جانبيه . فذهب اليه يأكل من المن ليسد ارماقه ، وقد أرهف سمعه مخافة أن يفاجأ في تلك اللحظة بانسان ..

ولشد ما ذعر اذ سمع حفيفا بين الشجر .

ولكنه لم يكن حركة انسان ، وانما كان كلبا من كلاب الصيد جاء كاشرا عن انيابه فلم يكد يلمح هذا الغريب المتطفل حتى راح يرسل نباحا متواصلا . نباح غضب وغيظ ، وكان الجدول أو النهر الصغير بينهما ، فجعل الكلب يتوثب على

العدوة محتقا وهو لا يجد سبيلا الى هذا الغريب الواقف على الضفة الأخرى . وأخيرا قفز قفزة مخيفة عبر الجدول .

ولمحة الدون بدرو كذلك قفز هو أيضا . الى صخرة عالية ، واستل السيف من غمده واستعد ليستقبله به ، واذا به يسمع صوتا ينادي الكلب قائلا : بروتس !

فتردد الكلب .. واذا بشبح سيدة قد لاح من بين الشجر . فلم يسع الكلب الا أن قفز عائدا من حيث أتى وهو مستاء من حمله على طاعة لا يريدها ..

الفصل السادس

التسليم

وانحنى الدون بدرو وهو ممسك بالسيف في يده ، قائم فوق الصخرة كأنه تمثال من السنابل ، انحنى حتى صنع جذعه زاوية قائمة مع ساقيه ، مبالغة في اظهار الاحترام .

وكان جمالها وعنفوانها ومظهرها وهيئتها تدل جميعا على أنها سيدة ذات صفة .

وبادرته هي بالحديث قائلة :

– هل عممت أن تقتل كلبي يا سيدي ؟!

فأجاب بالانكليزية وكان يعرفها حق المعرفة :

– سيدتي أرجو أن لا تلوح كراهيتي للموت من كلب سيدة خروجا عن حدود الادب في شيء .

فجعل منطقة بالانكليزية والفكاهة التي ينطوي عليهما جوابه ، تحملق البصر فيه من الدهشة

ولهذا قالت : من أين أنت يا سيدي !

فهز كتفيه وقال : آه . من أين ؟!

وابتسم ابتسامة حزينة وراح يقول : هذا سؤال يحتاج الى قصة طويلة يا سيدتي .

ونزل من فوق الصخرة وبثلاث قفزات من صخرة الى أخرى عبر الجدول الى الضفة الأخرى ، فهم الكلب – وكان قد قبع بجانب مولاته – بالنهوض والتمام لتمزيقه ولكن السيدة أسكتته بسوط في يدها

ووقف الدون بدرو حيالها يشرح قصته

قال : أنا لست أكثر من حطام سفينة معرقة ، بل طريح بحر قذفت به الأمواج على الساحل في مركب أسباني حطمته الزوبعة ليلة أمس .

ولمح في وجهها تجهما فجاليا ، وقالت في لهجة التأفف والاشمئزاز :

– ألت أسباني اذن ؟

فانكمش في نفسه ونشر ذراعيه متأسفا ، وزفر طويلا ثم قال :

– بل اسباني يرثي له أشد الرثاء !

وعند ذلك شعر بأن التعصب الجنسي قد تلاشى وحلت محله شفقة المرأة ورحمتها ، فقد وقفت السيدة تتفحص هيئته مليا ، ولم تلبث أن أدركت قصته منها بغير شرح ، فراح يخاطبها قائلا :

– وأنا أدعى الدون بدرو دي مندوسا أولوا الكونت ماركوس ، بل أنا من الساعة أسيرك !

وجثا حيالها ومد اليها مقبض السيف الذي كان لا يزال ممسكا به عاريا من غمده .

فتراجعت خطوتين من فرط الدهشة وتقطب حاجباها من العجب وقالت مبهوتة :

– أسيري ! ماهذا ! ماهذا ؟!

قال : اسمحي لي يا سيدتي أن أقول أنني لم تخذلني شجاعتي في يوم من الأيام ولكني وقد وجدت نفسي في بلد

لقومي كاره باغض ، اصبحت اشعر بان لا معنى مطلقا للمقاومة فانا امام احد امرين ، اما ان اعود الى البحر الذي قذف بي ، ولكني شاب كما ترين والانتحار اسوأ ما يكون في الشاب خلاصا ومنقذا ، واما ان اسير في طريقي فاذا وجدت انسانا يصح ان يتلقى سيفي سلمت نفسي اليه ، فاثرت هذا الامر الثاني على الامر الأول وهانذا امتد قدميك يا سيدتي قد تحقق مطلبي وشيكا !

وعاد يمد اليها سيفه وهو ممسك به في كلتا يديه ، فاردتيكت واجابت قائلة : ولكنني لست رجلا يا سيدي!

قال : وهذا ما احمد الله عليه فقد طالما سلمت الشجاعة في كل العصور للجمال ، واما عن صفتك ومركزك ومكانتك فما انا بالأعمى ولا بالأبله حتى لا افطن اليهـــا من النظرة الأولى .

بدا عليها التردد وحارت في كيفية تنفيذ هذه الفكرة المعروضة عليها ، قالت :

ـ ولكني لم اسمع بمثل هذا من قبل ، فكيف أجعلك اسيرا ؟

قال : بقبولك سيفي يا سيدتي

قالت : وكيف امسك بك ؟

فابتسم قائلا : تساليني كيف ؟ من السهل للغاية ان يمسك بالأســـير الراغب في اسره ، ولعمري من ذا الذي يفكر في الحرية اذا كان لديك اسيرا ؟!

فاصطبغ محياها بارجوان شديد بينما استرسل هـو يقول :

ـ هانا اسلم نفسي ، ولك اترك تقدير قدرتي كالنـة ما كانت ، وساظل في اسرك حتى تجيء من بلادي .

ورآها لا تزال مترددة بل قد ازدادت ترددا من حيرة

كلماته وحماسة منطقه .

واستطرد محاولا ايثار شفقتها به وعطفها عليه :

ـ ولا يغيب عن بالك ان وقوعي في يد غير يدك سيكون مؤلما ، لان الناس عبيد عواطفهم وشهواتهم وعواطف الانكليز اليوم نحو الاسبان هي ...

وهنا امسك قليلا ، ولكنه هز كتفيه ومضى يقول :

ـ انت تعرفينها بغير شك .

فنظرت اليه بحدة وقد استاءت من هذا الغمز في حق ابناء بلادها .

قالت : وهل يحتاج الأمر الى كل هذا لتنفيذ ذلك ؟

وكان الدون يدرو بالنسـبة عليها ، فاجابها بلا تردد وان كانت لهجته غاضة من كرامته وعزة نفسه :

ـ اعتقد ذلك يا سيدتي فاذا انكرته فانني مستعد أن ازيل شكوكك باثبات صدقه .

وادركت هي أنها اذا عملت برأيه واستجابت لسؤاله، تعين عليها أن تحميه ، وهو عمل بغيض لانه وان كان اسبانيا فهو مع ذلك رجل كبير القدر رفيع المنزلة ، كما انها قديرة على تنفيذ هذه الفكرة والاضطلاع بها اذ ليس في تلك البهاء كلها انسان واحد يستطيع أن يغالبها ارادتها اذا ما أرادت شيئا .

لهذا كله اعتزمت قبول الفكرة فقالت :

ـ ليكن ما تريد يا سيدي ، ستكون اسيري فاعطني كلمة شرف انك لن تحاول هربا أبق عليك استحثك باعتبار أنني أنا التي اخذت لك في حملها .

فاحنى رأسه وهو لا يزال جاثيا والسيف في يده وداح بقسم لها ، ثم نهض فرد السيف الى غمده قائلا :

ـ اتسمحين لي يا سيدتي ان اسأل ما اسم أسرتي ؟

فابتسمت اذ كان لا يزال بعـــد كل هذا أثر من الاضطراب فى نفسها لغرابة هذه المهمة التى رضيت بها

قالت : اللادى مرغريت تريفانيان !

قال بدهشة : تريفانيان ! أانت ابنة من اسرة الأرل أوف جارز ؟

فاندهشت هى أيضا من أن اسبانيا يعرف اسرتهـــا ولكنها أجابت قائلة :

ـ انه أبى ولكن ماذا تعرف أنت عنه ؟

قال : أنا ؟! كلا . للأسف ، وانما سمعت ابى يتحدث عنه وعما كان موشكا ان يذهب بحياته حين كان فى خدمة الملكة الحالية فى الوقت الذى كانت فيه مـــارى تيودور على عرش هذه البلاد فقد كان ابى هنا فى حاشية الملك فيليب يوم كان زوجا لملكة انجلترا وأظنه كان يعرف أباك حـــق المعرفة ، حقا ان هذه لصلة قديمة بيننا يا سيدتى

قالت : هى كذلك ، والآن هيا بنا فانى اراك بحاجـة الى اصلاح شأنك .

ومشت وكلبها يتوثب أمامها ، وانطلق الدون بدرو فى اثرها وهو فى اعماق صدره يشكر الله على هذه النجاة التى تهيأت له بأحدى الاعاجيب ...

الفصل السابع
الأسير

وما كادا يسيران لحظة حتى سمعا صوت رجل ينبعث من فوق صخرة عالية هناك ، وكان يغنى ، فتطلعت مرغريت الى مصدره وقد وقفت عن المسير ولاح ظل ابتســـامة على شفتيها ، فلم يدرك الدون بدرو سببها حين لمحها ، ولكنه لم يلبث أن عرفه اذ سرعان ما ظهر المغنى للعيان ..

ورأى الدون بدرو أمامه شبابا مرهف القد فى نضـــارة العمر ومرح الشباب ، لم يكد يلمح السـيدة تتراءى فى العراء له حتى صرخ صرخة فرحة وبرقت عيناه الشاحكتان ببريق السرور ، وأقبل يهبط المنحدر نحوها وهو عارى الرأس يلعب الهواء بشعره وقد تنكب بندقية صيد .

واندهشت هى لقدومه فى تلك الساعة المبكرة ، ولكنه قال ذلك باختصار قائلا : انه جاء ليأخذها معه الى معرض أماب فى ترونو قال ذلك بسرعة ثم لم يلبث أن أمسك عن الكلام متنبها الى الشخص الذى كان معها ، وراح يسألهـــا من يكون ؟

وكانت هناك طرق كثيرة للاجـــابة على سؤاله هذا ، ولكنها اختارت متعمدة أكثرها غموضا وفى الوقت نفســـه ادعاها للدهشة والاستغراب .

قالت : هذا يا جرفاس هو الدون بدرو دى مندوسا أولونا الكونت ماركوس .

فلم يكد يسمع هذا الاسم حتى جحظت عيناه من فرط الدهشة وتقارب حاجباه وراح يقول : « اسبانى » ! بنفس اللهجة التى كان يصح ان يقول بها « شيطان » ! وبحـــركة طبيعية أنزل البندقية من فوق كتفه استعدادا لاطلاق النـــار وعاد يكرر كلمته بنغمة أخف من الأولى قائلا : «اسبانى !!»

فابتسم الدون بدرو . وكانت الابتسامة التى استطاع اصطناعها فى ذلك الوقت ، ابتسامة حزن واعيـــاء ، وقال بالانجليزية الصحيحة المتقنة :

ـ نعم . ولكنه كما ترى يا سيدى غريق بلله الماء !

ولكن السير جرفاس لم يلتفت اليه مطلقا ، وانمـــا استقرت عيناه على وجه مرغريت وهما طافحتان بالأسئلة .

سأل : ولكن من أين يأتى أسبانى الى هنا ؟!

فتولى الدون بدرو الجواب - قال :

- لقد كان البحر الذى قذف بى رحيما حانيا اذ القى بى عند قدميها يا سيدى

فى تلك اللحظة شعر جرفاس نحو الدون بدرو بكراهية شديدة ، والتى يساله بتحرش قائلا : هل تعنى ان السفينة التى جاءت بك غرقت ولكنك من الغرق نجوت ؟

فاضاءت معارف الدون بدرو ببريق ابتسامته الحزينة المجهودة وأجاب بقوله :

- أظن أننى قد عبرت عن مرادى بأبدع من هذا وأبرع

فالتفت الشاب اليه وهو يقول :

- حسن جدا .. انى لسعيد بلقائك

فالتحنى الدون بدرو قائلا : ان أدبك يجعلنى لك مدينا

فارسل جورفاس ضحكة قصيرة وقال : أدبى ؟؟ يظهر انك اخطات فهم مرادى .. التى لا أثق باسبانى مطلقا .

فنظر الدون بدرو اليه وقال : واى اسبانى يحتاج الى ثقتك به كيشير

ولكن السير جرفاس لم يحفل بهذا الرد المتحدى وانما اهتم بالناحية العملية قبل كل شيىء فقال موجها كلامه لمرغريت :

- نبدأ اولا بتجريده من اسلحته . هيا يا حضرة الاسبانى سلم سلاحك ! .

ولكن هنا تدخلت اللادى مرغريت وكانت قد ظلت صامتة طول الوقت فالتفتت الى جرفاس قائلة بكل بساطة ليس لك بهذا شان يا جرفاس .

فاضطرب لحظة ولكنه هز كتفيه وضحك قائلا : ما هذا كيف تقولين أن لا شان لى ... هيا يا صاح سلم سلاحك !

فابتسم الدون بدرو ابتسامته الاولى وقال :

- لقد تاخرت يا سيدى نصف ساعة عن الوقت المناسب . فان اسلحتى قد سلمت بالفعل واذا كنت مبقيا عليها كما ترى فماذلك الا باذن من آسرى وبعد تادية يمين الشرف فانا الآن اسير فى يد اللادى مرغريت تريفانيان !

فوجم جرفاس اولا من فرط الدهشة ثم انفجر ضاحكا وكان فى ضحكه روح استهزاء اغضب مرغريت واخجلها صاح صاخرا : هذا حديث خرافة . من ذا الذى سمع قبل هذا برجل يقع أسيرا فى يد امرأة ؟

فذكره الدون بدرو بقوله : هانت قد سمعت بهذا يا سيدى

ونظرت مرغريت اليه باحتقار ثم تحولت الى الكونت وقالت :

- هلم يادون بيدرو !

فاشتد اضطراب جرفاس

وكاد الدون بدرو يهم بازاحته من طريقها لولا انه تدبر الموقف فادرك ان بين مرغريت والسير جرفاس شيئا ظاهر الاغراض لعينيه وان سلامته متوقفة على مبلغ حذره واستخدام ذكائه . فراى من الحكمة أن يظل بعيدا من هذا النزاع الذى يجرى بسببه

وفى الوقت نفسه كان السير جرفاس قد فطن الى خطئه وان لم يفطن الى أن غضبه لم يكن له من سبب فى الحقيقة غير سوء تصرفه

فهدأ من حدته وقال لها : هذه مسالة يا مرغريت احب ان تفهمى أنها ...

ولكنها قاطعته قائلة بكل عظمة : الم اقل لك انك لستعنى من السير ؟

ثم التفتت مرة أخرى الى الدون بدرو قائلة بلهجة الامر : هلم

بنا يا دون بدرو !

فما كان من السير جرفاس الا أن تراجع فى هذه المرة وقد شعر باهانة بالغة فلم يستطع كلاما وتقدمت هى يتبعها الدون بدرو طالعا ممتلئا فالتفى جرفاس ينظر اليه بغضب وغيظ شديدتقابله الاسبانى بانحناء فى منتهى الادب والاحترام

اطرق برأسه وقد شعر بان هذه الحادثة قد حطمت كل آماله وجعلته يشك فى حبها للدون اقبالها عليه فى الايام الاخيرة كان من قبيل التسلية وقضاء الوقت والا لما عاملتهعذه المعاملة السيئة ، ولما غضت من كرامته على هذا النحو ولما انكرت عليه ما هو من حقه بالنسبة لذلك الاسبانى الدخيل!

لقد تالم وتاثر كثيرا وفكر وهو الرجل ذو الحيثية والمسئوليات فى انه يجب أن يؤدى واجبه وضيت مرغريت لم رفضت ، ولا يصح أن يمنعه عن هذا الواجب الادعاء الخيالى السخيف بان هذا اسبانى قد سلم لها ، بل هو يظن أن هذا التسليم لم يكن سوى خدعة ماكرة توصل بها هذا الاسبانى الخبيث الى الضحك على امرأة فى سبيل تحقيق اغراضه والنجاة من الهلاك بنفسه .

دارت كل هذه الافكار فى راس جرفاس فاقتنع بها واعتزم التنفيذ بمجرد وصول مرغريت واسيرها الى القصر

ولهذا رأيناه على اثر وصوله الى القصر يدخل الردهة فيسلم البندقية الى مارتن رئيس الخدم وينقدم غير حافل ولا مكترث باحتجاجات هذا الخادم ومحاولة منعه من الدخول الى المكتبة وكانت مرغريت واسيرها جالسين فيها مع الشيخ الفيلسوف .

وكان الشيخ متهيجا غاضبا بسبب هذا الازعاج الذى سببته له مرغريت بدخولها عليه مع هذا الغريب

وكان من المرجح أن يستمر هذا الانزعاج طويلا لولا

أن بادره الدون بدرو بذكر الصلة القديمة التى كانت بين الشيخ وأبيه فى أيام الملكة مارى تيدور ، وحينئذ تشعب الحديث .. واطمأن الشيخ اليه .

فى هذه اللحظة دخل السير جرفاس غير مستأذن وهو هائج الخاطر منفعل ، معتزم أن يعنى عن الشيخ ثقل طل هذا الدخيل المتهجم .. ولكن الشيخ امتناء من هذا التصرف ، وزاده استياء مبادرة جرفاس ببيان غرضه من الدخول على تلك الصورة الفجائية المزعجة ، فالتفت الشيخ اليه قائلا :

— ان هذه الحماسه يا جرفاس فى غير محلها ولاضرورة لها لان الدون بدرو قد سلم نفسه أسيرا وانتهى الاشكال !

فصاح سير جرفاس قائلا :

— لقد سلم نفسه الى مرغريت ، اعنى الى سيدة .. ليسلم نفسه الى ضباط الشرطة فى « تورنو » الى أن تصدر الاوامر اللازمة بشانه فاسمح لى يا سيدى اللورد أن اصحبه الى « تورنو » لتسليمه .

وهنا تدخلت مرغريت قائلة :

— وبذلك تعرضه لخطر التمزيق اربا فى الشوارع . أهذه هى الشهامة ؟!

قال : لا خطر عليه اذا كان معى -فلتطمئنى الى حراستى له .

واحتدم الجدل بينهما حتى نفد صبر جرفاس ثم قال :

— وكيف يتاتى لامرأة حراسة أسير ؟

فتولى الدون بدرو الجواب مترفقا فيه ما امكن . قال :

— هو الشرف يا سيدى فانى مقيد بموثق الشرف أكثر من كل القيود والاغلال التى يتيسر تقييدى بها فى سجن تورنو هذه التى تتحدث عنها .. !

وتردد جرفاس لحظة .. فاسرعت مرغريت فقطعت

سبيل كل مناقشة قائلة بان اسيرها فى حال من الضعف والهزال والبلل والجوع والظمأ بحيث تقضى الانسانية منهم بالعناية العاجلة قبل التفكير والمناقشة فيما يتبقى عملا بالنسبة له . فانتهز الشيخ هذه الفرصة للتخلص من هذا الازعاج الذى تركه لحظه طويلة منشغلا عن فلسفة سقراط !!

الفصل الثامن

اللورد بندرو

لقد وجد اللورد بندرو فى قصر تريفانيان حسن المثوى وكرم الوفادة الجديرة بضيف كريم . على الرغم من أخلاق رب القصر وتشدد أحواله

وكان اللورد جاور أغنى أغنياء الاقاليم الغربية فى انجلترا ولم يكن يعنى كثيرا بتدبير ثروته الطائلة .. حتى لقد عهد الى رجل من أقاربه رفيق الحال يدعى فرانسيس تريفانيان بان يكون وكيل دائرته .. وكان فى القصر أيضا هوارد مارتن خادمه الامين الذى تقدمت به السن فى خدمته . وقد وثق بهذين الرجلين ثقة مطلقة وتركك لهما مطلق التصرف فى شئونه الاقتصادية والامور المالية وتفرغ هو لكتبه ودراساته وابحاثه وفلسفته .. !

وقد أمرت اللادى مرغريت فتعين فى القصر خادم خاص للعناية باللورد بندرو ، كما أحضرت له كافة وسائل الراحة وأفردت حجرة رحيبة له فى الجناح الغربى للقصر تطل على البحر .

وما كاد اللورد بندرو ينزل بالقصر حتى أصيب بحمى شديدة بسبب ما قاساه فى تلك الليلة الرهيبة .. واشتدت به الحمى فى اليوم التالى حتى اقتضى الامر استدعاء طبيب من « ترولو » لفحصه .

وهكذا انتقل جبر وجوده فى القصر الى الاقليم كله ، فاصبح حديث المجالس فى قراه ومدنه .. وتطورت الاشاعات الى الزعم بان عددا كبيرا من الاسبان غيره نجوا أحياء من السفينة المغرقة .

وجاء كونستابل من مخفر «تروبوه» لزيارة الارل جارز وقد طلب معلومات عن الحادث .. واشار عليه باحالة الامر الى البوليس .. ولكنه قابل الفكرة باحتقار وقال :

ـ ان اللورد بندرو قد حلم نفسه للادى مرغريت ، فهو اذن سجين فى قصر تريفانيان ، وهو متحمل كل مسئولية عنه .

ونفح الكونستابل ببعض النقود .. ونادى الخدم ليأخذوه الى المطبخ ليكرموه طعاما وشرابا .

وما كاد يتخلص من هذا الثقيل حتى حضر السير جون كيلجرو ، ليفاتحه فى هذه المسألة بالذات ، مقترحا تسليم السجين الى الحكومة لسجنه فى البرج مع الاسبانى الآخر المحبوس به ، وهو اللورد بندرو فالدير ، وكان قدوم كيلجرو للتدخل فى هذه المسألة بايحاء من السير جرفاس . ولكن اللورد الشيخ أصر على رأيه فلم يجد كيلجرو بدا من تركه وشأنه .

وامتنع جرفاس من الذهاب الى القصر ، من شدة المه وكمده ، وجعل يتفرغ لانشاء سفينة خاصة به .. محاولا التغلب على عاطفته .. كأن لا وجود لمرغريت فى خاطره !

ولكن فى ذات صباح ، وقد مر الثلاثة عشر يوما على اقامة اللورد بندرو فى القصر .. جاء سائس على ظهر أحد الجياد بكتاب الى السير جرفاس من اللادى مرغريت تسأله فيه عن احتجابه الطويل .. وتطلب اليه الحضور فى ذلك اليوم نفسه ليشرح لها اسباب غيابه .

وكان جرفاس قبل وصول هذا الكتاب اليه قد اعتزم

أن يسافر الى جزر الهند دون أن يراها أو يلتمس توديعها ، ولكن ذلك لم يمنع من ذلك من العمل بكتابها .

وكان الدون بدرو قد شفي من مرضه واستعاد قواه فكان اول خاطر دار بخلده هو أن يسترد حريته فيعود الى بلاده

واعتزم أن يفاتح اللادي مرغريت في هذه المسألة ، فانتظر حتى انتهى طعام الفطور ورفع الخدم الصحاف عن المائدة وآنس خلوة طيبة بها ، فانثنا يتحدث اليها في مسألة « الفدية » أو ثمن فكاكه من أسره .

فلم تكد هي تسمع هذه الكلمة حتى قطبت حاجبيها مندهشة وقالت :

ـ الفدية ! لست أرى ضرورة ما لها !

قال : ولكنها ميسورة مع ذلك يا سيدتي ولك أنت تحديد مقدارها

فارتبكت . ولكنها ما لبثت أن قالت : اذا كنت قد قبلت منك تسليم نفسك لي لان ذلك كان عملا كريما .. ويجب أن تعتبر نفسك ضيفا عندنا .

فابتسم قائلا : نعم ، ولكن لا أحب منك أن تخطئي في النظر الى هذا الجانب فقط ولا في أعمال ذلك والمجاهرة به ، اذ لا يجب أن لا تنسى ان ذلك يعرضك لمسئولية خطيرة ، اذ قد تتهمين بايوائي وحمايتي ، وهناك عقوبات شديدة لمن يثبت عليه أنه آوى أو حمى أحدا من الكاثوليك ، فمن مصلحتك ومن مصلحتي ايضا أن أظل مختبئا أسيرا لا أكثر ولا تنسي ذلك على هذا الاعتبار جئت بي الى هنا ، وهو الاعتبار الذي منع السير جرفاس من التشبث باختي معه .

وكان ذلك كله منفسطة بالطبع لانه يعرف قبل كل انسان أن نجاته كانت بالفعل بطريق التحايل والتهريب من

القانون . ولكن ذلك الكلام المنمق كان كافيا للتأثير في نفسها فلم يسمها سوى الاعتراف بصوابه وسداده . وقالت :

ـ انني فاهمة وجهة نظرك تماما وعليه ما دمت تصر فانني اترك لك انت ان تعين مقدار الفدية .

فابتسم ابتسامة غامضة وجعل يفكر مليا ثم قال اخيرا :

ـ ليكن ذلك . ولكني ارجو أن تساعديني على الحصول على الفدية المطلوبة

فضحكت قائلة : أنا مستعدة !

وقد ظنته يقصد المزاح

ولكنه راح يظهر ما أوتيه من سعة الحيلة وبعد التفكير قال : سأكتب اللحظة خطابا وعليك أنت أن تعملي على ايصاله

قالت مستغربة : علي أنا ؟

فراح يشرح لها ما أراده ، قال :

ـ اعرف ان كثيرا من قوارب الصيد تخرج الى البحر في كل يوم تقريبا من الخليج القريب من هنا ، خليج «سميسوبك» فلنبحث لنا بين أولئك الصيادين عن رسول يحمل كتابي هذا ، وليس لي من أعتمد عليه في هذه المهمة غيرك .

قالت مستنكرة : هل تظن ان في العكاني القناع بحار انكليزي أو صياد بالاقتراب من أي ثغر من الثغور الاسبانية في وقت عصيب كهذا ؟

قال : هذا طبعا مضحك وأنا لا اقبل أن أكون مضحكا ولكن العلاقات طيبة كما تعرفين بين الجلترا وفرنسا وكتابي سيتوجه الى شخص أعرفه في ثغر «نانت» بفرنسا ، وعليه هو اتمام الباقي وايصال الكتاب الى وجهته المقصودة

فنظرت اليه بريبة وقالت : أراك فكرت في الامر من جميع وجوهه !

فنهض وقد بدا جميلا أنيقا وقال :

ـ وهل كنت تنتظرين مني أن أرضى البقاء عيشا ثقيلا على كرمكم ونعمكم أمدا غير محدود

وكانت لهجته لهجة احتجاج وأسف على أنها قد طنت به هذا الظن السيىء ولكن كانت عيناه تراقبانها

وضحكت ضحكة مستطيلة انتهى بها الحديث .

***

وفي صباح اليوم التالي كان الكتاب الذي أراد أن يرسله معدا جاهزا وقد كتبه باللغة اللاتينية

وفي ذلك الوقت بالذات أرسلت هي رقعتها تلك الى جرفاس فجاء مسرعا على الفور فوصل في الحادية عشرة وقد هموا بالجلوس الى مائدة الغداء ، وعلى المائدة تسنى له أن يلاحظ الرشاقة والجمال والذكاء وخلاوة الدعابة ولطف النكتة التي اشتهرت على الدون بدرو وترامت أخبارها اليه

وكأنما أدرك جرفاس غلطته الماضية في جفوته ازاء الدون بدرو وخشونته فأحب ان يصلح ما فسد ، فراح يتكلف الادب والتلطف معه على المائدة ، فكان الاسباني يلاقيها بالمثل وهو مرتاح مغتبط

ولم يكد الشيخ يغادر المائدة الى غرفته عقب تناول الطعام ، حتى طلبت مرغريت الى جرفاس أن يصحبها الى الحديقة ليشاهد أشجار الورد في نهاية الموسم ، ولم يكن جرفاس يطلب أكثر من ذلك ، فذهب معها تاركين الدون بدرو وفرنسيس وهما لا يزالان جالسين الى المائدة

وكانت مرغريت تتوقع أن يسمعها جرفاس بعض الحقائق المؤلمة ويوجه اليها شيئا من العتاب القاسي ، وكان هذا بلا شك الخاطر القائم في نفسه ولكن ما كادا يبلغان حديقة الورد ويغمرهما الشجر الملتف حولهما ، حتى بدأته هي بلطف متناه فزال كل ما في نفسه ونسي في الحال كل ما

كان قد أعده من العتب والملام قبل قدومه

والتفتت تسأله أين كان كل تلك الايام وما الذي حجبه عنها وكان هو في الواقع يرجو أن توجه اليه هذا السؤال ليجيبها بعديد من الاجوبة القاسية التي كان قد استحضرها في خاطره . ولكنه حين سمع هذا السؤال ارتبك قليلا ولم يسعه الا أن يعتذر عن الغياب قائلا :

ـ كانت عندي مشاغل وقد اضطرني تجهيز سفينتي الى الاتصال بالسير جون طول الوقت .. كما أنني .. لم افكر في أنك قد تحتاجين الى وجودي

قالت : الا تأتي الينا الا عند ما نكون محتاجين اليك ؟

قال : بل عندما أراني مرحبا بي .. وكلا المعنيين واحد

فزفرت زفرة المتدمشـــــق . وقالت : يالله من نفسير فاس ! أأنت اذن لا يرحب بك الا عند الحاجة اليك .. أهذا كلام تقوله . ؟

فازداد ارتباكا وقال بتهكم :

ـ لقد كان عندك صاحبك الاسباني يشغل أوقات فراغك

قالت : انه انسان مؤدب . ألست تراه كذلك يا جرفاس ؟

فغمغم متململا نافد الصبر :

ـ مؤدب للغاية ! بل نعم المؤدب هو !

قالت : اني لا أراه مسليا للغاية .. بل هو رجل خبرة وتجارب . وعرف العالم وزار جميع قصور الملوك في أوروبا وهو يجيد الفناء .. فضلا عن انه ...

ولكن جرفاس لم يطق صبرا على سماع أكثر من ذلك فبادر الى مقاطعتها قائلا :

ـ والى متى سيقيم هنا هذا الانسان العجيب الذي نصفين . ؟

قالت : أخشى ان يطول به المقام قليلا .

قال : تقولين « أخشى » ؟

وعاوده الغضب والانفعال .

ولحظت هي ذلك منه فقالت : هل اغضبك كلامي .؟

فمط شفتيه متضجرا .. وذهب يمشي ضاربا الارض بقدميه من شدة الانفعال .

قال : وما الذي اتيتيه من اجله .؟ الم يصل والدك بعد الى قرار .؟

قالت : ليس هذا من شان ابي .. فان الدون بدرو اسيري انا وانا مقتضيته فدية يدفعها ثمنا لفكاكه . فاذا دفعها سمحت له بالعودة من حيث اتى .!

وسمع هذا فاندهش بادي الرأي . ولكنه لم يلبث ان وجد فيه مجالا للتهكم والسخرية :

ـ اذا كنت منتظرة ذلك فلا محل اذن لخوفك من اي لانطول .

قالت : انت مبالغ في سوء ظنك .. لانه بالفعل كنت خطابا الى نفر ثانت .. فمن الذي سيحمل الخطاب . ؟

قالت : هذه هي الصعوبة .. وهو نفسه يشعر بها .

فعاد الى تهكمه واستهزائه . قال : يشعر بها .! لا عجب فهو رجل شعور وبعد نظر .

والثنى يضحك مسرورا في انه وجد شيئا يستطيع التهكم به ولكن سروره هذا لم يلبث ان تلاشى حين سمع من مرغريت الدقائق والتفاصيل وكانا قد وصلا في نزهتهما الى نهاية حديقة الورد حيث لمح متكأ رخاميا قريبا منهما فراحت هي تجلس فوقه زافرة زفرة تسليم وهي تقول متنهدة :

ـ يلوح لي انه سوف يظل مختبئا هنا طويلا . ان هذا الشيء اليم . على اننا جديرون بان نخفف من وطاة حالته ما امكننا . وانا من جهتي يسرني ان يبقى لانني آنس اليه !

فصاح جرفاس قائلا : تانسين اليه ! اهكذا تعترفين !

قالت : واية امرأة لا تانس لمثله . وهو رجل ترى اكثر النساء

فيه جاذبية وفتنة . لقد كنت في دهشة قبل ان يجيء ، ابي في كتبه وفلسفته ، وليس لي من صحاب ولا رفاق الا اولئك الشبان الحمقى مثل تريسليان وجودولفن ومن لف لفهما واذا سح انك معتزم ركوب البحار مرة اخرى . فلا البث ان اعود الى وحشتي الماضية كما كنت .

قال : مرغريت !

وكان مكبا في تلك اللحظة عليها . وفي عينيه بريق الشوق الثائر من ذلك الاعتراف غير المألوف .

فتطلعت اليه بعينيها وابتسمت ابتسامة ودعة وحنان .

فذهب يجلس فوق المتكأ بجانبها ، ويطوق كتفيها بذراعه

قالت : أفهمت اذن ياجرفاس لماذا اريد ان استبقي بجانبي رفيقا اليفا كالدون بدرو !!

فلم يكد يسمع هذا حتى تهاوت ذراعه من حول كتفيها بينما مضت هي قائلة :

ـ اعني يا جرفاس حين تغيب انت عني . اذ هل يرضيك ان اظل في وحشية وحيدة . لا اظن ذلك يرضيك ان كنت حقا تحبني !

قال : المسألة اذن فيها نظر !

قالت : اية مسألة تعني ؟

فاستوى في جلسته واسند مرفقيه الى ركبتيه واجابها قائلا :

ـ هذا الخطاب الذي كتبه . هل يوجد من وراله شيئا ؟

قالت : فديته والوسيلة التي يمكنه بها ان يعود الى بلاده

قال : الا يعرف وسيلة يتيسر بها حمل الخطاب الى ثانت ؟

اجابت : نعم . لقد خطر له ان يستأمن عليه اصحاب

فوارب الصيد ولكن الصعوبة هي في اقناع احد منهم بقبول تأدية هذه الخدمة له غير اننى واثقة من أن ذكاءه سيتغلب من حيلة من الحيل .

فعاجلها بقوله : نعم . نعم . ولكن ربما استطعت ان ازيل هذه العقبة .

ثم نهض من محله فجأة وهو يقول : أين الخطاب

فناملته لحظة . ثم قالت :

ـ ما هذا الذي ارى . احقا تهتم بهذه المسألة ؟

قال : نعم وعلى انا ان أوجه الرسول الذي يحمل الكتاب الى نانت ولا يهمني سواء قصد الى اسبانيا او الى جهنم ويئس الفرار ! هات انت الخطاب ودعى لى الباقى .

الفصل التاسع
الاشتباك

وتم ارسال الخطاب مع الرسول وكان يكفى هذا لكى يقنع جرفاس بوجوب الصبر على الاسباني حتى يرحل ، ولكن غرام الشباب لا يعرف سبرا . فلم يلبث جرفاس ان عاد الى ثورته النفسية الأولى حين رأى مرغريت منشغلة اكثر الوقت بمطالب الدون بدرو وتوفير اسباب راحته . وحين اصبح كلما طلب مقابلتها او التمس الخلوة بها ، لم يجد لديها متسعا من الوقت للحديث معه على حدة ، فان لم تكن خارج القصر مع ذلك الاسباني صائدة فاتصة ، كانت مع الزوار في القصر جالسة متحدثة وكأنما اصبح الدون بدرو محور حياتها وموضوع عنايتها

لقد كان جرفاس يشعر بان مرغريت من فتون هذا الرجل معرضة للخطر . وانه فعلا كان يحاول جهده استمالتها اليه بعذب احاديثه وشهى قصصه ونوادره ، كما احس ان الثلاثة الذين كانوا يختلفون الى القصر ويحقدون عليه اصبحوا يتعامزون عليه وقد سرهم ان مزاحما له قد عزم ليغطى عليه وينتقم لهم منه

احس جرفاس ذلك كله فهاج هائجه وخطر له أن يحرش بالدون بدرو ولكنه رأى اولا انه يحسن به ان يسبر غور الشيخ من هذه الجهة .

فانتهز فرصة وجود مرغريت مع الاسباني في الحديقة ودخل على اللورد وقد جلس في تلك اللحظة يكب على مجلد ضخم من كتب المؤرخ هيرودوت

قال جرفاس محييا :

ـ مولاى ! لقد جئت الساعة لاتحدث اليك عن مرغريت

فرفع الشيخ بصره عن الكتاب مستاء متذمرا . . بيد ان جرفاس استرسل في بث شكايته من بدرو ثم قال :

ـ وقد اصبحت تقضى اكثر الوقت مع هذا الاسباني ، وهو امر لا يليق بسيدة في مركزها

ان هذا اللعين يقف في طريقى . وهو في هذه اللحظة بالذات جالس في الحديقة يعزف على قيثارة وينشد اناشيد الحب لمرغريت

وعندئذ بدا الشيخ يدرك حرج الموقف

قال : افعل هذا وانت متلكئ هنا وتتوانى ؟ اذهب في الحال وادعها الى . سأعرف كيف انهى هذا وأضع حدا له . ؟ وسوف تتزوج بك قبل مضي شهر .

فذهب سير جرفاس راضيا قرير العين ، بينما عاد الشيخ الى كتابه

واهتدى جرفاس الى مكانهما بنغم القيثار فاقبل عليهما ، وابتدر مرغريت قائلا :

ـ ان سيدى اللورد يسأل عنك يامرغريت وهو يطلبك في الحال فقامت لترى ما الخبر وبقى الرجلان وحدهما وكان الدون بدرو قد نهض احتراما لمرغريت فلما

ذهبت عاود مجلسه وراح يحاول الحديث مع السير جرفاس مراعيا كل الادب فى لهجته

ولكنه اضطر الى السكوت اذ رأى هذا يكلمه فى انفة ، ويختصر ما امكن فى اجوبته ، وأقبل على القيثار يعزف متجاهلا وجوده كل التجاهل

فلم يلبث سير جرفاس أن تهيج وانفعل ورأى فى ذلك اهانة بالغة ونوعا قاسيا من السخرية والاستهزاء لسبب ما فى نفسه من الحقد على الرجل والموجدة ، فهجم على الاسبانى فضرب القيثار بكفه فاطاره من يده .

فنظر الاسبانى اليه بدهشة ولكنه لم يلبث أن رأى هياج صاحبه وانقلاب سحنته فابتسم ابتسامة خفيفة ، وقال بصوت ملىء بالسخرية :

ـ اراك لا تحب الموسيقى يا سير جرفاس !

قال : ولا الموسيقيين !

فاستطرد الاسبانى فى سكون ولكن باستغراب :

ـ لقد سمعت باناس كثيرين هذا شانهم . وانا افهم ان يحب الانسان شيئا او لا يحبه . ولكنى لا افهم مطلقا هذه الحركة التى أبديتها اللحظة

وكان السير جرفاس قد شعر بانه اتى عملا غير لائق فعلا فهدات ثائرته قليلا

قال : كنت اظن أن سببها واضح وضوحا كافيا

فاجابه الاسبانى بقوله : ماذا تعنى ؟ !

فاحتد جرفاس قائلا : انك تفهم ما اعنى ...

فنهض الاسبانى زافرا متنهدا واتخذ سمات الحزن والاسف وقال :

ـ هل تعنى انك اردت ان توجه الى اهانة . هل هذا ما تريد منى ان افهم ؟

فلم يشأ جرفاس ان يتراجع بعد ان اوغل الى هذا

الحد فقال :

ـ نعم اذا كان فى ذلك وضع حد لكثرة اسئلتك وافتراضاتك .

فاجابه الآخر قائلا :

ـ ولكن افتراضاتى فى محلها . لانى اراك فعلت هذا مع انى لا اعلم انى اهنتك او اسأت اليك من قبل

فصاح جرفاس قائلا : انت نفسك اهانة . ومجرد وجودك اساءة فضلا عن انك اسبانى وانا امقت الاسبان جميعا

فوفر الدون بدرو وابتسم وهو يقول :

ـ الآن لقد فهمت حقا . وانى لاسف على ان اكون سببا فى ذلك ولكن .. هلا قلت لى ياسيدى ماذا يمكن ان افعله لترضيتك ؟

قال : هو ان تموت !

فتحسس الدون بدرو لحيته بانامله . وهو لا يزال فى اتم الهدوء . وازداد جرفاس غيظا من سكون خصمه وهدوئه

قال : ولكن هذا طلب اراه كبيرا . فهل يرضيك ان تحاول قتلى ؟

قال : كل الارضاء !

فانحنى الدون بدرو قائلا :

ـ اذا كان الأمر كذلك فلا يسعنى الا ان احقق رغبتك . ولهذا ارجوك ان تنتظر لحظة حتى احضر اسلحتى لكى اقدم لك الفرصة السانحة .

وباحتاده من راسه ، وابتسامة من فمه خرج مسرعا تاركا جرفاس وهو يسخط على نفسه لسلوكه الخشن الجاف ازاء شخص يبالغ فى ادبه ورقة سلوكه

وما هى الا لحظة حتى عاد الدون بدرو بالاسلحة فسارا

معا الى بقعة يحجبها التجر عن الابصار
واحب جرفاس أن يهزأ به . فقال :
— انك لتحسن كل الاحسان اذا كان لعبك بالسيف مثل براعتك بالكلام وطول اللسان
فاجابه الدون بدرو بكل لطف : لا تخف !
فصاح به : انا لا اخاف شيئا .
قال مؤكدا : لا ضرورة . لانني لن امسك بسوء
فاشتد هياج جرفاس واستطرد الاسباني :
— انت تسيء فهمي يا سيدي . ولا تظن الى الحقيقة كثيرا . فهل فكرت مثلا في انك اذا قتلتني فسوف لا تجد انسانا يناقشك الحساب عن قتلي . اما اذا انا قتلتك فمن المؤكد أن ابناء جلدتك سوف يشتقونني على الرغم من مركزي ومنصبي
فاجابه جرفاس وهو يستعد للمبارزة :
— يمين الله ما جال بخاطري ، ولست احب ان يكون هذا الفارق قائما بيننا .
قال : كلا .. مطلقا .. فلا تظن انني انما وجهت نظرك الى هذه الفكرة لكي انجاني المبارزة . ولكن ثق يا سيدي انني لن امسك بسوء .
فعاود الغضب جرفاس . قال : يظهر انك واثق من نفسك اكثر من اللازم .
قال : نعم . والا لما كنت اوافق على مواجهتك . ان انفعالك هذا هو الذي يجعلك مشهورا ويشيك اشياء كثيرة . فمثلا كان اولى بك أن تتذكر انني وانا في حالتي الراهنة اسير مرتبط بكلمة الشرف ، فاذا تركت نفسي اقتل فقد اخللت بشرفي واضعت موثقي . لان موتي في هذه الحالة بسبب تصرف اشتركت فيه بنفسي يعتبر قريبا من الفرار او لا يقل عن الهرب من الاسر . ومن هنا يجب ان اكون

واعا من نفسي والا لما وافقت على المبارزة مطلقا .
وكان هذا فوق احتمال جرفاس . فقد كانت سكينة هذا الاسباني ورباطة جاشه تستحق حقيقة الاعجاب . ولكن هذا الغرور لم يكن يطاق . ولهذا اشتاز جرفاس واشتد به الغيظ . فاسرع الى خلع سترته
ووقف الاسباني على استعداد ينتظر اشارة من سيد جرفاس ، وهو ساكن الاوصال .. بادي النشاط .
واخيرا تلاقيا وجها لوجه وشرعا يتبارزان .
كان جرفاس ثائرا محتقدا .. لذلك كانت مبارزته متفقة مع ثورته وحنقه ومماثلة لاخلاقه في الصراحة والصدق والمواجهة الخالية من الخبث والمكر والخداع .. على الرغم من اشتهاره بين رجال البحرية بالبراعة في السيف .
ولشد ما كانت دهشته ان رأى الطعنات القوية التي كان يوجهها الى خصمه بكل قوة ذراعه ومتانة عضله ، لا تصيب هدفها ، بينما راح الاسباني يتلقاه ببراعة فائقة كانها السحر .. فلم تلبث ذراع جرفاس أن كلت .. وقواه ان خارت .. وعند ذلك بدا القصب يتملكه ، فاستحالت حركاته بالسيف خبط عشواء . وكان في وسع « الدون بدرو » ان يقتله بسهولة ، وكلما راى جرفاس براعة خصمه على هذه الصورة اشتد غضبه وبالتالي ازدادت حركة سيفه ضعفا وعجزا حتى لهث وبدا العرق ينصبب منه .. وكاد جرفاس في لحظة يرتمي على خصمه ليمسك به . . ولكنه لم يستطع .
واخيرا تراجع عاجزا حائرا مختنق الانفاس ليستريح لحظة قام يحاول الدون بدرو أن يتبعه ليهجم عليه .. وانما اكتفى بخفض سلاحه لاراحة ذراعه .. منتظرا خصمه ليعاود الكرة فيلاقيه . وقال بتهكم :
— يالله العجب .. انك لا تزال بحاجة الى دروس في

المبارزة »

فاحتدم غيظ جرفاس وهجم عليه .

وفى هذه اللحظة بدأت الحوادث تتطور بسرعة .. فان سيف الاسبانى لم يلبث ان كف عن اتقاء ضربات خصمه والتخلو من طعناته . وراح يصطدم به حتى تلاقى النصلان .. وقمع المقبضان .. واذا بيسرى الاسبانى قد ارتفعت فجاة وامسكت بمعصم جرفاس .

وفى مثل سرعة البرق القى السيف من يمينه وراح يمسك بها سيف جرفاس من المقبض وينتزعه منه قبل أن يشعر بحركته الفجائية .

وهكذا وجد جرفاس نفسه اعزل .. وقد اصبح سيفه فى يد خصمه فوقف فى مكانه مغضبا هائجا .. ينفض العرق منه .. بينما وقف الاسبانى يبتسم بكل هدوء ويتحنى له انحناءة ساخرة

وكانما لم يكفه هذا الاذلال للسير جرفاس . حتى تهيىء المصادفة له اذلالا آخر .. اذ التفت هذا ناحية مرغريت وقد وقفت من كثب جاحظة العينين .. شاحبة الوجه . ملقية يسراها على صدرها .

ولم يدر جرفاس كيف انت .. ولا كم لبثت فى موضعها .. ادرك انها قد شهدت هزيمته المخجلة .. ودحرته الاليمة المذلة .. فاستحيى وندى جبينه خجلا .. وود لو ان الدون بدرو لم يبق عليه .. بل ترك سيفه ينفذ الى قلبه حتى لا يواجه هذا الموقف الاليم .

ونظر اليها وهو مضطرب شاحب .. مجهد متعب .. فراى فى عينيها نظرة عتاب قاس .

قالت وهى تنقل نظراتها من احدهما الى الآخر :

ـ ما هذا ؟ ؟

وكان الدون بدرو بلا شك هو الذى تولى الجواب ..

لانه كان هادئا ساكنا كان لم يجر شىء . قال :

ـ لا شىء . ! مجرد تمرين بسيط بالسيف لتعليم سير جرفاس فن المبارزة . ! لقد كنت ابين له اللحظة طريقة المدرسة الايطالية الحديثة فى هذا الفن .

وتقدم الى جرفاس فناوله سيفه قائلا بابتسامته المؤدبة :

ـ أظن أن هذا يكفى اليوم . وربما يبنت لك غدا طريقة أخرى .

وهكذا عرف الخبيث بهذا الاسلوب العجيب فى المكر واللباقة كيف يلمح لما اراد أن يخفى ، وهو انه كان كريما للغاية فى ترك خصمه حيا ، والاكتفاء باذلاله عن قتله !

ووقفت مرغريت تتأمله لحظة باحترام وتقدير ظاهر ثم قالت بهدوء :

ـ ارجو أن تتركنى لحظة مع سير جرفاس !

فانحنى وتناول سيفه من الارض ثم مضطقه وانصرف ولم تكد تخلو الى جرفاس حتى اهابت به قائلة :

ـ جرفاس . نبئنى بالحقيقة ، ما الذى جرى بينكما ؟

فلم يسعه سوى الاعتراف بما جرى برمته ، ولبثت هى تصغى اليه صابرة .. شاحبة .. واعصة الشفتين قليلا .. حتى اذ انتهى ووقف حيالها خجلان مطرقا .. ساد السكون لحظة .. فلم تتكلم .. واخيرا قالت بين السؤال وبين التوكيد : يلوح لى انك كنت معتزما ان تكفينى مؤونة عصيان رغبات ابى !!

وفهم هو المعنى الذى ارادته .. ولكنه كان فى حالة يرثى لها فلم يرفع رأسه من اطراقته .. وادرك انها على حق الان فى رفضها الزواج برجل مثله لا يصلح لشىء .. فلم يجد فى نفسه الشجاعة او المقدرة على الدفاع عن نفسه

فعادت تقول بسخرية :

– والآن ! لماذا لا تجيبني ؟ أكنت تحب أن تموت قتيلا ؟

فقال : اذا كنت لا تحفلين بي ولا تهتمين .. فعلام هذه الحماسة وهذا الانزعاج والرفق ؟

فقالت :

فثم هياج خاطرها عما في نفسها اذا راحت تجيب

– ومن الذي قال لك انني لا احفل ولا اهتم ؟!

وماكادت تفوه بذلك متسرعة حتى ادركت تهورها ولكن تلك الكلمات كانت كمثل السحر في تأثيرها . اذ وقف بحملق البصر فيها وهو راعش واجف فهتف بها قائلا :

– مرغريت ! أحقا ما اسمع ؟!

فهرت كتفيها وقالت بعبث وسخرية :

– أليس هذا واضحا ؟ هل كنت تريد ان يأتي البوليس ليعاين الحادثة ويبحث عن أسباب الوفاة وتصبح مضغة في الأفواه وينقل الخبر الى لندن ؟ !

فتراجع مبهوتا . قال : أو هذا ماكنت تعنينه ؟!

قالت : وماذا كنت تريد مني ان أعني اكثر من هذا ؟ هيا فان أبي يسأل عنك .

وهمت بأن تنصرف ولكنها التفتت اليه قائلة :

– أين تركت فيشاري ؟ أحقا لو كنت كسرته لكن اصفح عنك .

قال وهي منصرفة : مرغريت !

فوقفت عن كثب . ونظرت اليه من فوق كتفها

قال وهو يدنو منها خطوة خطوة : لقد كنت مخطئا فهلا صفحت عني ! لقد كان ذلك كله من اجلك يامرغريت . اذ اغضبني الى حد الجنون أن أهوى هذا الانساني ملازما لك

دائما فلم أطق صبرا ... لقد كنا سعيدين قبل ان يجيء ...

قالت : ولكني منذ جاء لم أشعر بشيء ينغص تلك السعادة .

قال : أحقا ماتقولين ؟ .. انها غيرتي الملعونة ؟ واثنت تعلمين كم أحبك يامرغريت !

ومشت قليلا ثم وقفت ونظرت اليه وقالت : علم اليس سترلك وكن بعد اليوم عاقلا .. ..!

واختفت عن ناظره

وفيما كان يرتدي سترته وهو حزين مكتئب .. اذ عادت ثانية فأهابت به بصوت رهيب متزن : أي جرفاس .. اذ كنت حقا تريد مني الشفع .. وكان اشفي قيمة عندك .. فلتعدني انك لن تعود لمثل هذا بعد اليوم !

قال بمرارة : اعدك !

قالت : وهل تقسم ؟

فاقسم على الفور .. ولم يخطر الى ان هذا الاهتمام منها قد ينطوي على معنى ليس في مصلحته ... ولو ان لديه شيئا من المكر والخبث لعرف في هذا الموقف كيف يستدرجها ويستفسرها عن الدافع ... ولكن سير جرفاس كروستي لم يكن اخا مكر وداهو بالخبث .. !

الفصل العاشر

الفدية

ومغادر سير جرفاس قصر تريعانيان في ذلك اليوم وهو يحس بدالة لم تقع له في حياته ، وجعل يلوم نفسه ويؤنبها على انه كان في تصرفه مخطئا كل الخطأ .

لم يعمل أكثر من طالب في الدرجة الطباع الورق

وأسترسل مع تهور الشباب ، وان الدون بدرو تصرف معه التصرف اللائق ، بل أبدى رقعة نفس كانت وحدها جرحا اليما له وقسوة بالغة عليه ومساسا بعزة نفسه وكرامته

وبدا له أن مرغريت لابد ان تكون عقب ذلك الحادث هازئة به محتقرة له ، ولها العذر فى ذلك ، وان كان شعوره هو بالنسبة لاستهزائها به مؤلما بدرجة لا تطاق

والواقع أن مرغريت لم يكن شعورها بالصورة التى تمثلت له ، وانما الحقيقة انها لم تكن تريد ان يكون جرفاس قد تغلب عليه كما آلمها ان يكون الدون بدرو قد ولهذا السبب لم تعد عقب الحادثة تقبل على الاسبانى بالحفاوة التى كانت تقبل بها عليه . وانما اخذت تتحاماه وتتثبله وتوحى اليه فى صمت انها قد كونت رأيها فى تصرفه فلا تريد أن تسمع منه تعليلا أو اعتذارا لان كل تعليل منه أو اعتذار لم يعد يفيد .

ولقد حاول الدون بدرو بعد الفراغ من العشاء فى تلك الليلة أن يبين انه قد تصرف تصرفا لا غبار عليه .

فلم تكد تنهض منصرفة فى الرأى بعد تناول الطعام حتى دنا منها راجيا اليها أن تمكث لحظة لكى يتحدث اليها ، فوقفت وهى معتزمة أن تبين له انها مغضبة لا تتحول عن رأيها فى مسلكه .

قال : أراك تقسمين على أشد القسوة بغضبك فى أمر كان اجتنابه فوق طاقتى

قالت : لا احب ان اسمع شيئا عن هذا الامر .

انك اسأت استغلال مركزك هنا كما اسأت الى الثقة التى وضعتها فيك حين سمحت لك بالاحتفاظ بأسلحتك . ليست هذه حقائق أعرفها دون سماع دفاعك . بل ان هذه

الوقائع بادون بدرو قد انزلتك كثيرا من عينى وتقديرى

ولاحظت الالم البالغ الذى احدثته كلماتها هذه فى نفسه فتأثرت هى كذلك ، ولعل هذا هو الذى جعلها الآن تصغى اليه طيبا بعد أن كانت رافضة السماع اليه بتاتا

قال : لا اظن أن هناك عقوبة يمكن ان تنزليها بى اقسى من هذه ياسيدتى . بل من سخرية الاقدار ان يكون هذا العقاب من تصرف كانت رغبتى الوحيدة منه ان احتفظ بتقدير احرص عليه قبل اى شىء سواه . وقد اتهمتنى بأننى لم احافظ على الثقة التى وضعتها فى شخصى . فهل تسمحين بأن تسمعى جوابى ؟

قال ذلك فى ضراعة وتوسل ، وبصوت مبتهل مؤثر شجى النغم حلو النبرات فلم يسعها الا اجابة سؤاله وان تظاهرت بشىء من التكره والاستياء .

فراح يشرح لها كيف ان سير جرفاس جاء وهو ينوى التحرش به وكيف اطار القيثار من يده وأسمعه خشن الالفاظ وكان فى وسعه أن يتغاضى عنها لولا انه خشى ان يحمل جرفاس تغاضيه حملا على محمل الجبن فيتهم فى شرفه وكرامته .

ولهذا لم يسعه الا التحدى . وهو حاسب حساب النتيجة فى خاطره باعتزام الاقتصار على اجابة سير جرفاس الى طلبه دون اصابته أو قتله .

واذا كان قد اظهر تفوقه فى المجالدة بالسيف ، فلم يكن ذلك منه للفخر أو الزهو ببراعته وانما كان غرضه أن يحمى شجاعته اذا هو بعد الان رفض الاشتراك فى مبارزات اخرى حين يفكر سير جرفاس فى المعاودة ومحاولة استفزازه من جديد .

وكانت هذه الحجج قوية بلاشك ولكن اللادى مرغريت

مع اعترافها انها قد اقتنعت بها لم تتحول عن شعورها الاول من جهته ، فقد ظلت مبتعدة منه متجافية لقاءه فى الايام التالية مشاغلة بزوارها وأصدقائها الآخرين

وكانت تلاحظ حزنه وكآبته على مائدة الطعام ولاتبالى، كأنما تريد ان يتالم ويكتئب بسبب ماجرى بعد ذلك من امتناع سير جرفاس عن الحضور منذ يوم هزيمته ، ولقد فاتت هذا الحزن البادى على وجهه الشاحب وفى عينيه المتلالئتين مجرد مظاهر بارع يناسب الظرف نفسه

وكان هذا الظن بعيداً من الواقع ، اذ لو انها ادركت الحقيقة وعرفت مدى حزنه وألمه ، لتغير الموقف ولجرت الامور فى مجرى آخر .

لقد كان الدون بدرو متالما فى الحقيقة ، حزينا فى الواقع ، فقد حدث ماكان لابد منه ان يحدث ، وهو جاذبية التقيض لنقيضه ، اذ شعر هذا الاسباني بدبيب الحب فى قلبه لمرغريت ، على فرط مابينهما من اختلاف وتناقض ، فهو الاسمر اللامع المتقد المشاعر البعيد الخيال كأبناء الجنوب جميعا ، وهى الفتاة الهيفاء الذهبية الشعر ، الاوجوانية الخد كزهر التفاح ، الساجية العينين ، الزرقاء الحدقة الصريحة النظرات .

ولم تكن فى ذلك وحدة تختلف عن بنات جنسه الاسبانيات ، بل عن كل النساء اللاتى شهدهن فى اوربا كلها ، وان الحرية التى نشأت من الصغر عليها واستمتعت بها فى غير تكليف ، ولا تمثيل ، قد اكسبتها صراحة وقوة كفلتا لها وقاية تامة ومهابة دائمة وسلطانا على النفوس نفسها ، وجعلتا براءتها بلا غفلة ، وعفافها بلا جهل ، وصراحتها بلا تهجم ، وحياءها بلا الزواء ، وفتنتها طبيعية بلا مخادعة أو استطلاع .

وقد كانت الامور جارية على احسن مايكون بينه وبينها الى ان حدث ماحدث مع سير جرفاس فتغيرت عليه ، وتنكرت له .. فلم يلبث الدون بدرو حين أدرك ذلك ان بدأ يبغض جرفاس ويمقته .. بعد أن كان مكتفيا من قبل بالسخرية منه والعبث به .

وقد لبث الدون بدرو ثلاثة ايام سويا على هذه الحال حتى اذا كان اليوم الرابع وكانوا جلوسا على المائدة .. دخل الخادم يقول ان سيدا اجنبيا يسأل عن الدون بدرو. فاستأذن الاسبانى فى الخروج للقائه فأذن له .

وكان القادم رسولا من « نانت » يحمل الفدية المطلوبة .. وكان يكفى وصولها بهذه السرعة لكى يظهر مركزه الخطير فى العالم ومكانته العظيمة وشأوه البعيد .

وكان الرجل الذى وقف فى البهو لانتظاره فى حلة طويل مما يتعلله البحارة وذا لحية كثة سوداء وملامح تفحها هواء البحر ، وقد نابط طرداً كبيرا .. فلم يكد يرى الدون بدرو قادما نحوه حتى انحنى وأطن صفته قائلا :

ـ فى خدمتك يامولاى . أنا انطوان ويكلركله من ثغر نانت ..

فعبس الدون بدرو وتجهم واظهر الكبرياء وقال :

ـ كيف هذا ؟ لقد كنت أظن ان الدون دييجو هو الذى سوف يحضر بنفسه . هل اصبحت اليوم قليل الاهمية عنده ضئيل الحساب ؟ فأجاب الرسول قائلا :

ـ لقد حضر الدون دييجو يامولاى . ولكنه رأى من الحكمة ان يبقى فى السفينة ولا ينزل الى البر .

فاستضحك بدرو قائلا : ومن انت ؟

قال : أنا يامولاى صاحب السفينة التى ذهبت لاحضاره من ثغر سانتاندر والسفينة الان راسية على مسافة

ميلين فقط من الشاطىء وعليها الدون ديجو منتظرا اياكم وقد اتخذت التدابير للسفر بكم الليلة فان عندى زورقا صغيرا فى المركب قد وضعته فى التجويف القائم تحت الصخرة الظاهرة عند الشاطىء واعددت ستة رجال لتسيير الزورق نحو السفينة المنتظرة فى عرض البحر كما قلت .

قال : وابن الفدية ؟

فمد الرجل يده بالرزمة التى كان يتابطها وهو يقول : هاهى يامولاى !

فتناولها الدون بدرو ومشى الى النافذة فقض اختامها وبطرف سيفه أزاح اللفائف فظهر صندوق صغير مستطيل الحجم مصنوع من الابنوس فرفع غطاءه فاذا به يحوى عقدا من اندر اللآلىء قد وضع فوق وسادة صغيرة من المخمل .. وكل لؤلؤة فى العقد تكاد تشبه فى حجمها بيضة اليمام

وتناول العقد فى يده ثم قال للرسول :

ـ لقد احسن الدون ديجو . بلغه ذلك عنى

فبدت الدهشة على وجه الرجل وقال : الست قائلا له ذلك لنفسك يامولاى ؟ ان الدون فى انتظار ..

ولكنه لم يتم اذ عاجله الدون بدرو صائحا به : كلا . ليس الليلة . لان الوقت ضيق لا يكفى للاستعداد . تعال غدا عند مغيب الشمس تجدنى قد اعددت كل شىء .

فبدا القلق على الرجل . ولكنه اجاب قائلا :

ـ كما تشاء يامولاى ولكن التأخير قد يكون خطير النتائج .

فتولى الدون بدرو عنه بوجهه وابتسم فى رفق قائلا : الحياة كلها اخطار يامصاح الى الملتقى غدا عند المغارة التى

يقترن لديها النهر بالبحر .

والآن اذهب فى حراسة الله .

فانحنى ويكلكرك وانصرف

ووقف الدون بدرو لحظة وحيدا يفكر حاملا ذلك العقد النادر الذى لايقوم بثمن فى راحتيه ، معجبا بلمعان دره ، وبريقها الوهاج ، وما لبث ان ابتسم لنفسه اذ كان يفكر فى الطريقة التى يقدمه بها ، واخيرا ربط طرفى العقد ربطة خفيفة وغاد ادراجه الى قاعة الطعام .

وكان اللورد وفرنسيس تريفانيان قد انصرفا عن المائدة فى تلك اللحظة وبقيت مرغريت وحدها جالسة بقرب النافذة تطل على الحديقة فلما دخل التفتت من فوق كتفيها ، وكانت يداه خلف ظهره فلم تلمح الشىء الغريب البديع الذى كان يحمله .

ودلف نحوها فوقف بجانبها عند النافذة ، بينما ظلت هى مرسلة بصرها الى الفضاء منتظرة ان يسترسل فى حديثه اذا شاء ، فما كان منه الا ان رفع فى رفق يده مدليا ذلك العقد الفاخر لحظة ، ثم تاركه بكل رفق وسكون يتحدر فوق شعرها الذهبى !

وشعرت هى بهذه اللمسة الخفيفة ثم احست يدا باردة تحيط نحرها بشىء . فوثبت من مجلسها ملتهبة الخدين ، اذ ظنت ان هذه اللمسة من انامله .

وماكادت تتحول اليه وتلمح العقد متدليا على بشرتها الناصعة حتى استضحكت ، بين الدهشة وبين الاطمئنان .

قالت : لا اكتمك ياسيدى انى خفت ... !

وتناولت اللآلىء فى يديها لتتأملها ، ولم تلبث ان بينت قيمتها وروعتها فلهثت انفاسها وذبل الورد الملتهب على خديها ، وتمتمت تقول :

ـ ماهذا ؟!

قال ببساطة : الفدية التى أحضرتها من بلادنا

ولكنها كانت فى الواقع مبهوتة ذاهلة ، فلم ترد على ان قالت :

ـ ولكن ...

وأمسكت . فقد كانت تعرف شيئا عن قيمة اللآلىء وكرائم الدر والجواهر الغالية فلم تشك فى أن هذا الذى بين يديها يساوى ثروة ضخمة .

وعادت تقول :

ـ ولكن هذا ياسيدى افتداء غير معقول . هذه ثروة عظيمة . هذه فدية أمير .

اجاب جزيرنا : وانا تقريبا كذلك !

وكانت تريد أن تسترسل فى الحديث عن اللآلىء لولا انه شرب الموضوع كانه تافه ولا يصح أن يشغلهما كثيرا . وهو يقول :

ـ أفتريدين ان نتحدث جزافا عن شىء كهذا لا قيمة له فى حين ان كل كلمة منك لى اثمن وأغلى من كل هذه اللآلىء الحقيرة التى يتألف منها هذا العقد ؟!

وكانت هذه نغمة جديدة جريئة لم يتجاسر من قبل على الكلام بها نغمة حب ، ولهجة عاشق !

فحملقت البصر فى وجهه مندهشة

وانطلق هو يشرح الغموض الذى يكتنف كلماته فقال :

ـ هاهى الفدية قد سلمت ، وهاهى ساعة رحيلى قد دنت . نعم لقد اقتربت ساعة الوداع سريعا هكذا ، واذن فقد اصبحت فى حل من ميثاقى وقد ازمعت السفر مساء غد الى بلادى .

قالت : او بهذه السرعة ؟!

وخيل اليه أنها قد فاجأت بتلك الكلمة بحزن وتأثر ، بهاجت عاطفته فى اعماق نفسه ، وان لم يغادر سكينته وهدوءه المألوف .

ولكن لم يخف منها ذلك البريق المشع من عينيه ، ولا الاحمرار الذى سرى ودب الى وجهه الشديد الشحوب ، فلم تلبث انوثتها ان تحركت وجاشت فى اعماقها ، فغزعت ونولاها الارتباع .

واقبل هو عليها ينادى : مرغريت !

وكانت هذه أول مرة يناديها باسمها ، ولقد فاه به فى نغمة معربة فاتنة واسترسل قائلا :

ـ مرغريت هل أذهب كما جئت ؟ هل اذهب وحيدا ؟

فرات هى انه لابد لها ان تتظاهر بانها لم تفهم شيئا حتى تترك له خط الرجعة من طريق لم تكن تحب أن تسلكها بهذه الصورة ولا تريد أن يسير فيها أكثر مما سار فقالت :

ـ انك لواجد بالطبع صحابا واصدقاء على ظهر السفينة .

فاجاب بسخرية مرددا كلمتها :

ـ اصدقاء ! لست بحاجة الى اصدقاء ولا الى مال ولا الى سلطان . فان لى من ذلك كله الشىء الكثير ، ولكن حاجتى هى الى انسان يشاركنى فيها ، ويقاسمنى كل ما أملكه .

ولم يكتف بهذا التلميح بل استطرد قبل ان تقاطعه قال :

ـ اجمعت النية على تغييب حياتك الغالية فى هذه الناحية الموحشة من هذه البلاد الهمجية فى حين أننى

استطيع أن افتح امامك اقطار الارض جميعا واجعلك درة بلاط كبير يامرغريت !!

فتراجعت قليلا ، وكان الغضب من نفسها اكثر واشد من غضبها لقوله لانها ادركت انها قد عجزت عن مغالبة ارادتها فتركته يسترسل فى حديثه .

كان الغرض الذى تحدث عنه ينطوى على شىء من محاولة الاغراء ، وقد يكون هذا هو الذى اقتحم عليها فؤادها .

على ان تاثير هذا الاغراء فى نفسها لم يلبث اكثر من لحظة قصيرة خفق فيها قلبها خفقانا سريعا متواليا . فلما تكلمت كانت هادئة ساكنة متملكة نفسها .

لقد اجابته برفق قائلة :

— لست أريد يادون بدرو ان اتظاهر بانني لم ادرك معنى كلامك . واني اشكر لك هذا الشرف الذى تعرضه على . واعتقد انه يا صديقى لن يكون ؟ !

فصاح بها قائلا : لماذا لا ؟

وامتدت ذراعه اليمنى كانه يريد أن يطوقها بها ، وعاد يقول :

— اية قوة فى العالم تحول دونه ؟.

— ليست هناك قوة تجبر عليه !..

ونهضت ونظرت اليه بعينيها الصريحتين الطاهرتين الصادقتين وجها لوجه .. وراحت تضرب امله الضربة القاضية بقولها :

— لانني لا احبك يا دون بدرو !.

ورانه يتراجع كانما قد ضربته فعلا ، وكاد يتولى معرضا . ولكنه بسرعة انثنى ليهاجمها مرة اخرى . قال:

— ولكن الحب سيأتى حتما يامرغريتى العزيزة .. وكيف لا يأتى الحب وانا الغريف كيف أوقظه .. ولن اعجز والله عن ايقاظه .. لان الحب يولد الحب .. وان حبا كهذا الذى اسكبه فى قلبك نقيا طاهرا ينبغى للحب عندك ان يستجيب .

والتمعت عيناه البراقتان بوهج الحنين وشدة التاثر وعاد يقول :

— آواه ! . تقبلى يا بنيه .. تقى بى .. انني أعرف من الذكاء والعقل بحيث لا يخفى عنى ..

فقاطعته برفق قائلة :

ولكنى ارالك لست من الذكاء بحيث تفطن الى ان هذه الجراة منك تؤلمنى .

وابتسمت تلك الابتسامة الصريحة الواضحة المألوفة منها . ومدت يدها اليه وراحت تقول :

— لكن صديقين يا دون بدرو كما كنا منذ ذلك اليوم الذى اخذتك فيه اسيرا .

وبرفق وتراخ .. ولكن باضطرار واستسلام .. تناول يدها بينما كانت انامل يدها اليسرى تمس اللآلىء المتدلية على صدرها وقالت :

— وساحتفظ بهذه اللآلىء .. لا لقيمتها بل لذكرى هذه الصداقة الطيبة فلا تحاول بعد هذا أن تفسدها !.

فتنهد وهو ينحنى فوق تلك اليد الممتدة اليه فيقبلها وهو فى منتهى الخشوع .

لقد انهزم امامها هزيمة ساحقة .. وادرك انه لاينبغى ان يتقدم بعد الذى جرى خطوة اخرى .

الفصل الحادى عشر
الرحيل

ولم يكن الدون بدرو من أولئك الذين ينهزمون بسهولة .. أو من أولئك الذين يتحملون خيبة فى أمر يطلبونه .. فان ثروته الطائلة ذللت له كل شىء .. فلم يعد عنده امر مستحيل .. حتى لقد ظن كل تمنع مدعاة لزيادة الشوق .. ومقدمة حلوة لاثارة الرغبة والحنين .

وقد قضى ليلته تلك متألما .. يقسم جهد ايمانه انه سوف لا يذعن لهذا الرفض .. ولن يسمح لها بأن تصر عليه .

– على انه فى اليوم التالى .. وهو اليوم الاخير له فى قصر تريفانيان لم يظهر شيئا من هذا التألم النفسى . وان كانت العين الثاقبة تستطيع أن تكشف آثاره فى وجهه ..

على انه كان فى الوقت نفسه يبتسم ابتسامته اللطيفة .. ويبدو كعادته ساكنا مؤدبا رقيق الحاشية .

وقد انخدعت مرغريت بهذه المظاهر حتى اعتقدت ان قلبه لم يكن يحس بقدر ما كانت كلماته تعنى . وانه ربما كان فى ذلك الحديث متأثرا بدافع نفسانى عارضى لم يلبث ان تلاشى . فهذا بالها من هذه الناحية وكانت قد احست نحوه بميل لم تشعر بمثله من قبل الا لواحد فقط وكانت بلا ريب ستتألم لو طلت على اعتقادها بانها آلمته برفضها وسببت له حزنا .

وقد عرضت الأمر على أبيها وقالت له ان الدون بدرو قد دفع بذلك الفدية المطلوبة واصبح بطالب بحق اطلاق سراحه وانه مسافر فى مساء ذلك اليوم بالذات . فلم يزد الشيخ على أن قال بغير اكتراث :

– حسن للغاية ! ولا بأس ..!

وخطر لمرغريت ان ترسل الى جرفاس برقية تخبره فيها بأن الدون بدرو مسافر فى ذلك المساء وتطلب اليه ان يحضر ويتلقى الصفح عنه من يدها ، الا تبين لها أن الغيرة من الدون بدرو هى التى حملته على الغياب وانه كان صادق الشعور من هذه الناحية بعد الذى ظهر من الاسباب فى ذلك الحديث معها .

وجعلت فى ذلك اليوم تتلطف للدون بدرو وتظهر له الكرم والأدب

وبعد الفراغ من العشاء استعد الدون بدرو للرحيل وذهب مارتن الخادم فاحضر للدون بدرو اسلحته وبعته ورداءه وسارت مرغريت معه الى البهو ثم نزلت من السلم فاخترقت الحديقة دون ان تنبس بكلمة واحدة وكان يسبح ان يتبادلا عبارات الوداع عند باب القصر ولكن كانما كان يجتذبها الى السير معه بقوة ارادته فانطلقت معه بعض خطوات آخر .. ثم وقفت وقد صممت على توديعه عند ذلك الموضع فمدت اليه يدها قائلة : لنودعك هنا اذن !

فوقف هو كذلك وواجهها فرات الأثر الذى يخلفه بريقه عينيه الحزينتين ، ومسحته يقمم قائلا :

– لم يحن بعد ! .. أتوسل اليك أن لا تحرمينى من هذه الدقائق القليلة . الا ترينى التى قد استطعت بصعوبة ان اتغلب على شعورى واسحق عاطفتى . وكل ما اسأله الآن هو ان تسيرى معى خطوات اخرى ، الى ذلك الموضع المبارك الذى فوحت هناك فيه بعقالك ، وحيث رأيتك لأول مرة ، دعينى أراك عنده لآخر مرة ، فاودعك الوداع الأخير .. امتحينى هذا يا مرغريت !!

ولم تكن مرغريت حجرا صلدا حتى تقاوم أو ترفض هذه التوسلات الحزينة الأليمة ، فمشت بجانبه فصمت

لا يتبادلان كلاما حتى اتيا اخيرا على ذلك الموضع الذى تلاقيا فيه .

قالت : لقد كان هنا . فقد كنت واقفا فوق تلك الصخرة البيضاء حين وثب عليك بروتس !

فوقف يتاملها ، ثم ما لبث ان زفر زفرة حارة وقال:

— لقد كانت قسوة منك بالغة ان منعته من ذلك وتهرته ..

وتمهل وهو لا يزال يتاملها كانما يحاول ان يطبع كل دقيقة من دقائق وجهها فى صفحة خاطرة قبل الرحيل واسترسل : يا لك من بخيلة ! الا تبغين المسير خطوة اخرى .

فتاثر قلبها الكريم من ضراعته . واجابت رغبته

فغمغم شاكرا وراحا يهبطان الصخور المرتفعة حذاء مجرى النهر . وقد طرقت آذانهما حركة السفينة او الزورق الراسى عند الشاطىء

وخرجا اخيرا من ظلال الشجر الى حافة الرمال وهى تبرق فى تلك اللحظة من منعكس ضياء المساء عليها ... حتى اتيا على زورق فى نهاية مجرى النهر قد وقف حوله جماعة من الناس تبدو اشباحهم فى الظلام

وما ان لمحهم الدون بدرو حتى رفع صوته وتكلم بشىء من الاسبانية فاسرع اثنان منهم اليهم

ومدت مرغريت يدها اليه للمرة الثالثة وقالت فى عزم:

— والآن وداعا ! ارجو لك ريحا رخاء فى سفرك .

فقال بحزن : اواه .. اناشدك الله ان تمكثى لحظة اخرى .. لحظة واحدة فقط !

وتناول يدها فى قبضته وعاد يقول :

— ان هناك شيئا آخر اريد ان اقوله شيئا يجب ان

انه قبل ان اذهب .

قالت : قله اذن واسرع . فان رجالك وقوف ينتظرون!

قال : لا شان لهم . لانهم خدمى .. مرغريت !

وخيل اليها انه كاد يختنق . كما بدا لها ان وجهه استحال شاحبا شحوبا متناهيا .. وانه كان يرتجف .. فتولاها خوف غريب فى تلك اللحظة .. فراحت تنتزع يدها من يده وهى تقول :

وداعا !

وهمت بان تنصرف

ولكنه وثب فى الرحا وانقض عليها يطوقها بذراعيه ويدنيها من صدره وقد استحالت هاجرة متلاشية القوى كانها وقعت فى فخ من فولاذ .. وانثنى يقول فى شبه نحيب :

— كلا ! كلا ! اصغى على يامرغريت !

قالت غاضبة : يادون بدرو !

وجعلت تلتمس الفكاك من الترامته ولكنه شده الامساك بها ولم تكن فى حياتها النقية الطاهرة قد تعرضت يوما لهذه المعاملة المهينة للعزة والكرامة . فجعلت تصيح به آمرة وعيناها من الشرر تكادان تحرقانه :

— دعنى .. « اذا كنت رجلا مهذبا يا دون بدرو فحسبك هذا . انه عمل لا يليق .. انه سفالة . بل نذالة لا حد لها !

قال وهو يضحك فى سخرية عالجة :

— رجل مهذب ! وما لنا الآن والمهذب او غير المهذب ! نحن هنا رجل وامراة . وانا احبك !

وعند ذلك ادركت سفالة غرضه ، وتكشفت لها نذالته، ودنانة نفسه التى لا تعرف ضميرا ولا تبالى صوت كرامة ، فارسلت صيحة من اعماقها لتردد دويها فى الفضاء وعاد اليها

الصدى فارغا مخيفا رهيبا .. ولكنها مع ذلك احدثت ا
جوابا على صيحتها قد تردد فى مكان سحيق وعرفت الصو
فارتجفت لمجرد خياله اشد الارتجاف .. فعادت تنادى
باسمه :

ـ جرفاس . جرفاس !

واحست قبضة الاسبانى قد زاحت عنها .. وانها
قد فكت من امساكته .. ولكنها قبل ان تحاول تحر
شعرت برداء قد القى عليها من فوق رأسها فغمر بدنها
جميعا واسكت فمها وسد شفتيها .. واذا هى تحمل حملا
بأذرع قوية وهى تعدو بها سريعا .. وفى اثرها جاء الدون
بدرو يجرى وهو يصيح برجاله :

ـ هيا .. اسرعوا .. اسرعوا !

وقد وصلوا الى الزورق فى اللحظة التى جاء جرفاس
فيها يعدو خلال الشجر يريد الشاطىء .. فما كان من احد
الاسبان الا ان سدد فوهة بندقيته نحوه ليقتله غير ان
الدون بدرو ركل البندقية بقدمه فالقاها فى اليم صائحا به :

ـ أيها الاحمق ! من قال لك ان تفعل هذا ؟ هيا
انطلق ... والبدار الى المسير !

وكان الزورق قد ابتعد بهم فى اللحظة التى وصل فيها
جرفاس الى الشاطىء فاقرا متوثبا ، ولم يحفل بالماء ومشى
فى اليم بقدميه لا باوى على شىء .

واطلق صوته يصيح فى غضب ممتزج بكمد :

ـ يا دون بدرو .. ايها الكلب الاسبانى !

ولكن القارب مضى فى طريقه وظل جرفاس يخوض
الماء فى اثره حتى بلغ الماء كتفيه . فوقف يصخب ويلعن
ويلوح بقبضته فى الهواء ويهزها هزا وهو يصيح ويتوعد

ووقف الدون بدرو يسمع هذا الصوت المختنق الذى
حملت الرياح لبراثه الى مسمعه ، ثم راح ينظر الى ذلك الرجل

الذى كاد يطلق النار على جرفاس فاهاب به قائلا

ـ لقد كنت محقا اذ منعتك من قتله . فلو قتلناه
لكنا به رحماء .. !

الفصل الثانى عشر

الوزير

كان اللورد جارز مكبا على مكتبه ومجلداته على ضياء
الشموع التى اوقدها الخادم له على المنضدة . وانه لكذلك
فى تأملاته وسكونه اذ ارتفع امامه فجاة شبح موحش يقطر
الماء من ثوبه

وكان ذلك القادم عليه بتلك الصورة هو سير جرفاس!
فهبت الشيخ وذهل لمشهده هذا ، ولكن جرفاس لم
يتركه ليتكلم وانما بادره بقوله بصوت قاصف كالرعد :
انهض يا سيدى اللورد . هيا اسرع يا سيدى ولا تضيع
الوقت سدى !

وراح ينتزع الكتب الملقاة امام الشيخ ويكتسحها بيده
اكتساحا

فلم يزد الشيخ على ان جعل يتأمله فى صمت وذهول
لا يوصف

واخيرا نظر اليه قائلا : ما هذا ؟ ! هل جننت ؟ !

فاجابه جرفاس فى شبه انتحابة : السالنى هل
جننت ؟ اى والله لقد طار لبى . وذهب صوابى

وانشا يقص عليه ما جرى قائلا :

ـ لقد ذهبت ابنتك . اختطفها ذلك الاسبانى النذل
الخائن .

وجلس اللورد بعد ان سمع التفاصيل جامدا وقد

حطمه الحزن وبلغ الالم من نفسه كل مبلغ
واستطرد جرفاس :
ـ لقد حملها ذلك النذل ومضى بها كما يحمل الصغير بمامة بين اظلافه ومخاليه !

فاعتمد الشيخ بمرفقيه الى المائدة وتناول راسه بين يديه واخذ يئن انين العاجز وقد حطمه النبأ وذهب بآخر قوته حتى غدا مشهده مؤلما يفتت قلب الجماد ، ولكنه مع ذلك لم يثر شيئا من الشفقة فى نفس جرفاس ، اذ وقف لحظة يتأمله وهو هكذا فى عجزه وياسه وانينه ، ثم صاح به قائلا وهو يدور على عقبيه لينصرف : والآن طاب ليلك !

ولكنه ما كاد يخطو خطوة نحو الباب حتى سمع الشيخ ينادبه :

ـ جرفاس ! !

فوقف على تلك الصيحة المؤثرة وادرك اخيرا ان حاله هو والشيخ سواء فى المصاب والكارثة والالم المضى .

وما لبث ان رأى الشيخ قد وقف متمالكا نفسه مستوى القامة بعد تلك الانحناءة التى احدودب لها ظهره من طول مجلسه الى الكتب وكانما افاقت حواسه من اثر الصدمة التى انتابته ، وعاودته ارادته فاعتزم ان يفعل شيئا ازاء هذا المصاب الذى حل به ، ولم يلبث رجل الفكر ان استحال فيه الى رجل العمل !

قال : الى اين انت ذاهب ؟

فاجاب الفتى فى حماسة رهيبة : فى اثرها .. الى اسبانيا !

قال ميهوتا : الى اسبانيا ! ولكن مهلا يا بنى . وانتظر ودع التفكير يسبق العمل . فما تم شىء بلا فكر ، ولا تحقق امر بلا روية وبصيرة . وحذار ان تفسد علينا كل شىء بالعجلة والتهور !

ومشى مبتعدا عن المائدة وهو يضم اليه شقى رداله وقد اطرق ودنا من النافذة حيث وقف لحظة يطل على الحديقة واشباح الشجر والدوح الباسق وقد لاح القمر من خلال اغصانها المتشعبة ورأى جرفاس هذا المشهد فوقف مغلوبا على امره

وتنهد اللورد وعاد يقول : الى اسبانيا ! اهذا ما قلت ؟ ولكن كلا يا ولدى ! ما هذا بفعل ذو لب . ولكن لنذهب اولا الى الملكة فلعل جلالتها لا تزال تذكرنى وقد تنفع الذكرى فضلا عن انها امرأة ، بكل معنى الكلمة ، فهى لا تتأخر عن تقديم يد المعونة من اجل امرأة فى اشد الحاجة الى العون والنصر ، سأذهب معك يا جرفاس ، ناد لى مارتن ، وليعدوا الخيل والسواس ، وليمدنا فرنسيس بما تيسر من المال ، لنقوم مع مطلع الضياء

ولكن جرفاس هز راسه واجاب قائلا :

ـ لا استطيع يا سيدى اللورد الانتظار الى الصبح فان كل ساعة الان غالية . ولقد كان فى خاطرى اللحظة الالتجاء الى الملكة وكنت افكر فى ان اقصد الى دوفك او هوكنز لكى يلتمس لى الاذن عليها . فاذا كان لابد من مجيئك ياسيدى فاتبعنى لان مجيئك معى يؤخرنى .

فتولى الشيخ الغضب ولكنه راى الحق واضحا فزفر زفرة اسف وحزن وقال :

ـ اواه ! انى شيخ كبير ضعيف وهن العظم منى ، فلا انفعك فى سفرك بل فى الواقع اؤخرك . ولكن لعل اسمى لا يزال له خطره والره عند الملكة اكثر من مركز دوفك او سواه عندها فساكتب اليها رسالة ، واكبر امل ان لا تحرم حاملها من حظوة لقائها . وهذه هى الفرصة التى امامك .

ومشى بنشاط الى المنضدة وجلس يكتب

ووقف جرفاس فى قلق فاقد الصبر منتظرا ان ينتهى

الورد من كتابته .

واخيرا أتم الكتاب ووضعه فى غلاف وختمه ثم دفع به الى جرفاس ثم تهالك على كرسيه ضعيفا واهنا وهو يقول :

ـ حقا قلت يا ولدى . فانى لا أصلح للسفر معك . ولكن الانتظار هنا ممض . رباه ! ان نصيبى من هذا المصاب يا جرفاس أقسى من نصيبك واشد ايلاما ؟

وتأثر جرفاس فألقى ذراعه على كتفه قائلا :

ـ اذا ولقت بى خفف هذا من الم . فلتطمئن اذن الى انى لن انثنى عن المستحيل اذا ما اضطرونى الامر اليه . وستسمع منى اخبارا بأذن الله اذا وصلت الى لندن

وانطلق لا يلوى على شىء ، ولم تمض لحظة حتى سمع الخيل عاديات

وترك جرفاس جواده يطوى الارض . وفى أورنباك لم يجد السير جون ولكنه مع ذلك وجد صديقا له ممن احرزوا المجد معه فى معارك البحر وهو نوبسليان ، فاتفقا على ان يسافرا الى أسبانيا بمجرد الاستعداد وأن سفينته فى امكانها أن تستعد للابحار فى تلك الليلة بالذات . ولكن صديقه رأى أن يتجها أولا الى لندن . التماسا لمساعدة سيرجون هوكنز وكان هذا صاحب حظوة عند الملكة ونفوذ فى البلاد

ولم يأت مساء ذلك اليوم نفسه حتى كان السيرجون يدخل بهما غرفة السير فرنسيس ولستجهام فى هوايتهول

ولم يحفل الوزير بأن ينهض لتحيتهما عند الدخول بعد ان استأذن السيرجون لهما فى المثول فى حضرته

وانسحب السيرجون تاركا الشابين معه .

فبادرهما هذا بقوله :

ان هذه القصة التى قصها على سيرجون مزعجة

قال ذلك ولم يكن فى نبرات صوته ما يدل مطلقا على

من الانزعاج ولا فى نظراته الهادئة وهو ينظر اليهما معا . واشار بيده لهما أن يجلسا امامه .. فاحتى اوليفر نوبسليان راسه شاكرا بينما ظل سير جرفاس واقفا وهو يلوح قلقا شاحبا مضطربا .. وحين بدأ يتكلم رفع صوته ورعشت نبراته .

قال : ارجو يا سيدى الوزير ان يتاح لى شرف عرض الامر على أسماع جلالة الملكة

فمتقطع سير فرنسيس لحيته بكفه .. وابتسم ابتسامة عابثة ساخرة وأجاب قائلا : ستحاط جلالتها علما دون شك

ولكن هذا لم يكن الغرض الذى يرجوه جرفاس . . فسال بين الرجاء وبين السؤال : الا تطلب لى اذنا على انفرادها يا سيدى ؟

فنظر الوزير اليه متسائلا : ما الفائدة من ذلك سيدى اذا كان كل شىء سيبلغ لمسامع جلالتها

وسوف تأمرنى جلالتها عقب سماعها بالموضوع بالاخذ بشىء من الاجراءات فى شأنه . ولهذا يجب أن تمتثل ارادتها السنية بأن تكفيها مؤونة المقابلات غير الضرورية التى من هذا القبيل

فتململ نوبسليان فى مجلسه وتحفز . ثم قال بصوت غاضب :

ـ ليس رأى رجل كالسير جرفاس مما يصح أن تكفى الملكة مؤونة سماعه أو ترضى عن محاولة انسان حتمه من مقابلة جلالتها

ولكن الوزير لم يتأثر لهذه اللهجة ولم ينزعج .. والتفت بكل هدوء وهو ينظر اليه نظرته الساخرة :

ـ افلتك لم تفهم يا سيدى ما أعنى . أن شخص الملكة وحده هو ما يجب على أنا كما يجب على الجميع أن أصونه من

مثل هذه المقابلات . انا سلطتها والا نفوذها قد يستخدمان كما ينبغي تماما . ومن واجبي ان افعل ذلك .

فانثنى جرفاس يقول : وماذا تعني يا سير فرنسيس بهذا صراحة ؟

فجلس الوزير مستندا الى ظهر مقعده يتامل اخرى هذين الشابين المتحمسين الخياليين اللذين يتوهمانهما قادران على مقاومة ارادة وزير من وزراء الدولة

واخيرا قال : معنى هذا انني سأقدم احتجاجا شديدا للسفير الفرنسي غدا

فاندهش جرفاس وراح يقول : السفير الفرنسي وما شان هذا بموضوعنا ؟

فابتسم سير فرنسيس بسخرية ظاهرة في هذه الم واجاب بقوله :

— لما كانت علاقاتنا مع اسبانيا في الوقت الحاضر مقطوعة كان من الضروري توسط سفير فرنسا وهذا يعني الاعتماد عليه

فلم يطلق جرفاس صبرا على هذه الاعتراضات المستمرة . فصاح في غضب قائلا : ولكن بالله ماذا يحدث للاذى مرغريت بينما تحتج انت لدى سفير فرنسا وبخاصة هو الملك فيليب ؟ !

فجعل الوزير يقلب يديه اسفا على ان لا حيلة غير هذه لديه وقال :

— لتكن عمليين اولا . لقد مضت على هذه السيدة بحسب اقوالكما ثلاثة ايام وهي في البحر في قبضة مختطفيها وهذا يكفي ليتبين لنا ان الامر لم يعد يقتضي العجلة التي تريدانها فلا فائدة من التحمس في موضوعنا هذا الذي بيدينا

فنهض تريسيليان من مجلسه متهيجا وهو يقول :

— لست من رايك يا سيدي الوزير . على ان المسالة تعني عناية الانسانيين .. لا عناية السياسيين .. فنحن واثقين الساعة امامك رجلان ضحيا بحياتهما وما ملكت يمينهما في خدمة الملكة . . وكل ما نساله الان مقابل تضحياتنا هو ان يسمح لنا بمقابلة جلالتها . !

فقال الوزير : على رسلك .. على رسلك .. ليس هذا وحده هو الذي نسالان .. انكما تسالان لكي تطلبا بعده شيئا آخر .

فصرخ تريسيليان قائلا : وهذا من حقنا . !

واردف جرفاس : ونحن نقتضيه .. ولن تنكره جلالتها علينا .

فنظر اليهما سير فرنسيس بنفس النظرة الهادئة التي نظر بها اليهما في البداية . ثم نهض من مجلسه قائلا :

— سادخل بكما على جلالة الملكة حالا ، وجلالتها تنتظر على الساعة

ومشى الى الباب وهو يقول : هلما بنا . !

الفصل الثالث عشر
الملكة

وسار بهما سير فرنسيس واستجهام مخترقا بهما ممرا وردهات كثيرة حتى بلغوا بابا قد وقف عليه حارسان شاكي السلاح .. فدخلا منه الى حجرة فخمة الرياش حيث ابصروا رجالا من الحاشية جالسين على الارائك في لباسهم الرسمية .

وفي الحال تقدم احد الامناء يحمل عصا خاصة في يده نحو سير فرنسيس .. فتبادلا كلاما قصيرا .. ثم انحنى الامين ومشى الى باب صغير يقوم على جانبيه حارسان آخران .. فدخل ولم يغب اكثر من لحظة .. ثم عاد يعلن ان جلالة

الملكة بستقابل سير فرنسيس وزميليه بعد لحظة .

ودخل الصديقان فى أثر الوزير .. فتقدم هذا وبيده اليسرى أشار اليهما ان يجثوا مثله .

وكانت الملكة مرتدية فى ذلك اليوم ثوبا رديا .. يميل لونه الى القرنفل .. وهى مزدانة بجواهرهـــا ولآلئها الثمينة كما رآها جرفاس أول مرة .

وليثت الملكة تنظر اليهما ولا تتكلم .. ولعلها تبينت فيهما شابان اغيدان وسيمان .. وكانت معروفة بالميل الى الشبان الملاح المفتعى الوجوه .. حتى لقد كانت تختـــار لحرسها الخاص جنودا من حسان الملامح وجميلى الطلعات .

واخيرا تحولت الى الوزير فبادرته قائلة :

ـ لماذا أحضرتهما ؟

فانشـــا الســـير فرنسيس يذكر جلالتها بهما وبما فعلاه فى حرب الارمادا حتى ظفرا بالحظوة لديها فانعمت عليهما بلقب « سير » تقديرا واعجابا . وختم كلامه بقوله :

ـ وقد جاءا يا مولاتى يسألان صنيعا صغيرا كجزء من الخدمة التى أديناها للوطن وكمشجع لهما على خـــدمة فى مستقبل الأيام !

قالت مرددة كلمته : يسألان صنيعا ؟

وخطف برق الخوف فى عينيها ثم قالت :

ـ هذا ما كنت أخشاه . فاذا كان هذا الذى يسألانه مالا أو شيئا غاليا ذا كلفة فليمسكا عليهما كلامهما فقد كان الحزب الاسبانى يردنا متسولين

وعند ذلك تقدم سير جرفاس منشجعا جريئا فقال :

ـ لسنا نسأل مالا يا صاحبة الجلالة

فبدا عليها الارتياح والاطمئنان .. ومدت يدها الى سلة من الفضة بجانبها فتناولت بعض الحلوى . وقالت :

ـ وما هو اذن ؟ تكلم يا فتى !

قال : لقد جئنا يا مولاتى نطلب عدالة ونستعدى على صارخ

فنظرت اليه بريبة حادة فجائية واتبعت تقول : آه .. عدالة ! أعرف هذه الكلمة جيدا ! انها على شفة كل طالب أجر .. وطامع فى منصب او ولاية . ايه . ايه يافتى ! فمص ما وراءك ؟

والقت قطعة الحلوى فى فمها فغابت بين شـــفتيها الحمراوين

قال : اولا يا مولاتى انى حامل الى جلالتك كتابا !

وتقدم فجثا مرة أخرى وقدم الكتاب اليها قائلا :

ـ هل تتفضلين يا مولاتى بقبوله ؟

فعبس واستجهام وتحفز وقال :

ـ ما هذا الكتاب ؟ انك لم تقل لى شيئا عنه !

فقالت الملكة : لا بأس من هذا مطلقا .

وتناولت الكتاب ففحصت اخنامه

ثم قطبت حاجبيها عابسة وهى تقول :

ـ ممن هذا الكتاب ايها السيد ؟

اجابه : من مولاى اللورد جارز يا صاحبة الجلالة

قالت مرددة الاسم : جارز ! جارز !

وكأنما تعالج ذاكرتها وما لبثت أن صاحت فجأة :

ـ آه . انه بلا شك روجر جارز تريفانيان !

وامسكت انفاسها المتصاعدة ونظرت اليه قائلة :

ـ ومن يكون لك روجر يا فتى ؟

قال : صديقى يا مولاتى . وأنا صديقه واحب ابنته !

قالت : آه ! ابنته . آكذا ؟ اذن له بنت ؟ احسبك قد احسنت الاختيار اذا كانت البنت تشـــبه ابناها فقد كان وسيما جميلا فى شبابه . افقد لزوج ! لم اسمع بهذا قبل الآن . يا عجبا ! .

وتنهدت وظلت ساهمة لحظة .. ثم كأنما تنبهت لتفكيرها الى الموقف فغضت الكتاب ونشرته بين يديها وجعلت تجهد فى قراءته وهى تقول :

– هذا خط ردىء للغاية والله !

قال : لقد كتب فى لحظة اضطراب شديد وحيرة يا مولاتى

قالت : لابد ان يكون كذلك ؟ اريفاليان اذن فى محنة وقد ذكرته المحنة بى أخيرا لقد كان يجدر به ان يتذكر فى هذا . كان خليقا به ان يتذكر الدين الذى على له كل هذه السنين ؟! نعم كم سنة الآن ليت شعرى ؟!

وتنهدت مرة أخرى ولبثت لحظة تفكر

وبدا لجرفاس أن عينيها قد تدبتا واختلجتا من شدة التأثر كأنما قد عادت بها الذاكرة الى الماضى البعيد .. الى صيور الذى احبها واخلص اليها والقى الموت فى سبيل حبه وولائه

وأخيرا انتهت من ذكرياتها فالتفتت الى جرفاس قائلة

– لم يذكر لى دوجر شيئا فى كتابه اكثر من أن طلب منى مساعدتكما فى محنة اليمة عرضت . فما هى تلك المحنة ؟

فانشأ جرفاس يقص بايجاز وبلاغة وحرارة وتأثير بالغ :

وحاول الوزير ان يقاطعه قائلا :

لقد كان هذا تصرفا سيئا . ويجب أن نتخذ التدابير لكى ..

فأسكتته الملكة صائحة به : امسك عليك لسانك يا رجل !

فسكت ولم يعترض مرة اخرى . ولم يكد ينتهى جرفاس من القصة حتى صاحت جلالتها فى غضب :

– يمين الرحمن . لقد بلغت الجرأة بهؤلاء الاسبان

هذا منتهاها . افلا ينبغى ان نوقفهم عند هذه الفحة الجريئة ؟ افيجترىء اسبانى منهم على النزول الى ارضنا فى سفينة مغرقة لم يركب هذا الجرم الشنيع ! يمين الله ليعلمن بعد حين مدى ذراع امراة فى الدفاع عن امراة مثلها .. والله لاعلمنهم هذا ولافين عليهم درسا اليما . ولنستجهام ادع لى .. ولكن كلا . انتظر !

واجتازت القاعة الى ركن اخرجت منه صندوقا صغيرا من الفضة ، فاخذت منه مقدارا بسيطا ، لكى تهضم الحلوى التى ضايقتها ، وراحت تنقر بأصبعها الصغير على زجاج النافذة

لقد الرت القصة فى نفسها اكثر مما كان جرفاس يتوقع ولا شك فى ان عاملا اضافيا آخر هو الذى حرك شعورها بجانب القصة فى ذاتها ، وهو ان الفتاة المعتدى عليها هى ابنة روجر تريفاليان ، وان اسم روجر كان كافيا لايقاظ ذكرياتها القديمة ، ذكريات حبها الماضى ، والغرام الذى وقع لها فى سباها ، يقدر ما الر فيها ان الراوى فتى مليح معتدل القد جميل المحيا ، وانه عاشق كذلك !

واخيرا تركت النافذة بحركة تدل على القلق والانفعال وصاحت بجرفاس قائلة :

– اقترب قليلا يا فتى !

فاسرع اليها ووقف باحترام قبالتها

قالت : اخبرنى يا فتى ماذا تطلب منى بالضبط أن افعل وما هى العدالة التى تلتمسها ؟

وسمع الوزير هذا القول منها ، ورأى بوادر اللبؤة الكامنة فيها قد ظهرت واستيقظت ، فخشى العاقبة ، وزاده جواب الشاب تخوفا وخشية ، اذ سمعه يجيب الملكة قائلا :

– انى ممتزم يا صاحبة الجلالة ان اسافر حالا الى اسبانيا لكى اتعقب الدون بدرو دى مندوسا

فصاحت به قائلة : يمين الله ان هذه العزمة لجريئة . ولكن ما دمت تريد ان تتولى الأمر هكذا بنفسك فماذا بقى لى أنا أن أعمله ؟

وكان صوتها ينم عن شىء من التهكم ، وهو ما يتشابه مع تلك الفكرة الجنونية التى سمعت بها

فاجابها جرفاس بقوله : لقد كان أملى يا مولاتى ان تتولى جلالتك حمايتى فى هذه السفرة وضمان عودتى منها سالما . ويعلم الله انى لا اقول ذلك خوفا على نفسى ولكن ...

فقاطعته قائلة : ولكن كيف احميك انا ؟ ! ان حمايتك فى ارض الملك فيليب ، وفى هذه الظروف ...

وراحت تلعن وتصيح

ولما كفت عن اللعن والسخط وساد السكون لحظة ، راى الوزير ان يتدخل ، فقال :

ـ لقد كنت قبل مجيئنا يامولاتى اقول لسير جرفاس ان جلالتك سوف تعهدين الى بالتماد الاجراء المناسب فى هذا الشان ، كان تبلغ الملك فيليب عن طريق سفير فرنسا فتلا

فصاحت الملكة قائلة : وماذا كان جواب الغبى ؟

فعاجلها جرفاس قائلا :

ـ اسمحى لى يامولاتى بكل احترام ان اقول ان الامر مستعجل للغاية

قالت : هو كذلك يابنى ! ولو ان لسير فرانسيس ازى ..

ثم طوت عنه كشحا معرضة وانثنت تنظر على الزجاج وهى تقول :

ـ يجب ان نجد طريقة .. فهيا يافتى فكر معنا واجهد

ذكاءك .. ولست اجهل مطلقا اذا كان ماتقترحه تهورا أو جراة بالغة ..

ولم يكن جرفاس قد فكر فى خطة معينة .. فسكت لحظة وهو حائر ولكن سير اوليفر تريسيليان انبرى فى تلك اللحظة يقول :

ـ هل تاذنين لى يامولاتى فى الكلام ؟ !

وتقدم خطوة نحوها فاستدعى اليه الانظار .

فهبت فيه صائحة :

ـ قل مابدا لك وعجل به ؟

قال : لقد ذكرنى يامولاتى لاتذكرين ان الشرف الذى جرانى به كان جزاء لى على استيلائى على سفينة القائد فى اسطول الاندلس وهى السفينة الوحيدة التى امكننا ايقافها فى ايدينا .. وقد اسرنا قائدها ، الدون بدرو فالدز ، وهو المشهور بانه اقوى وابرع قواد الاساطيل الاسبانية فى البحار .. كما اسرنا معه سبعة اشخاص من اكبر البيوتات فى اسبانيا ، وهؤلاء جميعا فى الوقت الحاضر تحت يد جلالتك سجناء فى البرج .

قال هذا ولم يزد .. ولكن لهجته كانت رهيبة مفعمة بالايحاء والتنبيه .. وقد أزعجت الوزير اشد الازعاج فصاح به قائلا :

ـ بالله ماهذا الذى تقصده ؟ ؟

ولم يجب تريسيليان .. لان الملكة كانت الى الجواب اسبق .. اذ استضحكت ساخرة من الوزير عابثة به ، وانثنت تقول :

ـ أليس مايقصده واضحا ؟ ولكن دعنا منك انت ياصاحب الفكر التراضع ؟ ! ياداكرز قربى هذا القعد من المنضدة لكى اكتب ، لابد ليمامن ملك اسبانيا مدى ذراعى .

فتقدمت الوصيفة ذاكرز فقربت المقعد من المنصة ..
فمشت الملكة اليه فجلست وهي تقول :

ـ على يقلم .. وأنت ياولسنجهام اذكر لى اسماء السبعة السجناء في البرج مع فالنز ؟

فاصفر وجه الوزير ورغشت لحيته المستطيله وقال متلعثما :

ـ هل تنوى مولاتى حقا أن ..

فقاطعته بقولها :

ـ ستعرف لماذا أنت وذلك المغفل الآخر فيليب ما أسماؤهم قلت لك .. ؟

وكان انفعالها شديدا .. فلم يسع ولسنجهام سوى الاذعان . وتلفت هي الاسماء فكتبتها أمامها .. وأقبلت تكتب الى فيليب الذى كان في وقت ما يتمنى الزواج بها حتى انتهت بعد لحظة من تحرير الخطاب فطابت شمعا ختمه.

وحاول السير فرنسيس الاعتراض مرة أخرى ..ولكنها انتهرته ثانية بحدة .

وشعر الوزير باهانته فعمد الى الاحتجاج باسم مجلس البلاط .. ! ولكنه لم يكد يفعم بهذا الاسم حتى التفتت اليه محتقة قائلة انها ليست لحت أمر هذا المجلس أو ذاك .. وان هذه الاهانة التى لحقت بسيدة انكليزية من اسبانيا هي في الواقع اهانة موجهة لانكلترا نفسها .. وهذا الكتاب الذى كتبته هو جوابها على هذه الاهانة .. وعلى سير جرفاس أن يسلمه الى المرسل اليه .

فتراجع ولسنجهام مرتبكا .

ودفعت الملكة بالكتاب الى جرفاس قائلة :

ـ ها هو سلاحك أيها الفتى . سر الى اسبانيا ولا تن في الوصول اليها . فان هذا الكتاب هو بمثابة سيفك .

فاذا ماخاب في يدك لاقدر الله فثق انى سانتقم لك . اذهب معه يامسيو فرنسيس ودعنى أعرف أولا بأول ماذا يأتيك من أخباره ، وحذار من أن تكتم أمرا عنى فان حياتك تصبح في خطر .

فجثا جرفاس وتناول الكتاب

ومدت الملكة يدها اليه فقبلها بخشوع واحترام ، واذا بها تمد يدها الاخرى فتمس برفق فروع شعره الموسل الاشقر اللون وهي تقول بصوت غلب عليه مشاعر متضاربة :

ـ انك حقا لفتى بديع ذو قلب عاشق وعاطفة طاهرة .

والى لادعو الله لك أن يرد عليك فتاتك سليمة وأن يعيدك الى وطنك ناجيا

وخرج جرفاس وصاحبه متعثرين من حضرة الملكة

واستأذن سير فرنسيس منهما وهو في غيظ كظيم وتركهما وهو يخشى مما خلاه ويشفق من أن يكون يلقى بالعالم في أتون من النار !

الفصل الرابع عشر

القس لويس

كان الخوف شعورا غريبا عن احساس مرغريت . لانها في كل حياتها وقد بلغت الخامسة والعشرين لم يحدث أنها يوما ما يثيره في نفسها ولم تنزل المخاوف بساحتها في يوم من الايام .

فلا عجب اذا لم يفارقها اعتدادها بنفسها لحظة واحدة ، وهي على تلك الصورة المتكررة مكممة ، ملفوفة ، محمولة على غير ارادتها بخشونة وغلظة .

والما كان الشعور الاول الذى استولى عليها هو الدهشة المخلوطة بالاستياء والاشمئزاز ، ولم تحاول المقاومة ، لانها

أدركت أنه من العبث محاولة تجربة قوتها البدنية في هذه الظروف

ولم تشعر بحركة الزورق وصوت المجاذيف ومواقع اقدام البحارة في نواحيه للاشراف على سيره ، فان العصابة التي شدت حول عينيها واذنيها جعلت الاصوات لاتصل الى سمعها الا خفوتا .. وكانت مع هذا تحس ان هناك شخصا كان يجلس فوق رأسها .. وان ذلك الشخص هو بلا ريب الدون بدرو وان ذراعه كانت محيطة بكتفيها كوقاية اوتحفظ، فلم يزعجها ذلك كثيرا كان بلا ريب مزعجا لها في وقت آخر

ولم يمض نصف ساعة حتى شعرت بأن تلك الذراع المطوقة قد تراخت عن كتفيها وان الايدي قد امتدت الى الحبل الذي استخدم للف العصابة حول عينيها ، واذا بها تجد العصابة مرفوعة عن وجهها .. واذا هي تفتح عينيها على وجه الدون بدرو تسمع بأذنيها صوته وهو يقول :

– هلا غفرت لي يامرغريت هذه الجراة الخشنة ؟

وكان هذا السؤال متبوعا في لغة تضرع ورقة واستعطاف فلم تلبث أن وجدت صوتها ، بل ادهشها انه لم يزل هادئا قويا ثابت النبرات وهي تجيبه قائلة :

– سوف نتكلم في ذلك حين تنزلني الى الشاطيء، فقد الصخرة القريبة من قصر تريفانيان !

فرأته يبتسم ابتسامته الحبيبة الماكرة المتكبرة الملينة بالاعتداد .

تلك الابتسامة التي كانت فيما مضى محل اعجابها فاستحالت الآن كريهة شنيعة في نظرها .

وعاد يقول : اذا لم يكن لي أمل في الصفح قبل الآن فمن الخير لي ان اقتل نفسي يأسا وانا .. هيهات لارجوع يامرغريت ولا مآب فانت معي الى النهاية

فحاولت ان تنهض ولكن ذراعه عادت تطوقها لتحول دون تحركها واتبعتي يقول لها راجيا ملحا :

– هدوءا ياعزيزتي ولا تخافي عدوانا مطلقا على كرامتك فانك واصلة الى المركز الرفيع الذي اعددته لك والسلطان العظيم الذي انت اهله .

فالت : ان هذه الرفعة هي التي تريدها انت لنفسك وهي رفعة المشنقة التي تنتظرك .

فم يحر جوابا وانما تراجع زافرا وصمت متألما حزينا . اذ رأى من الخير أن يتريث حتى يزول مابها . ويخف غضبها. وهو بلا ريب زائل بمجرد ادراكها أن لافائدة مطلقا من المقاومة .. وهذا الادراك سوف يلاشي عنادها أكثر مما تلاشيه كلماته وعباراته

وظل الزورق بهم مسافرا .. فراحت تدير عينيها في جوانبه ، فلم تلبث ان انتبهت الى وجود رجل آخر بجانب الدون بدرو عند الدفة وكان ذلك الرجل ممسكا بالسكان في يده . فاتجهت اليه باحتجاجها . مطالبة في لهجة الامر المقترن بالوعيد أن يلف بالزورق ويعود بها من حيث أتى

ولكن ذلك الرجل لم يفهم شيئا مما قالت . بل تكلم بالاسبانية مع الدون بدرو فرد عليه هذا بحدة وانتهار

فلم يسعها الا أن تلتزم كرامتها بالسكوت فصمتت . وارسلت بصرها فيما حولها مرة أخرى . فاذا مصابيح سفينة كبيرة تلوح قريبة والزورق اليها شاخص بمخر العباب في ذلك السكون الرهيب

وما هي الا لحظة حتى حاذى الزورق جانب السفينة من ناحية سلم المدخول ورأت مرغريت في تلك اللحظة فوق السلم شبحا ممسكا بمصباح

وطلب اليها دون بدرو الصعود فرفضت وتعسرت

لاول مرة بدبيب الخوف الى قلبها وأخذت تقاوم وتتمنع وتأمر وتهدد بيد ان ذلك لم يحل دون اختيارها أقل الضررين حرصا على بعض كرامتها حين حملها الدون بدرو عنوة وصعد بها الى ظهر السفينة .. فكفت عن المقاومة

وانزلها دون بدرو فى وسط السفينة حيث قامت حلقة من المصابيح المضاءة

وعند مدخل السفينة وقف الخيطان يحمل مصباحا فى يده وعلى قيد خطوات منه وقف رجلان أيضا . احدهما ضخم الجثة فى ثياب اغتياديه والآخر عملاق نحيل يرتدى مسوح قسيس من قسس الدومنيكان . وقد احتجب وجهه فى ظل القلنسوة التى تغطى رأسه

وما كاد الدون بدرو يدنو من الاول حتى انحنى هذا له وراح يتحدث اليه مخافتا بصوته . وكان هذا هو الدون دييجو كبير خدم الكونت ماركومن الذى جهز السفينة للرحلة الى انجلترا حين جاءه النبأ بأن مولاه فى انتظاره

أما القسيس فقد بقى حيث هو جامدا كالصنم مخفيا يديه فى أرداف ردائه الفضفاض . فنظر الدون بدرو ناحيته نظرة متسائلة عن سر وجوده . فتولى الدون دييجو على الفور شرح السبب قائلا : انه لما كان المتبع ألا تسافر أية سفينة فى خدمة اسبانيا الكاثوليكية دون أن يصحبها مرشد دينى، فقد رأى أن يصطحبه فى سفره . وراح يقدمه الى الكونت باسمه قائلا انه يدعى القس سالسيفو . فتبادل القس والشريف مراسم الاحترام الظاهرى باحناء الرأس احتاءة التحية والسلام .

وفيما كان القس يرفع قامته بعد الانحناء ، اذ بدا وجهه الذى كان مختفيا فى ظل القلنسوة . فاستطاعت مرغريت أن تلمح فيه سحنة داكنة شاحبة تطل منها عينان سوداوان

تبرقان بريقا مخيفا يرسل البرودة فى الاوصال ، وقد لمحت فى بريق عينيه ذلك البريق الذى التمع لحظة ثم اختفى. شيئا من الوعيد الشرير المخيف والمكر السيء الخطير . فارتجفت نفسها رجفة شديدة .

وسمعت عندئذ دون بدرو وهو يقول لها ان الغرفة الرئيسية فى السفينة تحت امرها .. وانه يضع أن تتبع الدون دييجو ليقودها اليها

فترددت لحظة رافعة الرأس متحدية النظرات . ولكنها لم تلبث ان مشت فى اثره .. وتبعها الدون بدرو .

وعند مدخل الردهة المؤدية الى الغرف شعر دون بدرو بيد أمسكت بذراعه .. فالتفت ليرى من هذا .. واذا به القس لويس يجانبه .. فعبس فى وجهه مستاء من هذه الحركة غير المؤدبة .. ولكن القس لم يأبه بعبسته بل وقف راعش الشفتين يسأله قائلا :

ـ ماهذه المرأة التى اعترضتموها محكم فى السفينة ؟!

وشعر الدون بدرو بأن القس فى غضب يكظمه فأحب ان يقابله بجواب عنيف ولكنه تمالك جأشه فأجاب بكل تؤدة قائلا :

ـ هذه السيدة هى التى ستصيح قريبا الكونتس ماركوس ، وأنا مسرور بانتهاز هذه الفرصة لاعلان هذا الخبر أمامكم حتى تتكلموا عنها من الآن فصاعدا بلهجة الاحترام الجدير بها .

وتركه منصرفا وهو يلعن فى سره الدون دييجو على اصطحاب قس كهذا من قسس الدومنيكان الشهورين بالوقاحة والخيلاء على الناس دون فارق بسبب سلطتهم الدينية التى يتمتعون بها فى ديوان التفتيش .

والقى الدون بدرو نظرة على أثاث القصرة الكبيرة فارتاح

له وادراك انه حقيق بالسيدة التي ستقيم فيها .

وكان بجوار المائدة القائمة في وسط القمرة حسادج يدعى (بابيلوس) اختصه ابدون بدرو بمحبته وجعله تابعه الخاص .

وأشار « دون بدرو » الى مرغريت الى موضع المائدة ، فتقدم بابيلوس فأمسك بالمقعد ريثما تجلس عليه .

فنظرت مرغريت الى الأسباني بسكون ، وكان وجهها شاحبا وشعرها مضطربا قليلا وثوبها غير متسق ، وقد تمزقت بائنه الحريري من الرحلها فوق كتفه ، وكان صدرها يعلو ويهبط دليلا على مبلغ الاحساس الذي كانت تحاول اخفاءه عنا وتود لو تغالبه .

وانشأت تقول بكل فتور واحتقار واحتجاج ساخر :

ـ ولم يعد لي اختيار ، فلا يسعني الا التسليم ، ولكن ممثلك هذا يا دون بدرو عمل جبان ومخلوق جاحد ناكر للجميل تقابل احساني اليك بالاساءة ! لقد وددت لو انك تركت لذلك المشير الذي انبت لي الان انه جدير بكل اسباني مريد كل شريف عالي النفس .

ومشت في رفق الى المائدة فالتخذت مجلسها واقعد الرأس في كرامة جريح ، بينما وقف هو شاحب اللون وفي عينيه بريق ألم موجع ، وقد اثاره جرحها وهمها ، فمال برأسه قليلا وانثنى يقول :

ـ هذا العتاب القاسي استحقه ولا ادفعه ، ولكن لي عذري في ذلك لاني لم افعل الا ما اوحت الي به عاطفتي ، وللعاطفة عذير وشفيع وانا اعتقد انني رجل شريف .

فضحكت ضحكة قصيرة ساخرة ، فاضطرب وراح يردد كلمته قائلا :

ـ نعم انني رجل شريف لولا ان تغلب على نفسي دافع قوي شديد السلطان لم املك مقاومته ، لقد عرفتك بامر مرغريت

فاحببتك حبا قويا غلابا .. حبا يائسا مستميتا .. واقسم لك انني لست بالرجل الفاسد العاطفة ، ولا بالعابث المستهتر .

ويجب ان تتذكري قبل الحكم على عملي انني لم اعمد اليه عبثا واستهتارا لانني رجل سوء .. ولا تحسبيني « احتفالا » فان هذا تعبير قبيح .

قالت : ولكنه التعبير المناسب للعمل القبيح الذي اتيته ، بل للجريمة التي سوف تسأل عنها وتحاسب عليها حسابا عسيرا .

قال : ليكن جرما ما تقولين . ولكن لقي انني ما كنت لافعل ما فعلته لو لم تأتمر الظروف لفسها بي لتدفعني الى فعله . فقد كانت السفينة في انتظاري عرض البحر على مقربة من سواحلكم ، ولم يكن ينتظر ان تبقى طويلا هكذا دون ان يكتشف أمرها .

فلم يكن اذن من السرعة والتعجل بد ، واذا كنت قد كاشفتك ليلة الامس بالحب منهيبا خائفا وجلا ، فعذري ان الزمن كان يجري بي مسرعا ، والعجلة حتما مفسدة ، ولولا ذلك لاصطبرت عليا ، واخفيت مابي طويلا ، ريثما تشعرين انت من تلقاء عاطفتك ، لان رسالة القلب كالشرارة الكهربائية حين تتبعث تنفذ وتسري ، لقد كنت في جهل من أمري ، هذا هو كل ماهنالك ، ولكني مع الزمن كنت سأوقظ شعورك ولم يكن الزمن تحت أمري وا أسفاه !

وبسط ذراعه في حركة تأثير شديد واحتدام عاطفة واقبل عليها قائلا :

ـ لم يكن في وسعي اذن غير الالتجاء الى هذه الحيلة السافلة ـ كما تسمينها ـ فرارا من المستحيل الذي لن يكون .. وهو التخلي عنك والرحيل بدونك .

ولقد أصبح معروفا في هذه السفينة التي ذاهب بك الى

اسبانيا وجعلت الكونتس ماركوس فالت من هـــذه اللحظة واجدة كل الاحترام والاجلال المقترن بهذا اللقب

وتمهل وانثنى ينظر اليها نظرة حزينة متضرعة شاكية، ولكن تلهفه ونظراته لم تحدث فيها اثرا ظاهرا ، بل كانت النظرة التي اجابت بها قاسية جامدة ، واذا هي تقول :

ـ لقد كنت اتصور الساعة وانت ماض في تلافـــك هذا انك وغد نذل ، ثم لا اليت لحظة اخرى ان احسبك احمق مغفلا ، ولكني الان بعد ماتوعدت من حديثك اراك مزيجـــا مجزءا منهما معا !

لقد عاملتني بعنف وأسأت الى كرامتي على امـــل ان تكرهني لتخضع لك ، وتركت في البيت الذي اوالك واحسن مثواك حزنا دائما وهما مقيما .

واقول لك ان هذه المحاولة عبث منك وطائل تحته . فلن أكون زوجا لاحد بالرغم مني ، ولكن اذا اردت ان تكسب غفرانا او صفحا قد يأتي يوم تحتاج اليه ، فاني اطلب اليك مرة أخرى ان تأمر برجوعي الى الموطن الذي انتزعتني منه

فحص من عينيه وزفر وقال : دعينا نأكل !

والتفت الى الخادم بابيلومن الواقف عن كثب فاشـــار اليه بتهيئة الصحاف ليأكل

ولم يليث دون بدرو أن وجد نفسه معجبا بتلـــك الشجاعة التي أبدتها وبتلك الجلسة المستوية التي جلستهـــا قبالته ومواجهتها لنظراته في ثبات وسكون .

وقد كان واثقا كل الثقة من أنها ستوف تســـلم له في النهاية .. لان الحجج التي صارحها بها كانت حقا صـــادقة صادرة عن يقين وايمان فليس أمـــامه سوى الهـــجر : وهو فضيلة لا تصبح مستحيلة الا مع الشك

وتناولت الطعام غير متمنعة ولا معرضة ، وشربت ايضا

قليلا من الشبيه ، ولكنهـــا احتاطت لذلك ولم تشرب الا من الابريق الذي يشرب هو منه ، ولاحظ هو هذا التوقي فاعجب بذكائها ، وهكذا راح تحديها وتشككها فيه عوامل اعجاب بها في عينيه

وفي صباح اليوم التالي خرجت مرغريت الى ســـطح السفينة فاذا وجهها ينم بشحوبه والخطوط الظاهرة فيه على ما قاسته في ليلتها من عذاب وهم شديد وسهد بالغ ، ولم يكن في حركتها أو ثوبها أمارات أخرى تكشف عن حقيقة نفسها ، فقد عنيت باصلاح ثوبها ، وتضفير جدائلهـــا وكانت تمشي بخطوات ثابتة وهي تلوح ساكنة أعجب السكون .

وجعلت تتنقل في جوانب السفينة وحيدة مفـــكرة ، ولكنها لم تلبث أن شعرت بشـــبح مستطيل قريب منها ، فتطلعت ببصرها اليه ، فاذا هي ازاء القس لويس ، الـــذي رأته ليلة الامس ، وقد بدا على ضياء النهار أصغر سنا مما تصورته لأول وهلة حتى لا يكاد يتجاوز عمره الحقيقي اواسط العقد الثالث ، ولاح لها انه على الرغم من نظراته الجامحة الذئبية لا يزال وسيما أو عليه مسحة من الجمال ، يسترعي الابصار أينما سار أو شوهد

وكان واقفا على قيد خطوات منها ممسكا بكتـــاب من كتب الدين وحبات المسبحة متدليات من كفه .

ولمح نظراتها اليه فاحنى رأسه قليلا لتحيتها وان ظل وجهه ساكنا لا اختلاج فيه كأنه مقنود من خشب

وتقدم نحوها وعيناه الواسعتان الرهيبتان مستقرتان على وجهها فلم تلبث أن شعرت بنبضها يسرع في خفقه

ولشد ما كانت دهشتها أن راح يحييها بالانكليزية

وكان حديثه لها ، الرجاء في أن تكون قد وجدت الاقامة في قمرة الباخرة جميع أسباب الراحة المطلوبة لها ، والامل

فى ان تكون قد نامت نوما هادئا فى الليلة الماضية واستيقظت فى الصباح نشيطة النفس معتمدة على امهم العذراء عليهـا السلام

وكان خاطرها فى تلك اللحظة منشغلا بشىء آخر ، منهمكا فى مناجاة نفسها بان هـذا الرجل القسيس ، يعتنق الدين الذى تعتنقه ، ولئن كان مخالفا له بعض المخالفة ،وانه من حـراس الفضيلة وحمـاة الخير ونصير المظلومين ، فمن واجبها أن ترجو معـونته ، وتلتمس نصرته اذا هى قصت عليه ما جرى لهـا ، ومركزه الدينى يبيح له الاعتراض على الدون بدرو اذا ما كان غرضه انيما

فلم تفت هذه النجوى أن الهبت شعورها ، فاتقـدت نظراتها ، وغازرتها السـكابة التى كانت تخامرة محيـاها ، وانشأت تقول :

– يلوح لى أن الله قد أرسلك لى لتكون نصيرا .

ولمح هو البريق الجديد الذى خط على وجهها قبدت على سحنته أمارات العطف والاشفاق فأجابها قائلا :

– أنا لست الا خادما ضعيفا عاجزا من خدام الله ، فما خطبك أيتها الاخت فى الانسانية ؟

فانبعثت تقص عليـه بايجاز كيف أخذت عنـوة من بلادها واحتملت على كره الى السـفينة وكيف أنها اصبحت تحت رحمة الدون بدرو

قال بسكون : أعرف ذلك

فصاحت به مرتاعة : أتقول أنك تعرف ذلك ؟!

واستنكرت أن يكون هذا القسيس مشتركا فى المؤامرة وتلاشى سريعا ذلك الامل الذى كانت تعلقه على معونته ،اذ كيف يمكن أن يكون على علم بقصتها ثم يبدى هذا الاستخفاف بالامر ولا يتحرك للاحتجاج عليه

قال : واعلم أيضا أن الدون بدرو لا يقصد بك سـوءا وان بيانه ليست شريرة ولا أثيمة ولا تنطوى على تفكير فى معصية

فـانبعثت مبهوتة : كيف ذلك ؟ أوليس من الشر والاثم والمعصية حمل هكذا على غير ارادتى واكراهى على ما أحب ؟

قال برفق : هو عمل خاطىء بلا شك وتصرف سيىء ولكنه على كل حال لم يصل الى ما كنت أخشى أن يكون من بداية الامر ، فقد كنت أخشى أن يكون منطويا على معصيـة فى حق الله يعذبه الله عليها اشد العذاب ، نعم هو ظلـم بين هذا الذى نزل بك ، وأنت تلتمسى عندى الوقاية منه فتلقى يا أخت لن تتعرضى لشر ما ولن يصيبك سوء فاما ان يرفك الدون الى بلادك فى الحال ، واما أن تنتقدى من هـذا الاكراه بمجرد وصولك الى السواحل الاسبانية

وسمعت مرغريت ذلك فكادت تضحك من فرط السرور وشدة الجذل ، من أنها استطاعت بكل سهولة الظفر بوثاقـ هذا القس لها وحمايتها من الاذى .

وتقدم القس أويس فرسم علامة الصليب فوق رأسها وتمتم بدعوات مخافتة ، فتطلعت اليه ببصرها ، وعيناها تختلجان وتبرقان ببريق شك عجيب ، وأدرك هو معنى تلك النظرات المتشككة فى بركته ودعائه فقمر وجهه فى الحال ظل ريبة شديدة ، ولم يلبث أن ذهب خاطره مع تلك الريبة الى ابعد حدودها ، فتبين أن الدون بدرو قد تجاوز حـدود الله وارتكب معصية بالغة ، لا تقتصر على مجرد اختطاف أو اكراه بل تبلغ آخر درجات الاثم ، لانه وهو المتدين ، وسليل بيت من أعرق بيوتات اسبانيا المؤمنة التقية الورعة ، قد جاء معه بامرأة زنديقة .. كافرة ! .

وأمام هذا الاستكشاف الفجـائى ، انزوى القسيس

ليهوذا ، وتراجع ذاهلا مرتاعا ، والزمت شفتاه فى عبء الالم والاستنكار ؛ وانطلق منصرفا عنها لا يلوى على شىء ..

الفصل الخامس عشر

بوادر الشر

كان تاثير هذا الاكتشاف شديدا فى نفس القسيس لويس حتى لقد لبث لحظة طويلة منزعجا مبهوتا من هذه الصدمة التى أصابته . يفكر فيما ينبغى أن يتخذه من التدابير لمحاربة ابليس وتخليص نفس الدون بدرو ذى منذوسا من حبائله

وقد طال بهذا الرجل المتدين الدعاء لله والصلاة والابتهال أن يهديه الى الوسيلة التى تمكنه من تحقيق هذه الغاية ويهبه القوة لمحاربة الشيطان الذى كاد يستولى على نفس الدون بدرو يوقوعه فى فتنة امراة زنديقة كافرة ، ودعا الله طويلا أن يمكنه من التغلب والنجاح .

وقد طال به الدعاء لله حتى أصيل اليوم التالى اذ شعر بانه قد استقوى وتجهز وتدرع لمحاربة ابليس اللعين

وكان الدون بدرو فى تلك الساعة يستنشق الهواء فوق سطح السفينة فتقدم اليه القسيس وراح يصغى فى مسمعه حديث الدين والوعظ والهداية والارشاد ، ولكن الدون بدرو كان سئما مفكرا فلم يقبل على سماع كلماته فى بداية الامر ، ولم تبدر منه بادرة على الغضب أو نفاد الصبر

وكان القسيس قد شتى أن يقاطعه او يعرض عنه لجمل كلامه طويل المقصات ، كأنما يلقى عظة دينية لا غرض له منها سوى الارشاد ، فتكلم أولا عن احسبانيا ومجدها السابق وحالتها اللاحقة ، فسمى مجدها دليلا على رضوان

الله عنها ، ودعا ما لحقها اخيرا اثرا من زوال ذلك الرضى وحلول الغضب والنقمة محله

وانتبه الدون بدرو عند هذا الحد من الحديث فتساءل الا يمكن أن يكون انكسار الارمادا فى حرب الجلترا علامة على هذا الذى يقوله القسيس ؟!

فتحمس هذا وامسك بهذا الخيط فى الحديث ، وراح يضرب على هذه النغمة ، فقال ان هذه الهزيمة قد جاءت تدبيرا من الله لهذا الشعب الذى خدعه الزهو والكبرياء والغرور ، وهى جميعا من حبائل الشيطان وفخاخ ابليس ، حتى ظنوا أن مجدهم السابق والتصارهم العزيز وعظمتهم البارزة هى من صنع انفسهم وثمرة جهودهم ، فاراد الله ان ينكسروا تذكرة لهم حتى يدركوا انه بغير رضا الله لايتم شىء فى هذا العالم

وأحب الدون بدرو ان يعترض ووجد فى خاطره امثلة وشواهد كثيرة من المنطق الدنيوى تمكنه من الاعتراض ولكنه لم يفعل وترك القسيس يمضى فى حديثه

وطفق القسيس يشرح الشىء الكثير من ماضى اسبانيا وحروبها الدينية حتى انتهى الى أن اسقف توليطلة ، طليطلة ، نفسه كان متهما بالمروق البروتستانتى وبث تعاليم الكفرة فى اسقفيته ، وانه اذا كان قد برىء من تلك التهمة فما ذلك الا من فساد رأى الدين يراوه ، وكان يجب ان يلقى فى نار جهنم ، كما ينبغى أن يلقى الكفرة والزنادقة جميعا .. اللهم آمين !.

واشتدت عند هذا الحد حماسة القسيس ، فبسط ذراعيه فى الهواء وكان منظره حقا مخيفا يلقى الرعب فى الافئدة ، فلم يكن من « الدون بدرو » الا أن ردد قوله : « آمين !. »

فلم يكد القسيس يسمع كلمته هذه حتى تحمس اكثر من قبل وقال :

– هذا هو ما كنت انتظره منك وانت المؤمن العامل في سبيل الله .. نعم .. انت اخا لي في اخوة سان دومينيك ! . او لست بهذا مسئولا عن محاربة الكفر اينما وجدته .. ومقاتلة الزندقة ! . و ..

وعند ذلك بدا الدون بدرو يتجهم ويعبس من فرط هذا الذهول واثر هذه المبالغة فقال غاضبا :

– لماذا تسألني يا قسيس لويس ! .

قال : لكي امتحنك لاني ادرك الساعة قائما على حافة هاوية سحيقة ولكي أؤكد لنفسي ان ايمانك قوي الى حد تجنيبك السقوط في تلك الهاوية .

فاندهش الدون بدرو واجاب قائلا :

– أتقول انني على حافة هاوية ؟ . انا ؟ . انك لتدهشني يا اخي ! .

واستضحك ساخرا

فصاح القس قائلا :

– انك لتوشك ان تفسد دينك النقي وايمانك الصحيح باقدامك على الزواج بامراة كافرة ! .

ففهم الدون بدرو المراد وان كان قد بهت به وقوجيء لانه في الواقع لم يكن قد فطن الى هذه الحقيقة في بداية امره ولم ينظر الى مسالة غرامه من هذه الناحية ! .

ولهذا وقف مضطربا مرتبكا ، وقد تبين له كيف انه لم يفطن الى ذلك كله من قبل ، ولكنه لم يلبث ان استعاد ثقته بنفسه واعتداده بقوته ، فهدات ثائرته ، وزال ما به من اضطراب ، اذ احس انه لن يعجز بعد تحقيق غايته من الزواج باللادي مرغريت ان يردها الى الايمان الصحيح

عدها من الزيغ والكفر .

فلم يكد يكاشف القسيس بهذا الذي جرى في خاطره حتى ارتفعت حماسة هذا الاخير ! .

وراح يهنئه على هذا الايمان الجار طويلا .. وانه اي سيشد أزره ويناصره في هذا السبيل .

وهكذا استخلص القسيس من الدون بدرو السماع له ان يعظ مرغريت ويحاول بالاقناع والهداية ان يردها عن الكفر الى الايمان .

وقضى القسيس ثلاثة ايام متوالية يحاول بكل حذر ورفق ، وصبر وحصافة تحطيم الحصون التي كان يعتقد ان ابليس قد اقامها حول الفتاة . وكان يخيل اليه بعد ذلك انه كلما جاهد وحاول هدمها قاومته وقاومت هجماته العنيفة .

اما مرغريت فقد لقنت احاديثه اولا بقبول ، وانطلت مغالطه بالاسئلة .

وخيل اليها ان الاقدار ارسلت اليها هذا الرجل العجيب ليتحدث اليها على تلك الصورة لكي ينفي عنها المثل العامل الذي كانت تشعر به في هذه السفرة التي اجبرت عليها اجبارا ، ولكي تشغل فكرها من المستقبل والمصير .

اما هو فكان يرى ذلك الاستخفاف منها فتتلوى نفسه من شدة الالم والعذاب ويحس انها قد اوتيت حولها روحا قوية من البسالة تفتن العباد فتونا حتى كاد ييأس من محاولاته

ولقد كانت الموضوعات التي جاء القسيس يتحدث اليها عنها جديدة على خاطرها ، لم يشغل بها عقلها من قبل كثيرا ، فقد كان ابوها فيلسوفا لا يحفل بالدين ، فلم يمض بتربيتها من هذه الناحية وانما تركها لنفسها تعتنق

ما يوقها من العقائد . ولكنها فوجئت الآن فى هذه المسائل النفسية ، لم تر يأسا من التفكير لنفسها ، بل جعلت الحجج والأخيلة والأفكار تتزاحم على عقلها فى وسط المناقشة فياشة متدفقة حتى اندهشت هى لنفسها مثل دهشة القسيس وعجبت من أمرها مثل عجبه

ولم يكن احساس القسيس لوبس مقتصرا على العجب ولكنه كان فى حالة يأس ممض اليم ، وقد اقتنع الآن أن الآباء الأولين كانوا على حق فى منعهم ترجمة الكتب الدينية ونشرها بين الناس وقد تجلت له حكمة هذا المنع وهى أن الدين لا يستطيعون فهمها على حقيقتها يضطرون الى تشويه معانيها وافساد اغراضها وبذلك تستحيل أدوات الخلاص بفعل الشيطان ومكره ادوات ضلال بعيد .

ولما قال لها ذلك غاشها مجددا ضحكت هى منه ضحكة مداعبة متدللة كأنما قد ألقى بها جمالها الفتان أمام عينيه لتجتذبه فى شراكها وتحتبله فى فخها ، فعلت بقلب الدون يدرو نفسه ، وشعر القسيس بذلك فأخفى عينيه بيديه وهو يصرخ قائلا :

— أعوذ بالله . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم !

فازدادت ضحكا . وانثنت تداعبه قائلة :

— يا سيدى القس أهكذا اسبحت انا فى عينيك الآن ابليس يريد أن يغتالك وأنت تحاول أن تتوارى منه خيفة . وقد يكون هذا الورع معقولا وحسنا من قسيس ولكنه مؤلم وغريب من رجل . ولكنى لن اتركك حتى يسلم أحدنا بالهزيمة أمام الآخر

فرفع يديه عن عينيه ليحدق فى وجهها مرعوبا مأخوذا وهو يقول مرددا ما قالته « حتى يسلم أحدنا للآخر بالهزيمة !! » وقد أخذ هذه العبارة على معناها الحرفى ،

وانثنى يصيح بانفعال وغضب قائلا :

— أحسبك تعنين بهذا أن تتولى حتى ينتصر الشيطان .. فيا ويلتاه اذن !

وانطلق كالمختنق يلتمس الهواء النقى من ذلك المكان المشبع فى نظره بأنفاس السم والكفر المبين

كان ذلك فى اليوم الثالث من محاولاته . وقد انتهى هكذا بنتيجة مخيفة للغاية . اذ ظلت كلماتها تطارده .. وهى « لن اتركك حتى يسلم أحدنا للآخر » لقد كان هذا تهديدا .. تهديدا من ابليس ارسله اليه على لسان تلك المرأة وشفتيها الملوثتين كفرا .. فلم يلبث أن تبين له أنه قد أصبح فى خطر .. وانقلب الصائد صيدا .. ووقع هو فى الفخ وكان يظن أنه هو الذى يريد أن يتقدها هى من حبائله !

وبدا يشكك وتمر عليه لحظات يذهب به الخاطر فيها الى أن حججها وكلماتها قد تكون صحيحة .. وانه من المحتمل أن يكون هو محدودا وانه ربما كان مخطئا فى فهم تعاليم الدين من حيث جوهرها الصحيح

وعجب كيف يحدث ذلك له وهو القسيس العالم المضطلع بأسرار الدين ودقائقه ، على يد امرأة .. بل فتاة غريرة لم تتفقه فيه ولم تتبحر تبحره .

وتصور ان ذلك لا يمكن ان يكون منها هى وحدها .. اذ من أين يأتى لها ذلك العلم الجديد .. لا بد اذن أن تكون ملموسة ! تجسمها ابليس اللعين ليضله ضلالا بعيدا ... والا فكيف وقفت هكذا حيالة عادية الاوصال .. ساكنة البدن .. تتجلى بقوامها الاهيف .. وتلقى برأسها ناحية لتضحك ملء فمها ضحكات رنانة جذلة الأغاريد .. وجدائل شعرها الذهبى يكاد يتوهج من ضياء الشمس ليملأ قلبه

فتنة ساحرة .. وعيناها الجميلتان ترنوان اليه هزوا وتهكما وعبثا .. وذلك النحر الأبيض الجميل البادى على أحسن من قوارة لوبها الشفاف ومن تحته صدرها الناهد البارز الذى جعل عينيه تستقران عليه وتتمهلان طويلا

تصور ذلك فى خلوته الى نفسه فخيل اليه ان عينيه لا تزالان متمهلتين راتيتين نحو الصورة نفسها ولكن فى الخيال .. والصدر ذاته ولكن فى لوح الخاطر .. على الرغم من انه كان يغطى جفنيه بكفيه ويود لو يقتلع عينيه بهما اقتلاعا حتى تحتجب تلك الصورة الخيالية من ذهنه

ووجد نفسه يرتعش فجمع مستعيذا بالله من الشيطان الرجيم .. مستغيثا بالرب من اعماق صدره ليتقذه من هذه الفتنة الجسدية التى استبدت به

وفيما هو كذلك غارق فى بحر لجى متلاطم لا يشعر بما حوله اذ مست يد كتفه فالتفت من ذهوله كان قطعة من حديد محمى قد مسته .. واذا به يرى بجانبه الدون بدرو وهو يتأمله مبتسما نصف ابتسامة

وابتدره هذا قائلا :

ـ مع أى شيطان يا قس لويس اراك مصارعا ؟

فتطلع القس اليه بعينين ذاهلتين وأجاب بقوله :

ـ هذا هو ما أحب ان أعرفه .. فتعال اجلس بجانبى لنتحدث قليلا

فاطاع الدون بدرو .. وساد سكون لحظة .. ثم انشأ القسيس يتكلم .. عن أصل الشيطان ونشأته وطبيعته والأسلحة العربية التى يتخذها للغواية والتضليل .

واطال فى هذا ونحوه كثيرا حتى مل الدون بدرو سماع كلامه فصاح قائلا :

ـ مالى انا وكل هذا الذى تقوله لى ؟

فاستدار القسيس نحوه والقى يده فوق كتفه بحدة وراح يسأله بحرارة قائلا : افتقتل انانا من لذة وتنية مسمومة على مائدة شهية حافلة بألوان لا نهاية لها ولذة مقيمة فى جنة عرضها السموات والأرض تحوى كل مالذ الاعين وتشتهى النفس ؟!

فأجابه الدون بدرو قائلا : بالطبع لا

قال : اذن فحد حذرك من الآن أيها الاخ !

قال ميهوتا : حذرى مم يا صاح ؟

فراح القسيس لويس يجيبه بالكناية قائلا :

ـ لقد ارسل الله المرأة الى هذا العالم لامتحان الرجل والويل لمن يقع فى حبالها !

فقال الدون بدرو متضجرا : تكلم بصراحة يا صاح!

فابتدأ القس يقول : ان هذه المرأة ..!

ولكنه لم يتم لان الدون بدرو قاطعه بقوله :

ـ اذا كنت تعنى اللاذى مرغريت تريفانيان فتكلم عنها باحترام او لا تتكلم مطلقا .

ونهض الدون بدرو غاضبا يهم بالذهاب ، ولكن القس لم يكن ليتراجع وقد بدأ . فراح يقول له :

ـ اعلم يا مولاى أن هذه المرأة كافرة لا أمل فى هدايتها على الاطلاق ..

فنظر الدون بدرو اليه وتحسس لحيته ثم أجاب قائلا :

ـ قد يكون ذلك مستحيلا بوسائلك انت وأساليبك!

قال : كلا بل بكل الوسائل اطلاقا .. انها متقمصة !

فهمت الدون بدرو والجم من الدهر فلم يستطع شيئا غير ان راح يردد الكلمة ترديدا « متقمصة ! »

قال : نعم لقد تقمص ابليس روحها . وهى ساحرة

.. متصلة بالعالم السفلي !

فصرخ الدون بدرو في وجهه قائلا : صه ايها المجنون افقد بلغ منك الغرور هذا الحد حتى انك لعجزك عن حضها ونصحها وهدايتها لم تجد وسيلة لاخفاء جهلك وعجزك سوى الزعم بانها مسربلة بروح ابليس . هذه سخافة . بل حديث خرافة !

ولم يتالم القسيس لهذه الاهانة وانما هز راسه قائلا: لا تفسير له غير ذلك . وقد اوحى به الرب لي قبل ان اكشفه حواسي وعندي البرهان على صحته . هل سمعت ما اقول . عندي البرهان ! وكان يمكن ان تفطن انت اليه ايضا لو لم تحتبك في فخها وتوقعك في شرك حسنها الفتان .

فاشار الدون بدرو اليه بالصمت في زجرة شديدة وهو يقول :

ـ اراك تذهب في تفسيرك بعيدا ايها القس ! فلا تعد لهذا بعد الآن لئلا يتملكني الغضب فانسى المسوح الذي انت مرتديه !

وعند ذلك نهض القسيس فوقف ازاءه متحديا رافع الراس ، وقال :

ـ لا يجدي التهديد مع رجل يعلم ان له الحق في الكلام

فصاح الدون بدرو به : وهل انت ذاك الرجل ؟

ولكنه كان قد غالب غضبه وآب الى نفسه الساخرة المستهترة بكل شيء ، فاستانف يقول :

ـ لا تنس اني انا ايضا لي حقوق في هذه السفينة . ومن هذه الحقوق حق القائك في اليم اذا انت تجرات ولم وتوقحت !

فلم يكد القسيس يسمع ذلك حتى انكمش وانزوى

قال : اتقول هذا لي انا ؟ هذا تجديف وسوء ادب في حق الدين احسنت قد مرقت وكفرت من الآن حتى سولت لك النفس ان ترفع يدك على قسيس يورك امام الهيكل بالويت المقدس ؟

فنهره الدون بدرو قائلا : اذهب من هنا ! اذهب ابحث لك من جهلاء تعظهم يا هذا . فما انا بحاجة الى مثلك .

ولكن القسيس وقف متمكنا ذراعيه امام صدره في منتهى الجراة والجمود ، وقال :

ـ لقد اردت ان انبهك واحذرك ولكنك لا تريد ان تستمع لي . ومن قبلك طالما هزا قوم بالوعيد فحق عليهم غضب الله . افلا تتعظ وتتذكر مصيرهم ؟

فضحك الدون بدرو مستخفا بوعيده وقال :

ـ انا لست منهم ياهذا . انا الدون بدرو دي مندوسا اولونا كونت ماركوس وكلمتي هي العليا في هذه السفينة. فتذكر ذلك كله الا اذا اردت ان يلتقمك الحوت كيونس عليه السلام !.

فلبث القسيس ينظر اليه مليا بعينين متفحصتين ثم رفع يديه فارخى القلنسوة فوق راسه . وانصرف .

الفصل السادس عشر

بين خطرين

وبعد يومين اللت السفينة مراسيها حوالي المساء في خليج سانتاندر الذي تكتنفه الجبال من كل ناحية، وكان اليومان السابقان قد انقضيا في سكون ظاهر وان كان القلق مستحوذا على النفوس ، فاما القسيس لويس فلم يحاول من جديد الاقتراب من مرغريت ، وكان ذلك كافيا

للدلالة على انه قد قطع الامل من هدايتها ، ولكنه كان قد حاول مرتين فتح باب الحديث مع الدون بدرو . ولو تم له ذلك لكان خيرا الدون بدرو ، لانه كان سيعلم حقيقة الخطر الذى يحدق به . غير انه كان فى حالة نفسية ثائرة ، يشعر معها بأنه قد تسامح مع هذا الرجل الذى اكثر مما يلزم .

ولهذا جعل الدون بدرو يقابله بكل برود ويتلقاه بكل فظاظة ويعارضه من حضرته حتى امسح القس مقتنعا كل الاقتناع بأنه لم يكن مخطئا فى تقديره ، وان التهمة التى اتهموا بها هذا الجاهل الكافر عن غيه هى عين الحق والصواب .

ومن جهة مرغريت كان الدون بدرو ايضا مثالا فى البأس يحتى ان لا تتحقق امانيه فى اخضاعها لمشيئته ، بسبب ما كان يشهده من ثباتها ورباطة جاشها ، واستكانه كلما حاول مفاتحتها

واراء هذا العناد بثات نفسه تثور وتضطرب ، وتجيش فى اعماقه ، حتى حدث الانفجار الثائر حين اقتاد السفينة مراسيها فى ذلك الخليج مساء يوم جميل من ايام اكتوبر ، وكانت جالسة ، فى الغمرة الكبيرة وقد اشتد بها القلق

قال الدون بدرو مفاتحا اياها بالتيا : لقد وصلنا !

وكان شاحبا فى تلك اللحظة قاضبا هائج النفس متقد العينين .

قالت : تعنى انك قد وصلت يا سيدى . لان هذا بالنسبة لى ليس وصولا بل هو مرحلة من مراحل سفرة شاقة مؤلمة اكرهتنى انت عليها اكراها !

فتظاهر بأنه لم يفهم غرضها تماما واجاب بقوله :

ـ هذا صحيح فاننا غدا مواصلون السفر برا ولا يزال

امامنا مراحل نقطعها وان لم تكن طويلة فلن تمضى بضعة ايام حتى نكون فى قصرنا بأوفييدو .

قالت بكل برود ظاهر : ارجو ان لا يكون ذلك !!

وكان اعتمادها حينئذ على القسيس لويس ، اذ على الرغم من انه ليث يومين لا يدنو منها ، كانت لا تزال تثق بما وعدها من حمايته لها ووقايته ولا تشك فى طهارة قلبه وطيبته .

وسمع الدون بدرو كلمتها تلك فقال ساخرا متهكما :

ـ اتقولين انك لا ترجعين ذلك !!

ودنا منها وقد احاله عناده شيطانا هائجا مريدا ، وقلب شعوره فى الحال كراهية ومقتا شديدا .

ولكنه لم يلبث ان هدأ وعاد اليها يقول بلهجة المحب البائس :

ـ ان عنادك هو وحده الذى يقف فى طريقنا ، فانت تابين ان تصغى لى او تستمعى لتوسلاتى الخاشعة ورجائى المتواضع .

فاجابته : انك حقا متواضع يا سيدى ! ومن تواضعك انك تحسب فى امكانك ان تقهر باى امرأة اذا هى اصغت اليك !!

قال : هذا سوء تأويل لمعناى . اصغى الى يامرغريت .

وراح يجثو عند قدميها ، واسترسل :

ـ انى احبك ! وان حبى لكفيل بان يجعل حياتك فى اوج المجد والسعادة والهناء . وليس لك عن هذا مرجع ولا مأب . فقد لبثت معى هنا فى هذه السفينة اسبوعا كاملا فلا غبت عن بالك ما سوف يظن الناس وما قد يفترضون . وهو ما سبيل الى اصلاحه بغير الزواج بى ، فلتقم بشعائره الآن . فان هنا قسيسا يستطيع ان ..

ولكنها لم تدعه يتم كلمته . صاحت به :

– انك تتحدث عن الظنون والافتراضات . ملعنة ايها الرجل انني واثقة انني لن أجد في البشر كلها انسانا واحدا يفترض شيئا كهذا فضلا عن أن أقص عليهم قصتي .

فنهض وقد نادوه الغضب . صاح بها في غيظ محتدم

– لقد كان في وسعي أن أجعل هذه الافتراضات صحيحة أولا ان حبي في صدقه وطهارته وقوته ونقاء طبيعته هو الذي منعني وحال بيني .

فوثبت ناهضة من مجلسها وهي لاهثة الانفاس تسأله ذاهلة :

– اتتجاسر على أن تقول هذا لي أيها الوغد السافل . فاستضحك ساخرا .. وقال :

– الآن الا حاجة بنا الى الكلام يا سيدتي على بيت أن تكون في قصري بأرفيدو حيث تقيمين مختارة أو كارهة . فمن الحكمة أن تقيمي فيه كزوجة وسيتم الزواج قبل أن نغادر هذه السفينة .

وتركها تحترق الباب في اثره بعنف شديد

وتهالكت مرغريت على المقعد الذي كانت قد تركته وهي ترتعش واجفة مضطربة جازعة هلوعا . وذاقت للمرة الأولى التي فقدت فيها ضبط نفسها واستسلمت لدموع الغضب والخوف معا .

وفي تلك الساعة الرهيبة ، وذلك الموقف المخيف ، لم يكن أن مثل امام خاطرها شبح جرفاس . يفقده الرهف ، وضحكه المرح ، وطهارة نفسه النقية ، مثال الرجل المهذب كيف يكون !

وتذكرت كيف انها جرحت خاطره لكي تحمي واجبها باحداثه هذا الانسان وأدبه الزيف ، وزلته المصطنعة

وكيف ان هذه الحماقة منها هي التي جعلت لهذا الرجل الحق في أن يعتقد انه القدير على اسقاطها واقناعها في نفسه اذا شاء ومتى اراد .

لقد لعبت بالنار ، وها هي النار توشك ان تندلع لا لتحرق اديمها فقط وتشوي جلدها لحما ، بل لتأكلها كلا وتلتهمها التهاما !

ووجدت نفسها في تلك اللحظة تنادي جرفاس نداء حقيا فلا تجد الجواب !

يا لله !.. لو انه كان في تلك الساعة حاضرا ، الن تجثو عند قدميه وراحت تتطير بالاعتراف له بما كان من حماقتها وعنادها ، والاقرار له بالحب ، ذلك الحب الوحيد الذي عرفته في حياتها ولن تعرف يوما سواه .

وعند ذلك انتقل بها الخاطر الى القسيس ليس علم نفسه ارأسعادت شجاعتها المتناهية بالاطمئنان الى حمايته فالآن وقد وصلوا الى البر فلن وسعه أن يستعين بآخرين لتنفيذ السلطة المخولة له اذا ما خطر للدون أن يقاوم ويعصي ارادته

ولكنها لم تتبين الحقيقة الا فيما بعد حين كانت في غمرتها تطرق سمعها صوت الدون بدرو وهو يتحدث مع ديكلارك .

وكان يتكلم معه بالفرنسية ويسأل عن القسيس وكيف لم يأت العشاء

وسمعت مرغريت ديكلارك وهو يقول : لقد نزل القسيس الى البر بأمولاي منذ ساعة مع الزمن

فتمتم الدون بأخرى وتذمر ... ولكنه حمد الله لتخلصهم منه

ولم تكد مرغريت تسمع هذا حتى خفق قلبها اشد

الخفقان من فرط السرور والامل المتوثب . اذ ادركت سر انصراف القسيس كما مرحا ان الدون بدرو قد جهل ذلك السر ولم يخامره من ذهاب القسيس اى ارتياب

وقد كان حسابها صحيحا ، فقد ذهب القس فى شئون تتعلق بخلاصها

وفى صباح اليوم التالى نهضت مبكرة من لبل مسهد قطعته بؤرقة بتنازعها الأمل والخوف واوتيت ليابها وخرجت الى سطح السفينة قبل ان يغادر الدون بدرو فراشه على امل أن تقابل القسيس اذا هو عاد مبكرا من مهمته .

وكانت واثقة من انه سيعود مبكرا ، وقد تحقق شعورها لانه فى الواقع عاد مع مطالع الضياء مصطحبا فى زورق عددا من الرجال كلهم متشح بالسواد وقد تسلحوا بالسيوف كما حمل بعضهم الخناجر

ولمح بحارة السفينة الزورق القادم بمن فيه وفى الحال سرى اللغط فى صفوفهم . لانهم ادركوا ان هؤلاء هم رجال ديوان التفتيش او الكلاب الضارية . كما كانوا يسمون فى ذلك الحين . وكان مشهدهم وحده كافيا لقذف الرعب فى النفوس وسريان الهلع الى الأفئدة !

وسمع ديكلاكزك القطان هذا اللغط بين رجاله فارسل غلاما الى الدون بدرو ليبلغه الخبر . فما عتم هذا ان جاء بنفسه متدهشا وان لم يبد على وجهه القلق ، اذ عزا هذه المداورة بعض الاجراءات الرسمية التى تتخذ فى الثغور والموانىء عند وصول السفن اليها ، تنفيذا لبعض القوانين الصادرة من ديوان التفتيش مبالغة فى الحيطة والمراقبة .

وكان الدون بدرو قد وصل الى سطح السفينة فى اللحظة ذاتها التى وصل فيها القسيس لويس الى مدخلها

بعد ان انزل السلم له امتثالا لامره وفى اثره اقبل نحو ستة من الرجال المسلحين فى سوجهم السوداء .

وكانت الاذى مرغريت قد اسرعت لكى تحيى القسيس عند ظهوره فلمحها الدون بدرو فلم يلبث الشك ان خامره وظن أن فى الأمر خيانة مدبرة لافساد خطته ومنعه من تنفيذ مشيئته .

ولم يطل به الشك ، فان اجابة القسيس على تحية مرغريت كانت فى ذاتها جوابا على ذلك السؤال الذى خطر للدون بدرو منذ لحظة . فقد رأى القسيس وهو يرفع يده ويشير بها نحو اولئك الذين احضرهم معه ، كما سمعه وهو يلقى كلاما بالاسبانية اليهم ، وشاهدهم فى الحال قد تقدموا مسرعين بينما تنحى القسيس ليراقب وينظر ، فى حين وقف رجال السفينة فى معزل ينظرون خائفين مرتبكين

واضطربت مرغريت من رؤية هذا المشهد فوقفت عن التقدم وهى تشعر بأن شيئا آخر غير الذى كانت تتوقعه لا بد أن يحدث ، واذا بالدون بدرو قد تقدم خطوة فحال بينها بينهم ، وصاح بهم صيحة اوقفتهم ،

قال : ما هذا ؟ وما شانكم بهذه السيدة ؟!

فأجبرهم احترامهم لمركزه على التريث ، والتفت بعضهم الى القسيس لويس كأنما يطلب تعليمات منه ، واذا به يوجه الخطاب الى الدون بدرو قائلا :

— تنح جانبا ايها الكونت ! ولا تحاول مقاومة ارادة ديوان التفتيش والا عرضت نفسك وعرضت هذه المرأة معك لنقمة الديوان وغضبه ، واعلم ان لا تهمة هنا توجه اليك فى الوقت الحاضر لانك لست الا ضحية سحر هذه المرأة وفتونها .

فحملق الدون بدرو البصر فى وجهه وهو يكاد يتميز

من الغيظ ، رفد حاله واخاوه لصور الخطر الذي احدق بمرغريت اذ سمع كلمة السحر والفتون وتذكر ما كان القسيس يقوله عن التقمص والشياطين ، فتبين له ان ذلك اللعين قد استغل هذا الشجن عليها اسوأ استغلال ، وان العقاب الذي ينتظر مرغريت سوف يكون مرعبا للغاية فتجرع عليها اشد الجرع ، واعماه الغضب عن كل شيء .. وحمله على التهور والمجازفة ، غير ناظر الى النتائج ... فتقدم خطوة في كبرياء وعظمة رافع الراس واضعا يسراه على مقبض سيفه .

والتفت عيناه المتقدتان بعيني القسيس الهادئتين فكشر عن انيابه واهاب به قائلا :

ـ اتراك هذه السفينة في الحال انت وهؤلاء الاوباش الزعانف الذين جئت بهم قبل ان القي بكم جميعا في اليم

فاجابه القسيس بكل هدوء على سبيل النصيحة :

ـ اراك تتكلم يا سيدي في غضب ولكني سانقاضى عما قلته واحب ان احذرك مرة اخرى من توريط نفسك بالدفاع عن هذه المراة الكافرة الساحرة التي جئنا للقبض عليها .. فحاذر يادون بدرو فان ذلك خير لك !

فصاح الدون بدرو وهو هائج متنمر : يا دون دييجو

فتقدم هذا في الحال نحوه وهو شاحب اللون راهش، فالقى الدون بدرو اليه اوامره ، وهي ان يلقوا هو ورجاله بهؤلاء الزعانف الاوغاد في اليم غير مبطئين !

فتردد الدون دييجو وكان رعبه شديدا من مولاه الكونت ولكن رعبه من سلطان الكنيسة كان اشد ، لان هذا السلطان لا يحفل بنبلاء او اشراف او ملوك !

ووقف البحارة كذلك مذعورين لايتقدم احدهم لتنفيذ هذا الامر .

واسرع القسيس الى اصدار الامر الى رجاله بحمل المراة رغم اية مقاومة تعترضهم .

فتقدموا ولكن الدون بدرو اسرع اليها فجعلها خلف ظهره ووقف هو في وجوههم ، وامتلئت مرغريت لهذه الحركة لانها ادركت من عين القسيس وحركته انه لا يقصد بها خيرا .

وفي خطفة البرق ظهر سيف الدون بدرو من غمده وصاح قائلا :

ـ الى الوراء !

غير انهم لم يتمهلوا اكثر من لحظة ريثما امتشقوا هم كذلك سيوفهم وكروا غير حاذين ، وراح الدون بدرو ينادي رجاله اليه فلا يرى منهم احدا يجابه ، وقد وقفوا جميعا منزوين كالانعام فانثنى يسميهم كلابا وارذالا ويصفهم باشنع الصفات

واسند ظهره الى الباب الخشبي حيث وقفت مرغريت ناحية اليمين مضطربة راعشة .

وانقض القوم عليه فطعن احدهم في نحره ، وآخر في بطنه ، قبل ان يتكاثروا عليه فيحملوه الى سطح السركبه ويشمعوا وثاقه ويلقوه على الارض لاحراك به .

وتركوه على هذه الصورة ليعودوا الى المراة الكافرة التي جاءوا في طلبها وكانت واقفة في مكانها مشرئبة العنق متاكنة الاوصال ، عالما منها بانها اذا حاولت اية مقاومة لم تسلم من العنف والاذى

قالت وهي لاتبغي ممانعة :

ـ ما معنى هذا ؟ اهذه هي الحماية التي وعدت بها امراة في شدة ، امراة مسكينة طلبت اليك النجدة وركنت الى عونك وآمنت بمكانتك الدينية ومركزك .. فما معنى هذا

فبدت الرحمه والتأثر فى عينيه ٠

قال : يا اخت ٠٠ ان الشيطان الرجيم قد غواك ،فتعالى معى لاطهرك وأنقى روحك من اثرائها ، يا اخت لا تخافى ولا تحزنى ، فأنا لاأبقى غير انقاء نفسك الضائه وروحك الخاطئه ٠٠

فالتفت مرغريت بصرها على آخر مداه ، فرأت المنازل والمبانى المتناثرة فوق الشاطىء ، كما شهدت القصور البازخه والحصون الشوامخ

انها هى اذن اسبانيا الارض العجيبة ، وسيدة العالم بأسره ٠٠ !؟

وافتادها القوم الى الزورق فى سكون ٠٠

الفصل السابع عشر

ديوان التفتيش

والظاهر ان القسيس لويس كان قد رتب كل شىء مع زبانية ديوان التفتيش فى سانتاتدر قبل أن يعود الى السفينه فى ذلك الصباح مع رجاله اذ لم يكد هؤلاء ينزلون من زورقهم الى الشاطىء حتى وجدوا خيلا ومحفة فى انتظارهم فى حراسه ثلة من رجالهم ٠

وحملت اللادى مرغريت فوق المحفة كما رفع الدون بدرو فوق ظهر جواد بين رجلين من الجماعة وركب القسيس بقيتا اعتل الباقون من شرطة ديوان التفتيش فى ذلك العهد ـ وكانوا يسمون « الجوازل » ـ صهوات الخيل ٠

وابتدأ المسير ٠٠

وكان قد تقرر أن يرسل (الدون بدرو) والرأة المتهمة باستخدام السحر لغوايته الى أوفيدو بالنسبة لانها موطن

الرجل ومنازل أهله ٠

وكانت البلاد الاسبانية جميعا تحت تصرف ديوان التفتيش وقبضه يده ، فكان من السهل على الركب أن يمروا حيثما شاءوا على الطريق مرحلة بعد مرحله ٠

وكان رحيلهم من (سانتاندر) فى الساعه ثانيها التى كان جرفاس فيها ورميله أوبفر تريستيان قد ركبا سفينتهما فى البحر سربا لمطاردة (الدون بدرو) واستخلاص اريسته منه ٠

ولكن الركب كان مسرعا فى مسيره فلم يبت أصيل اليوم التالى حتى وقفت بهم الخيل بباب دار الديوان فى أوفيدو

وكانت هذه الرحلة بالنسبة لمرغريت حلقه أخرى من حلقات حلم مزعج ابتدأ على سطح السفينه قبيل السير ، وقد طالت طول الطريق فى حالة يذهل لا يعقل شيئا سوى أن الدون بدرو قد وقع هو ايضا معها فى شرك مخيف بسبب حداثته وتهوره وغطرسته وغروره ، وانه مهما يكن من هذا الخطر الجديد عليها ، فهو على الاقل قد انقذها من براثنه ، وخلصها من الغرض الذى كان يريده منها !

على ان (اوفيدو) لم تكن خاتمة المسير ٠٠ اذ لم يقض القوم فيها اكثر من ليله واحده ٠ وكان السر فى مواصله المسير والرحيل عن « اوفيدو » هو أن الدون بدرو كان فى تلك الولاية أعظم نبلائها شأنا وأكبر أشرافها سلطانا ، وكان اتخاذ اية اجراءات ضده فى قلب الولاية ذاتها خطوة جريئة قد تؤدى الى نتائج سيئة ٠ لا سيما وان (الدون دى كيروجا) اسقف طليطلة ، واحد زعماء ديوان التفتيش كان خاله ، وان خير ما يلجأ اليه فى هذا الشأن هو ارساله الى طليطلة نفسها لمحاكمته فيها اذا رأى خاله وجوب محاكمته ٠٠ حتى لا يستهدف أحد لغضب الاسقف ، او يأتى أمرا يؤاخذ عليه ٠

واستعرضت الرحلة أسبوعا كاملا .

وكان الأمل الوحيد الذى يحيا فى نفس مرغريت متعلقا بجنسيتها الانكليزية ، اذ خطر لها انه فى وسعها أن تلجأ فى طليطلة الى السفير الانكليزى ، أو ترفع شكواها فى حالة غيابه من طريق السفير الفرنسى ؛ وهذا الأمل الوحيد هو الذى جعلها تتحمل الألم وتصبر على الهم والعذاب الشديد وهى محمولة الى ذلك البلد البعيد .

وعند وصول القوم الى طليطلة وضع السجينان فى سجن الديوان - أى سجن محكمة التفتيش - وهو بناء مستطيل مكون من طبقتين فى شارع ضيق .. وقد بنى على الطراز العربى بسبب النفوذ الذى كان للعرب فى تلك المدينة .

وما لبثت مرغريت أن وجدت نفسها ملقاة فى حصن مظلم لا يحوى غير فراش من القش ومنضدة خشبية وكرسيين فقضت ليلتها فى سهاد شديد وحزن أليم .

وفى صباح اليوم التالى دخل عليها رجلان من حراس السجن فاقتاداها الى غرفة صغيرة على يمين الردهة الطويلة فى الدور الأرضى ذات نوافذ تطل على الحديقة ، ولكن هذه النوافذ عالية يدخل منها الضياء والهواء وان لم تتمكن العين من رؤية الخارج .

وفى هذه الغرفة كانت المحكمة الدينية منعقدة لاستجوابها والتحقيق فى تهمتها ، فلما دخلت رأت حيالها منضدة مستطيلة قد جلس عليها ثلاثة أشباح فى ثيابهم المعروفة ، وهم رئيس المحكمة القسيس جوان أرنزيلو والعضوان اللذان يؤلفان معه هيئة المحكمة ، وفى ناحية من المنضدة الطويلة جلس الكاتب وعن شماله جلس القس لويس صالسيدوا ، وقد سمح له بالجلوس فى مكانه هذا لمعرفته بلغة المتهمة وباعتبار أن حضوره فى مصلحة المتهمة نفسها كما هو فى مصلحة المحكمة

التى تتولى محاكمتها .

ولما دخلت مرغريت تمشى بين حارسيها .. كانت تلوح رافعة الرأس متكبرة الى حد الخيلاء والصلف تمشى بخطوات ثابتة ، مقطبة الجبين فى استياء يخالطه وعيد ، وأنفة يمازجها تحد ظاهر .

وكان جمالها ذاته ، ذلك الجمال الرائع الذى يأخذ باللب عاملا من العوامل التى ازعجت أولئك القضاة ، وكانت لا تزال مرتدية ذلك الثوب الذى يكشف عن نحرها الناصع ، كما لاح قديما الاهيف ، وخصرها الناحل ، يزيدها جمالا وفتونا

وكانت شاحبة اللون ؛ ذلك الشحوب الذى يكسب الوجه مسحة من النقاء ويجعله فى جلال العذرة والطهر كما كان فمها يبدى شدة عزمها وقوة ارادتها وفى عينيها برق نظرات ثابتة صاحية هادئة ، ذلك الثبات أو الهدوء المستمد من نقاء الضمير وصمو الوجدان وروعة الكبرياء .

وتأملها القضاة فى صمت لحظة وهى تتقدم الى حرم المحكمة ، وهذا بهم مطرقو الرؤوس ، كأنما جعلتهم مهابتها وسكينتها وجمالها وعالة الطهر المحيط بها وهى تمشى فى محيط من نور يرعشون بخافة أن يستضعفوا أمام هذا الجمال الحسى البادى أمام أبصارهم ويتراخوا فى تأدية الواجب الملقى على كواهلهم .

غير أن القس لويس هو الذى لبث وحده ينظر اليها وفى عينيه برق الدهشة والعجب ، وكان يعجب فى خاطره كيف أن ابليس اللعين يأبى الا أن يحيط عباده فيما يخدع الأعين ويغوى القلوب .

ووقفت مرغريت أمام المنصة ، وتمتم الرئيس جوان بكلمات قلائل من الاسبانية ، فلم يكد يسمعها الحارسان حتى تقدم احدهما فأشار اليها أن تجلس فوق المقعد القائم لزاء حرم

المحكمة ، تجلست بكل هدوء ووضعت يديها في حجرها وانتظرت ما سيكون .

وانسحب الحارسان باشارة من الرئيس ، وقبل هذا على المنصة قليلا وعاد يتأملها في سكون ، وكان الضياء قد نفذ في تلك اللحظة من تلك النوافذ العالية فكشف عن وجهه فاذا هو بلدوح ناحلا مصفرا ذا عينين رهيبتين وفم حساس بل كان وجهه يبدو رقيقا زجيجا ، يكسبه السكينة والاطمئنان

وحين بدأ يتكلم كان صوته منخفضا عندما تسكن الاذن اليه

وخاطبها الرئيس بالانكليزية وكان يتلعثم بها

بدأ يسأل الاسئلة المألوفة . عن اسمها وسنها الخ ... ثم قال :

ـ المعلومات المقدمة الينا تفيد بأنك لسوء الحظ تعتنقين المذهب البروتستانتي الخارج على الدين . فهل تعترفين بذلك ؟

فابتسمت قليلا وراوا ذلك منها قبيحا ، لانه لم تجر العادة من قبل أن يبتسم متهم في ذلك الموقف . وبخاصة حين توجه اليه تهمة خطيرة كهذه ؟

وأجابت قائلة : سواء اعترفت أو لم اعترف . فان هذا الامر يا سيدي يلوح لي أنه ليس من شأنك .

وهزت لحظة قبل أن ينتبه الرئيس من ذهوله وشرقة خاطره وراح يخاطبها بكل رفق :

ـ بل من شأننا . لاننا نعمل على المحافظة على ملتنا من الزيغ والقضاء على كل ما من شأنه تعريضها للخطر .

قالت : بحرية ضميرك أسبانيا . ولكني لم آت أسبانيا باختياري ولا بارادتي وانما حملت اليها حملا فاذا كنت الآن هنا فما ذلك الا نتيجة اعتداء صارخ أصابني من سيد من سادات أسبانيا الشرفاء .. فكل ما يخصني من القوانين الاسبانية

اذا طبقت بعدالة وانصاف . هو اصلاح ما وقع لي . ورد الظلم عني وتمكيني من العودة الى بلادي . ولست اعتبر نفسي الا مجنيا عليها ومدعية تطلب العدالة .

وترجم الرئيس كلماتها الى زميليه عضوي المحكمة فبدت علامات الدهشة على صحنتهما . وساد السكون لحظة واذا بالقسيس لويس يقول :

ـ ليت شعري هل يحتاج الامر الى شيء أكثر من هذا التصريح لثبوت التهمة عليها ؟ ألا ترون كيف تتكلم وتحاج وتناقش ببراعة شيطانية كأنها محام متدرب خبير بالقانون . فهل أنتم في شك من أين استمدت قوتها هذه ومن أين أتتها هذه الحجج الغريبة ؟

فأشار الرئيس اليه بالتزام الصمت قائلا :

ـ أنت هنا يا قس لويس بصفة شاهد فقط ولست محاميا ضد المتهمة أو لها . الا حين تسألك المحكمة .

فأحنى القس رأسه ممتثلا ازاء هذا التأنيب الخفيف واتجه الرئيس الى المتهمة مستطردا :

ـ ليس ذلك من اختصاصنا ابنتي الاخت فان هذه المحكمة المقدسة هي فوق ذلك سلطة واعتبارا . لان اختصاصها هو النظر في الخطايا التي يقترفها الانسان في حق الرب ، ومن ثم فان اجراءات القوانين العادية لا محل لها هنا ولا اعتبار . فانما نحن أوضاعنا وطرائقنا ونحن نسترشد بهداية الرب فيما نحكم به ويكسب رضاه .

وتمهل قليلا ثم أردف بصوت رقيق متلطف :

ـ أقول لك هذا ابنتي الاخت حتى تقطعي كل رجاء في محاولة الاحتماء بأي شيء قد لا تكون لمصلحة بقضيتك الا عرضا فقط أو بسبب الظروف .

ولكن هذا الكلام لم يخف المتهمة . وانما اشتد تقطبها

وقالت :

– مهما يكن من قلة مبالاتكم بالاوضاع .. ومهما تكن التهم التي توجهونها الي ، فان هناك على كل حال نظاما معينا للاجراءات ، وهذا النظام يقضي أولا وقبل كل شيء بأن تسمعوا مني الدعوى التي أريد أن أقدمها بالنظر الى أن الاعتداء الذي وقع علي ، حدث قبل موضوع التهمة التي يمكن أن توجه الى فاذا ما سمعتم دعواي ، ولكم أن تسألوا في أمرصحتها القسيس لويس كشاهد اثبات ، واذاماحققتم علامتي ورقمتم الضيم عني وعاقبتم الجاني على اساءته ، وجدتم أن كل التهام يوجه نحوي قد أصبح لا محل له ولا قيمة ولا اعتبار ، فان كل ما اتهمه من هذا الاجراء الذي اتخذتموه ضدي هو أن ذنبي عندكم أنني في اسبانيا وأنا أدين بالمذهب البروتستانتي ، وأنا أكرر ما قلته لكم وهو انني ما جئت الى هذه البلاد بمحض اختياري ، وأن رفع الظلم عني هو في ذاته نقل منها حتى لا ألوث بدنسي تربتها الطاهرة .

فعبس الرئيس وهز رأسه قليلا وقال بلهجة العتاب والاسف :

– أراك تتهكمين أيتها الاخت ؟

قالت : قد لايظهرالحق أحيانا الامن طريق التهكم .. انكم أيها السادة تضيقون وقتكم وتسيئون استخدام سلطتكم ، لانكم تسمون أنني لست من رعايا ملك اسبانيا ولست في حدود أملاكه باختياري .. وليس لانجلترا سفير في الوقت الحاضر بعاصمة اسبانيا .. ولكن سفير فرنسا قد ينوب عنه في قضيتي وأنا أحب أن ألجأ اليه وأرجو حمايته .. ولا أحاكم تتكرون على هذا الحق ؟

فأجاب الرئيس بقوله

– امنائي يا أخت حماية الرب .. فانها الحماية الوحيدة

التي تعني هنا .

وكان القسيس جوان فيدا يناظر ويسأم ويتململ في مقاعد صفوفه على هذه المخلوقة الضئيلة التي لا تزال تتعلق بحجج واهية في سبيل الخلاص من الشرك المخيف الذي وقعت فيه .

ومال على زميليه ليشاورهما في الامر .. ثم اقبل هو بعد هذا على المتهمة فقال موجها الخطاب اليها :

– نعن رأينا لكي نختصر هذه المحاجة العميقة أن نأخذ باقوالك واعترافك .. من انك تدينين بالمذهب اللوثري – البروتستانتي – أو الخوارج – ونحن في هذا انما ننظر نظرة رحيمة لانك انما وقعت في خطيئة ترجع الى نشأتك وتربيتك .. ولكن اذا أنت أردت منا الرحمة التي لا نضن عليك بها وجب عليك أن تدلي الينا باعتراف تام صريح كامل عن كل المعاصي والخطايا التي أنت متهمة بها .

وعمت مرغريت بأن تناظره لولا أن رأت يده ترتفع مشيرة لها بالسكوت .

واستطرد هو قائلا :

– أما الحجة التي تتذرعين بها وهي انك لست موجودة في اسبانيا بمحض اختيارك فالجواب القاطع عليها انك فيها نتيجة التصرفات التي أنت متهمة بها ومن ثم فالمسئولية عن وجودك في هذه البلاد واقعة عليك كما لو كنت قد جئت اليها باختيارك .

فثار هذا المنطق سخريتها واشمئزازها وقالت

– لقد سمعت أبي يقول انه ليس هناك شيء يشوه الحقائق اشنع من هذه المغالطة . والآن قد أدركت صواب ما قاله .

ولكنه تجاهل كلماتها ومضى في سرد تهمتها :

ـ انك متهمة باستخدام فاتين السحر في اغواء الدون بدرو دي منتوسا حتى اضللته واخرجته من دينه وكان الصادق الايمان النفي العنيد كما جعلته يدنس شرفه ويمضي ربه باعتزامه الزواج بكافرة مارقة من دين الله . وانت متهمة ايضا بالتجديف وهو منتظر من امرأة تشتغل في سبيل الاباحة فهل تعترفين بخطيئتك ؟

فصاحت مرغريت قائلة : اتسألني أن أعترف . أتريد مني أن أقر بانني اشتغل بالسحر . رباه ! يخيل لي أنني في مستشفى المجاذيب ؟

فهز الرئيس كتفيه كأنه لم يسمع شيئا واسترسل :

ـ فاذا صحت هذه التهمة سقطت دعواك بانك هنا لانك شريفا اسبانيا اعتدي عليك، وسقطت أيضا مطالبتك بالالتجاء الى المحاكم المدنية عن طريق سفير فرنسا او غيره لانه قبل ان تسمع اية محكمة دعواك ضد الدون بدرو دي منتوسا يجب بالضرورة ان تثبتي براءتك من التهمة الموجهة اليك .

فاجابته على الفور قائلة وقد استعادت هدوءها وتمالكت ارادتها :

ـ وهذا ليس بشاق علي ولا عسير . على شرط ان يكون في اسبانيا عقول تفهم والباب تعي . أولا دعني اسالكم من هو صاحب هذه التهمة الموجهة ضدي ؟ هل هو الدون بدرو ؟

ولم يجب الرئيس حتى استشار زميليه والقسيس لويس كذلك ، ثم استطرد :

ـ اعلمي أن الدون بدرو ليس هو الذي يدعي عليك هذه الدعوى وانما التهمة تستند الى شهادة رجل يحق له بخبرته وعلمه أن يستخلص منها ما يستحق استخلاصه .

وتمهل لحظة . ثم استطرد :

ـ ولم تجر العادة في هذه المحكمة قبل الآن بمكاشفة المتهم باسماء الذين ابلغوا عن جنايته ولكنا لا نسامح في الانحراف عن هذه المرة عن هذه القاعدة حتى لا تتشعرى باننا لا نريد ان نوفيك القسط الذي تستحقين من العدالة ، ان الشاهد او المبلغ هو القسيس لويس سالسيدو !

فلم تكد تسمع ذلك حتى دارت برأسها الجميل نحو القس ولم يتراجع القسيس حيال نظرتها الساخرة الهازئة المحتقرة وانما برقت عيناه بريق الاصرار والعناد .

والتفتت الى قضاتها تقول :

ـ لقد كنت في وقت ما قد لجأت الى هذا القسيس اطلب حمايته . وذلك حين ادركت أنني وقعت في خطر شديد هو شر ما يهدد امرأة فاضلة بالسوء وشناعة المصير . افهو اذن الذي يشهد بانني استخدم السحر ؟!

فتبادلت المحكمة الرأي ، ومد عضو اليسار يده الى الكاتب فتناول منه ورقة فنظر فيها لحظة ثم دفع بها الى الرئيس فقال هذا :

ـ وسنسمعك فحوى هذا الاتهام بحذافيره . حتى تتأكدي اننا نبذل لك كل الرعاية والصبر ونأخذ في امرك بمنتهى العدالة .

وراح يقرأ ما في الورقة .

ولشد ما كانت دهشة مرغريت اذ علمت أن هذا القسيس كان يسترق السمع عليها هي والدون في احاديثهما وتجاذبهما الكلام في القمرة ، وكان يدون لديه كل كلمة تبلغ اذنه .

وتلا ذلك بيان طويل مفصل عن المحاولات التي حاولها القس لتحويلها عن مذهبها وهدايتها من ضلالها ، وكيف انها

كانت تفسر الآيات على هواها وتشوه معانيها وتعدلها لأغراضها
على الشيطان الرجيم والعياذ بالله .

ومن ذلك عرف مصدر الوحي الذي ينزل عليها . وهي
ابليس اللعين ووسواسه وادرك سر وقوع الدون بدرو في
حبائلها واستسلامه لفتنتها واعترافه بنفسه في احاديثه لتلك
المرأة بأنه في حبه لها مدفوع ضد ارادته بقوة خارجة عنه ،
قوة مجهولة لا يستطيع لها مقاومة ولا عصيانا .

وانتهى القس لويس من مذكرته بالسؤال عما عسى ان
تكون تلك القوة المجهولة الغلابة التي يشير الدون بدرو اليها
غير قوة الوسواس الخناس ابليس الذي استخدم تلك المرأة
لتنفيذ غايته وعادا يمكن أن يكون من نتيجة ذلك غير شيوع
الزندقة والكفر في اسبانيا بسبب زواج الدون بدرو بتلك
الساحرة !

ووقف الرئيس عن التلاوة والقى الصفحة الاخيرة من
الاوراق أمامه وراح ينظر بعينيه الرحيمتين الى وجه المتهمة وهو
يقول :

ـ الآن عرفت التهمة ، والمتهم . فهل تنكرين شيئا مما
جاء في هذه الاوراق التي تليت عليك ؟

وكانت ساكنة شاحبة قد فارق عينيها بريق التحدي
وزال ظل الابتسام الذي كان يبدو على شفتيها . وبدأت تشعر
بالحبائل التي امتدت حولها لايقاعها في الفخ ، حبائل التعصب
والخرافة والنعرة الدينية ولكنها مع ذلك استجمعت آخر قواها
لتدافع عن نفسها فقالت بكل ثبات :

ـ لست أنكر شيئا مما ورد من الوقائع في هذه
الاوراق فقد دونت بدقة تامة ، وهي صحيحة بقدر ما في
الاستطاعة منها من كذب وبهتان وتخريف عجيب .

وترجم القس لويس عبارتها ودون الكاتب جوابها
وابتدأ القس الرئيس يستجوبها قائلا :

ـ ما هي تلك القوة التي كان الدون بدرو يشير اليها
في عبارته تلك التي وجهها في حديثه ، اذا لم تكن هي القوة
التي فسرت بهذا التفسير ؟

فصاحت به قائلة :

ـ من اين لي علم ذلك ؟

واعار الالم صوتها قوة تاثير ورهبة نغم ورنين اليم .

ولكن الرئيس ظل هادئا يظهر صبرا طويلا كصبر
القديسين ، وحلما ليس كمثله في حلم الحلماء .. واستطرد

ـ والا كيف تفسر خروج الدون بدرو على مقتضيات
الشرف والتمسك بالدين الا اذا كان قد جن وفقد عقله ولبه
واستمع الى هواه .

فأجابته قائلة :

ـ هذا هو التفسير الوحيد بالفعل الذي يمكن استخلاصه
من سلوكه و..

غير أن الرئيس قاطعها برفق وهو يبتسم ابتسامة ماكرة .
قال :

ـ أنت مريبة في التقاط الحجج ولكن هذا كله تضييع
للوقت أيتها الأخت . ونحن قضاتك لا نتردد في مساعدتك
على تبرئة نفسك ، فاذا ما اردت أن تجعل شقيقتنا عليك
منتجة ولتستخدمها كواجب يقضي علينا بانقاذ نفسك من
الضلال ، وجب عليك أيتها الاخت أن تعاوننا على تأدية هذا
الواجب .. وذلك بأن تعترفي لنا اعترافا كاملا صريحا بالتهمة

الموجهة اليك ·

فصرخت قائلة : اعترف .. ! اعترف يسادا ؟ · هل اعترف بهذا الكلام الفارغ .. وهذه الاستنتاجات الجنونية ؟·

واستضحكت عابثة مستهزئة واستأنفت :

ـ هل اعترف بأن اللادى مرغريت تريفانيان تشتغل بفنون السحر ؟· رحماك يا الهى ·! ولكنكم يا هؤلاء تحتاجون الى بينات أكثر من هذه وبراهين لاثبات تهمة غريبة كهذه التى توجهونها الى ·!

وهنا التفت نحوها عضو اليمين فقال طالبا من القس لويس أن ينقل اليها كلماته :

ـ ان البينات الاخرى التى نحتاج اليها لادانتك ننتظرها منك أيضا · فندعوك لرجو اليك أن تدلى الينا حتى يمكننا أن ننقذ روحك من نار جهنم تصلينها أبدا · أما اذا لم يكن التكفير والندامة الصادقة يكفيان لحملك على الاعتراف · فان عند ديوان التفتيش وسائل تجعل أشد الناس اصرارا على الكتمان يعترف بالحقيقة ·!

وسمعت مرغريت هذه الكلمات التى نقلها اليها القس لويس فشعرت بقشعريرة · وسرت فى أوصالها رجفة رعب شديد · وظلت تتطلع الى هؤلاء القضاة الثلاثة الجالسين حيالها وهى شاردة النظر مضعضعة الحواس ·

ورأت الرئيس يرفع يده باشارة الانصراف .. فأحست يدا تمس كتفها .. واذا هى يد أحد الحراس .. فأدركت أن الجلسة قد انتهت ، فنهضت متثاقلة وهى تشعر بالخوف أخيرا وقد استولى عليها وحطم قواها ، فتركت نفسها تقاد بين حراسها الى السجن الموحش الرطب الاليم ·

الفصل الثامن عشر
الحكم

وتركت مرغريت يومين كاملين لتفكر فى أمرها فى تلك الوحشة الاليمة فى السجن · وكان القوم قد تركوها هكذا فى محبسها على أمل أن يحملها الوعيد الذى توعدوها به على التسليم وترك العناد ·

ولكن تفكيرها مع ذلك اتجه اتجاها آخر عكس ما كانوا يؤملون وقد اظهرت هذا الاتجاه أمام قضاتها حين استدعيت الى الجلسة التالية ·

وقد حدث تغيير طفيف فى هيئة المحكمة .. وذلك أن عضو اليمين استبدل بآخر يفهم الانكليزية ويتكلم بها · ولكنه مخيب السحنة تدل ملامح وجهه على القسوة المتناهية، كما استبدل كاتب الجلسة برجل سواء يعرف لغة المتهمة حق المعرفة ، وقد حضر القس لويس هذه الجلسة أيضا ·

وابتدأ الرئيس من حيث انتهى فى الجلسة الاولى فعاد يرجو الى المتهمة أن تساعد المحكمة على استعمال الحلم معها بأن تدلى باعتراف كامل صريح ·

واذا كانت مرغريت قد استسلمت للخوف والحزن من ناحية فقد قواها وشد من روحها الغضب والتأثر بذلك الاكتشاف الذى كانت تعتقد أن تفكيرها فى السجن خلال اليومين الماضيين قد ساقها اليه ·

قالت : ألبس أجدر بكم وأنتم تظهرون حرصكم على الحق أن تسمحوا للحقيقة بأن ترفع رأسها ؟·

قال الرئيس بلهفة : الحق ؟· وأى حق تعلنين ؟·

قالت ما دمت قد سألتنى فانى محدثتك : ان الدون بدرو دى مندوسا أولونا عظيم من عظماء اسبانيا ·· ولكن

تصرفاته كانت تصرفات وعد اليم نفع تحت طائلة العقاب في المحاكم المدنية .. فضلا عن انه اقترف جناية في حق الدين .. وهي التجديف والوعيد لأحد رجاله .. وسفك دم آخرين من عمال وشرطة .. وهذه كلها اعتداءات يمكن أن يحاكم عليها في محاكم تفتيشكم . ولكن نظرا الى أنه رجل عظيم وكبير النفوذ ومن المشقة والصعوبة العمل على عقابه لم تجدوا بدا من البحث عن وسيلة لنقل التبعة واللائمة الى سواه . أي الى من يكون كبش الفداء عنه . ومن هنا اخترعتم فكرة انه لم يكن مسئولا عما فعل لأنه كان مسحورا وتحت تأثير امرأة الكليزية كافرة تشتغل بالسحر فهي التي أفسدته في هذه الدنيا وستكون السبب في حرمانه من نعيم الآخرة !.

وليس عندي ما اقوله أكثر من هذا الذي قلته سوى أن هذا التصرف الذي تتصرفونه نحوي مؤلم قاس شنيع لا يليق . واذا أصررتم عليه فسوف تحاسبون عليه ان عاجلا أو آجلا فان الله لن يترك هذا الفعل المنكر بغير عقاب .

وتمهل الرئيس جوان حتى كف الكاتب عن الكتابة ونظر اليها مليا بعينيه الرحيمتين ثم قال :

ـ اننا نذكر هذا الذي نصفين بكل قوانا . اذ ليس في خاطرنا أن نعفي من العقاب أي انسان مهما عظم شأنه وعلا قدره اذا ما أذنب يوما في حق الله ونحن فوق هذا الاتهام . بل نحن نؤثر أن نذهب الى النار بأنفسنا على أن نخل بواجباتنا المقدسة فتفكر يهذا أيتها الأخت وعودي الى مجلسك لكي نعيدي التفكير في أمرك وأدعو الله أن يلهمك الصواب اذ يلوح لنا أنك لا تزالين في حالة نفسية لا تساعدنا على الاستمرار على محاولتنا في مصلحتك ورحمة بك .

ولكنها لم تشأ الانصراف . بل طلبت أن تسمع أقوالها

في الدفاع عن نفسها

فقال الرئيس جوان مندهشا : ماذا يمكن أن تقولي أيتها الأخت لزاء الحقائق والوقائع الثابتة ضدك . لست أرى خيرا في استمرار الجلسة اليوم .

ولكنه مع ذلك أشار بيده الى أحد الحراس أن يقف وكان قد تقدم ليأخذها الى السجن .

وأنشأت هي تقول : ليس ما تستندون اليه حقائق ولا وقائع . ولكن مجرد استنتاجات وتخريجات ما أنزل الله بها من سلطان . فليس لي وسع أحد أن يثبت علي تهمة السحر التي اصطنعتموها ضدي . ولو بالشهادة على أنني رؤيت يوما أمعم بتعاويذ . أو أطلق بخورا أو غير ذلك . وانما كل ما فعلتم هو التسامح والتغاضي عن تصرفات شخص ما بسبب نفوذه وسمو مركزه في المجتمع . والاكتفاء بادانتي لتبرئته .

وكان الرئيس جوان قد تأثر لها . وكاد يميل الى جانبها . لولا انه لم يلبث أن قال لنفسه أن الظواهر كثيرا ما تخدع وأن الشيطان قد يتخذ سمات الطهر أحيانا تحقيقا لغاياته ومقاصده .

على أنه ترك لها سبيل الكلام . لان اجراءات المحكمة تقضي بأن يترك للمتهم مجال القول واسعا لعله اذا تكلم كشف عن نفسه وهو لا يدري .

ولذلك استأنفت قائلة :

ـ واذا صح أنني استخدمت فنون السحر لحمل الدون جدرو على الزواج بي واعتناق مذهبي الذي تروته كفرا وزندقة . فلماذا لم أحجزه في انجلترا وأنفذ كل مقاصدي آمنة من كل خطر أو سوء .

فبادرها عضو اليمين بالجواب قائلا :

– لا شك في أن رغبتك كانت متصرفة الى مشاركة الدون بدرو في ثرائه ومركزه ومجده وسلطانه . ولكن اذا علم هنا في اسبانيا أنه بقي في انجلترا بسبب الزواج بكافرة فان أملاكه جميعا تصبح في خطر من المصادر كما يصبح هو نفسه معرضا للحكم عليه بالاحراق في النار .

وابتسم الرجل كمن أعجبه الرأي البديع الذي رآه .

والتفت اليها الرئيس قائلا : هاك الجواب !

فارتد وجهها شاحبا من الذعر والالم . وصاحت به قائلة :

– اتسمي هذا الكلام الفارغ جوابا ؟

وكانت تلك صرخة يائس . غير أنها ما لبثت أن تمالكت نفسها فعادت تقول :

– حسنا جدا . دعونا اذن نفحص في ناحية أخرى هذه الحبالة التي تريدون أن تصطادوها حولي . هل تسمحون لي باستجواب المبلغ ؟

فنظر الرئيس اليها نظرة عطف حائر . ثم التفت الى القس لويس ليستمد لاستلتها

قالت : اذا كان كل ماذكره القس لويس يثبت أن الدون بدرو وقع تحت تأثير السحر كما يدعي – لاني لاأعرف شيئا كهذا – فكيف يمكن أن يكون هذا اثباتا على بأنني أنا التي سحرته ؟

قال : يا عجبا ! اتسألينني كيف ؟

وراح ينظر اليها مليا . ثم التفت الى المحكمة لانه لم يستطع أن يتحمل نظرات عينيها المتحديتين .. قال :

– لم أقم اتهامي لهذه المرأة على أساس هذا الذي قلته

فقط عن السحر والفتنة الشيطانية ولكني أذكر المحكمة الموقرة بما شرحته في مذاكراتي ولقد كتمت عنكم شيئا آخر لم أجرؤ على الاعتراف به في تلك الاوراق ولكني أعترف به الآن واستميح المحكمة المقدسة الرحمة والصفح . انى أعترف أمامكم بأنه كانت تمر بي لحظات أشعر فيها بأنني موشك على الوقوع في خطر سحرها الجهنمي . كنت أنا فيها قد بدأت أشك في حقائق الدين والكتاب المقدس بسبب تفسيراتها المضللة وتأويلها الغريب . عندئذ أدركت أنها في خدمة ابليس اللعين . فقد كانت تهزأ بي ومن كلماتي واستشهادي بآيات الله وكلامه وتضحك ضحكات السخرية والعبث والاستهزاء .

وتحسس القس لويس والتهبت مشاعره وفاض فيضه الخطابي حتى ملك أسماع المحكمة وأثر في نفوس سامعيه .

ثم جلس وقد أخذ رأسه بيديه وهو يرعش من فرعه الى قدمه وقد خذلته شجاعته في اللحظة الأخيرة فلم يجسر على أن يضيف الى ما صاوح المحكمة به ان البرهان الاخير القاطع على مكرها وسحرها هو ذلك التأثير الرهيب الذي غمرته به وهاجته من ناحيتها في معقل عفافه وطهارة احساسه ونقاء جوارحه .

لم يجسر على أن يعترف أمامهم كيف كان لحرها الناضح وصدرها الناهد وجسدها الامثل يتمثل له في خياله ويبدو له في خلوته الى نفسه حتى لقد كاد ينتحى عن واجبه نحو دينه ويمتنع عند وصول السفينة بهم الى سانتاندر عن تبليغ أمرها الى ديوان التفتيش . وكيف كان يوشك أن يلقى بالقلم جانبا فلا يكتب مذكراته . مخافة على جمالها الفاتن وجسدها البديع وحسنها الساحر الاخاذ بمجامع القلوب من عذاب الحريق الذي يجب . عدالة وانصافا . أن يشوى به شيا .

وسمع صوت الرئيس وهو يسألها برفق عما اذا كان ذلك الجواب قد اقنعها ؟ .. كما سمع صوتها وهي تقول :

- لم تسمع غير كلمات لا معنى لها ولا يمكن ان تقوم برهانا يصح الاخذ به . هو يقول انني كنت الناقشه بمكر وخبث في امور تتعلق بالدين . وأنا أقول ان مناقشتي له كانت بناء على ما تعلمته من المحيط الذي عشت فيه فهل يدل هذا على السحر؟ لو كان الامر كذلك لكانت كل امرأة بروتستانتية اذن ساحرة!

وعند ذلك لم يستأنف الرئيس الاسئلة بل أعلن وقف الجلسة وامر برد المتهمة الى السجن .

ولكن لم يكد الحراس يستأنفون حتى التفت الى القس لويس فالحنى عليه بالاستجواب على سبيل ازاحة همومه وظل يطيل في مناقشته ومحاسبته حتى ان عضو البيمن صاح قائلا :

- ان المبالغ بالتهمة قد اصبح نفسه متهما !

فتلقى القس جوان هذا الاحتجاج عابسا متجهما لزميله معترضا له بقوله :

- ليس استجوابي له قانونيا فقط بل أمرا مستحسنا ومرغوبا فيه . ومناقشة البالغ في هذه القضية على الخصوص واجبة لانه لا توجد بينة غير شهادته هو ومحض اقواله .

فأجاب عضو البيمن قائلا : ولكن هناك شهادة الوقائع . شهادة العبارات التي فاه بها الدون بدرو والتي اعترضت المرأة نفسها بانه حقيقة قاله بها وحقيقة ما ذكره القس لويس عنها في مذكراته وتقاريره . فاذا كان حضرة الرئيس يريد ان يريح خاطره اذا يحسن ان يحاليها في الحال الى غرفة الاستجواب !

ولم يكد القس لويس يسمع بهذا الاقتراح حتى تحمس صائحا :

- نعم . غرفة الاستجواب ! لندع التعذيب ينتزع الحقيقة من هذا العناد الشرير الذي تجبر عليه . وبهذا نستخلص التوكيد الذي يساعد على اصدار الحكم .

ولكن القس جوان تجهم وعبس ونظر الى عضو البيمن محتسبا وهو يقول : أتقول لكي اريح خاطري ؟ اعلم انا جالس هنا في مقعد الحكم ومركز القضاء لكي اريح خاطري ؟ وماقيمة راحة خاطري او قلقه بالنسبة لخدمة ديني وتأدية واجبي نحو ملتي وربي ؟ نحن سوف نصل الى الحقيقة في النهاية مهما تعبنا واجهدنا انفسنا في سبيل استخلاصها ولكننا سوف نستخلصها لحق الله ومرضاته وابتغاء وجهه لا لراحة بالنا او بال انسان في هذا الوجود .

ونهض من مجلسه منصتا تاركا عضو البيمن مستغربا مرتبكا لا يجد جوابا وهم القس لويس بأن يتكلم . لولا ان اشار اليه الرئيس قائلا له على سبيل التذكير انه ليس عضوا في هيئة المحكمة فلا حق له في الكلام ما لم يؤذن له به .

وفي خلال السكون الذي تلا تلك المشادة تناول الرئيس الاوراق والملفات التي كان الكاتب بهيئها مقرأها بامعان وقال لخصيا :

- لترسل صور منها الى المفتش العام في هذا المساء باية لطلبه .

وكان اهتمام المفتش العام في ولاية « كاستيل لشبونة » وهو الكاردينال حاسبار دي كيروجا رئيس اساقفة طليطلة بهذه القضية بالذات راجعا الى ان الدون بدرو كان كما ذكرنا من قبل ابن اخته وكان عزيزا عليه . وهذا هو السر في ان رجال التفتيش في اراغون خشوا من النظر في قضية الدون بدرو وأحالوها على طليطلة حتى تكون تحت عين المفتش العام .

وقد شغلت هذه القضية خاطر الكردينال وازعجته اذ مهما كان هناك من السلطة والنفوذ ، ومهما كان في الوسع تجميل منهم أخر جريرة التهمة ، فالواقع ان الدون بدرو ابن اخته قد ارتكب جناية خطيرة ، ومن المرجح ان يقال انه انما

اوتكيها فطمئنا الى نفوذه ، معتمدا على سلطان خاله واذا شيء كهذا لا مفر من أن يناله العقاب ، وقد وقعت من قبل حوادث لم تتورع محاكم التفتيش فيها عن اصدار احكامها ضد الامراء والاشراف .

ولم يكن سنوك الدون بدرو وهو في سجن طليطلة يساعد على تخفيف مهمة الكردينال فقد كان يقابل التهمة الموجهة اليه بمنتهى الاحتقار وضحكات السخرية المزيجة بالغضب ، ويصر على القول بان المحكمة بسبب مركزه وقرابته للمفتش العام تحاول تبرئته باختراع قصة السحر ، مع أن اللادي مرغريت لم تستخدم ضده سحرا اللهم الا سحر جمالها وفتنتها ، فاذا صح أن هذه المحاسن هي من فنون السحر وأعماله جاز ارسال كافة المليحات في العالم الى المحرقة لانهم من بعض النواحي ساحرات ..

فكانت المحكمة أمام اصراره على هذا الكلام الذي يكفي لاثبات ادانته تحاول أن تفهمه ان هذا المسلك مضر به . باعتبار ان كلامه على هذه الصورة ومسلكها بهذا الشكل يدلان على أنه لا يزال واقعا تحت سحر تلك المرأة الكافرة وان سحرها لا يزال متمشيا في نفسه واعصابه ، ولكن هذا التخريج الذي كان يراد به انقاذه يثير غضبه ، فكان يسمي القضاة بلهاء مغفلين وحميرا في الجهل وبغالا في العناد ، بل لم يتردد في أن يقول لهم مرة انهم هم الذين ركبتهم الشياطين واستولت على نفوسهم الابالسة ، وانهم في وحشيتهم وتعصبهم وتعطشهم للدماء يصح أن يسموا « الكلاب الضارية » !

هكذا واجه المحكمة في الجلسة ، فاضطر الرئيس الى تأجيلها وأرسل خبرا الى الكردينال كيروجا يبلغه وقاحة ابن أخته وسلوكه المعيب أمام المحكمة ، ويعلنه بأنه لا يرى الادلة كافية لثبوت الادانة بالنسبة لمرغريت من حيث تهمة السحر .

وان الاتهام الوحيد الذي يمكن السير في الدعوى من جهته هو الكفر لانها لو كانت فعلا ساحرة ، فسوف تعاقب على سحرها هنا عند الحكم عليها من ناحية التهمة التي يصح اسنادها الى تلك المرأة .

وقال رئيس المحكمة في كتابه الى الكردينال ان المحرقة ستنعقد في طليطلة يوم الخميس التالي — السادس والعشرين من اكتوبر — وكان تاريخ الكتاب التاسع عشر منه — وانه يصح استياق التهمة بالكفر اليها لاعمامها حرقا بينما يجب أن يظهر الدون بدرو من الجريمة في الوقت نفسه في يوم التنفيذ بدرج من التكفير ستفكر المحكمة فيه وتعرضه على الكردينال للاقراره .

الفصل التاسع عشر

الملك

في الوقت الذي كان فيه الكردينال كيروجا المفتش العام بطليطلة ينظر ويفكر في فحوى كتاب رئيس المحكمة كان السير جرفاس كروسبي يلتمس المثول بين يدي جلالة الملك فيليب الثاني في قصر الاسكوريال .

وكان قد انقضى اسبوعين على الرحيل من لندن الى مدريد وكانت كلها آلاما وعذابا لايطاق حتى لقد خيل اليه من القلق والجزع ونفاد الصبر ان السفينة بطيئة والسير متراخ والشقة مترامية ، وبينما كانت مرغريته العزيزة الغالية في أشد الخطر وهي أحوج ما تكون اليه كان هو متحرقا يكاد يجن من الكمد ، ويود لو استعار جناحي طائر ليصل اليها غير متمهل .

لقد كانت الرحلة حلما مزعجا ، أحالت ذلك الفتى المرح الضحوك اللاهي رجلا عبوسا مكتئبا مستسلما للحزن والتفكير

ورصدت السفينة يوم الى جنيف سانتاندر بعد وصول السفينة الاولى بستة أيام .

وكان نزولهم بذلك الثغر باعتباره افضل طريق الى مقصده وكانت هي وجهتهم المقصودة اذ ادرك جرفاس ان من العبث محاولة البحث عن مرغريت اوافتقاء اثرها قبل ان يتسلح بتلك السلطة التي كان يؤمل ان ينتزعها من الملك فيليب ، فلئن اذن وجهته رأسا الى حضرة ذلك الملك العظيم قبل القيام باية محاولة .

ولم ترشح السفينة أي علم يعلن جنسيتها وهي تلقي المراسي في المياه الاسبانية ، فقد رؤى ان ذلك احتياط وحذر لا بأس به من أي خطر قد يقع لهم .

ولكن لم يلبث ان تبين ان العدول عن رفع علم فوق السفينة كان خطرا تماما لخطر رفع علم يمت الى دولة معادية اذ لم تمض ساعة على رسوها حتى اقبل صندلان كبيران مليئان بالجنود المسلحين وعلى رأسهم محافظ الثغر نفسه وقد جاء يستعلم عن جنسية السفينة والغرض من قدومها على هذه الصورة وهي مسلحة ببعض المدافع مما يدل على انها سفينة حربية .

فأمر أدليفر ترسيليان بانزال السلم وطلب الى المحافظ الدخول ولم يمانع في اصطحابه ثلة من الجنود بصفة حرس شرف وتقدم الى المحافظ بصفته ممثل الملك في الثغر ، السير جرفاس مجيبا ، ثم اخبره بانه رسول من قبل ملكة الجلترا برسالة الى ملك اسبانيا ، وابرز لذلك اظهر له الغلاف باختامه الملكية وشعاره المعروف .

فلم يكد المحافظ يعرف ذلك حتى نظر اليه نظرات تغور مكظوم ووجه اليه عبارات ترهيب جافة متحفظة .

وركب جرفاس صندل المحافظ ، وطلب اليه الاذن له

بانزال الفتى من رجاله الى البرليكون بصفة خادمين له ، ولكن المحافظ أصر على أن يرفض الطلب ، واعدا بان يكفل له الامن من الاسبان بدعوى انهما اتيا له واصلح ، لمعرفتهما بالبلاد ولغتها ، فادرك جرفاس أن الغرض من تعيينهما له هو ان يكونا حارسين عليه ، وانه سيكون هو ايضا تحت الحراسة كالسير ريشا تبعي وقادته ، او يصدر امر الملك بالكف عن هذا الاحتياط .

ولم يأبه جرفاس بهذه الاجراءات ، لان كل غرضه هو ان يصل الى الملك باية وسيلة ، حتى لو طلبوا اليه ان يشدوا وثاقه ليحملوه الى جلالته مقيدا في الاغلال لما تردد في القبول .

وكان الاتفاق يقضي بان يبقى تريسيليان في سانتاندر انتظارا لحين عودته ، فاذا انقضى شهر ولم يعد اليه ولم يرسل له رسولا او كتابا كان لتريسيليان أن يفهم من هذا ان رسيله قد خاب في مهمته ، وان يعود الى انجلترا ليبلغ الملكة الخبر .

وقد قضى في سفره الى العاصمة ستة أيام متوليا ، ولكنه حين وصل اليها علم أن الملك ليس مقيما فيها ، وانما ذهب للاقامة حينا من الزمن في الاسكوريال ، وهو قصر منيف رائع فوق جبل شامخ ، ابتناه الملك نفسه .

ولم يلبث أن أجتواه في القصر بهو فسيح وقف فيه جمع من الناس حلقات ، بينما كان آخرون يروحون في جوانبه ويغدون ، بين ضباط في ثيابهم العسكرية ، وبلاطيين في أوشحتهم الزاهية ، وقساوسة ورهبان في مسوحهم السود .

ولما دخل جرفاس أقبل حاجب فاقتاده الى غرفة صغيرة حيث نزع أسلحته قبل المثول في الحضرة الملكية .

ووجد جرفاس نفسه في حجرة صغيرة بسيطة الاثاث

.. وزكمت أنفه روائح الادوية وعبق العقاقير .. وقد وضعت في وسطها منضدة مربعة فوقها رزم من أوراق ودواة وأقلام .

وفي مقعد خشبي بسيط جلس أعظم ملوك عصره وزمانه .. مرتديا حافة المنضدة بيمناه .

وجد جرفاس ازاءه رجلا صغير الجثة ، هزيلا خاويا ، مغضن الوجه كثير التجاعيد ، ذا جبين ناتيء ، وعينين صغراوين زرقاوين ، أو تكادان تكونان عديمتي اللون،وقد قام من تحتهما أنف بارز كأنف النسر ، وكان فمه منفرا لان فكه الاسفل منحرف الى الامام بشكل قبيح ، ذا شفتين صغراوين باهتتين تفغران باستمرار فتكشفان عن فم لا أسنان فيه ، وقد تراخت خصلات من الشعر من ذقنه المنتوف فيموضع اللحية منه ، وله شاربان رفيعان مضطربان وشعر ناحل رمادي وخطه المشيب .. !

وقد جلس مادا ساقه اليسرى التي قرح النقرس فيها فوق كرسي صغير مغطى بنمرقة ، وهو منشح بالسواد ، لاحلية عليه غير شعار الاسرة الملكية وهو ، القروة الذهبية ، حول عنقه .

وكان ممسكا بالقلم في يده يضع ملاحظات على أوراق يقرأها وهو مستمر على هذا النحو طويلا متجاهلا وجود سير جرفاس الماثل بين يديه .

ومن خلف الملك ، وقف رجل متوسط العمر طويل العود في مسوح الجزويت ورداثهم المسبغ الطويل ، وكان هذا الرجل كما يعلم جرفاس بعد لحظة هو الاب « الن » الذي يصح أن يعتبر سفيرا للكاثوليك الانكليز في بلاط فيليب ، وكان موضع احترام جلالته ومحل لرعايته واهتمامه .. وعند النافذتين وقف القسيس دييجو دي كاف .

وظل القلم في يد الملك يمر على الاوراق مستمر الصرير بينما ظل جرفاس واقفا في مكانه لا يتحرك منتظرا حتى يفرغ الملك مما هو ماض فيه وبجانبه الضابط الذي جاء به ، وكلما مرت اللحظات به وهو على هذه الصورة منتظر ، ازداد عجبه من منظر هذا المخلوق القزم الحقير الذي تقتحمه الابصار من فرط دمامته ، حتى لقد تمثل له أشبه شيء بعنكبوت قذر جلس في وسط نسيج خيوطه !

واخيرا تناول سانتوبو الخادم الاوراق من جلالته ، وعند ذلك أرسل الملك من تحت جبينه الناتيء نظرة سريعة من عينيه الياردتين الجامدتين الى وجه ذلك الانكليزي الطويل الذي الماثل في حضرته من لحظات طوال .

وبدأت الشفتان تختلجان ، وما لبث أن انبعث من بينهما صوت منخفض في كلام سريع ، أشبه بطنين حشرة في ذلك السكون الرهيب .

وكان كلامه بالاسبانية ، لانه لم يكن يتكلم أو يقرأ غيرها اللهم الا قليلا من اللاتينية مما وعاه في المدرسة .

وكان سير جرفاس يعرف من الاسبانية ما يكفي للاغراض الاعتيادية ولكنه لم يستطع أن يلتقط من كلام الملك لفظة واحدة فوقف مرتبكا لحظة حتى ابرى الاب « الن » فترجمه له فكانت لهجته تنم عن أصله الانكليزي .

قال : ان جلالة الملك يقول لك يا سيدي أنه يعرف انك رسول اليه من قبل ملكة انجلترا وانك تحمل رسالة الى جلالته .

فاخرج سير جرفاس الرسالة من صدره وتقدم ليعرضها فصاح به الراهب الجزويتي قائلا في لهجة حادة آمرة :

— اركع يا سيدي !

وامتثل سير جرفاس للامر طائعا وعد الملك فيليب يد كأنها أشبه بيد جثة ميت لاشتداد بياضها ، وتناول الرزمة . وكأنما راح يزنها فى كفه لحظة بينما جعل يقـرأ العنوان المكتوب بخط الملكة على الغلاف وانثنى يقلبه بين يديه ويفحص الاختام .

وأخيرا ، وبهزة من كتفه ، فض الاختام ونشر الكتاب بين يديه وجعل يقرأه .

وكان جرفاس قد نهض من جثوته فوقف يتامل وجـه الملك بلهفة زائدة وقلق شديد ، فاذا به يرى عبسة تهبـط تدريجيا الى قمة ذلك الانف المستطيل ويشهد الشفتين تختلجان وتتحركان مرة أخرى واليد ممسكة بالرسالة ترعش بشـدة كأنها اصيبت بفالج فجائى .

وعاد الملك يتكلم ولكن الغضب فى هذه المرة أعاد صوته قوة وجعله مسموعا فى الحجرة كلها وفهم جرفاس كل لفظة منه بوضوح وجلاء .

قال وهو يعرك الورقة فى يده الناحلة بحركة غضب شديد :

ـ لعنة الله على تلك الكافرة الوقحة !!

وفى الحال تلاشى صرير أقلام الكاتبين الجالسين الى مكتبهما فى ناحية من القاعة ، كما وقف سانتوير التابع الخاص والاب الن والقسيس دينيو جامدين فى اماكنهم ممسكى انفاسهم من رهبة الموقف وهو السكون الذى ساد المكان .

وتمالك الملك نفسه بعد لحظات طويلة وانثنى يقول :

ـ ولكن هل يمكن ان اكون مخطئا ؟!

وعاد ينشر الورقة المعروكة المضطربة وهو يقول :

ـ اقراها يا الن على مسمعى مرة أخرى أو ترجمها لى

واجعلنى افهمها تماما بلا ادنى خطأ !

فتناول الجزويتى الرسالة وراح يقراها ويترجم ما فيها بالاسبانية بصوت يتزايد رهبا واستنكارا .

وكان هذا أول علم سمير جرفاس بلهجة الخطاب الذى تلقاه من الملكة واسلوبه وكلماته .

كان رهيبا فى ايجازه ، رهيبا فى جلائه ووضوحه ، مكتوبا باللاتينية ، واصفا حادث الاختطاف وظروفه ، خاتمة رسالتها بانه اذا كان جلالته يريد معلومات اخرى فليسال رسولها اليه ، مذكرة له ان لديها فى سجن برج لندن الاميرال الاسبانى دون بدرو فالديز وسبعة من اشراف مملكته أسرى سجناء تحت يدها .. منذرة بانه اذا لم تعد اللادى مرغريت الى بلادها سالمة لم يمسها سوء ، واذا لم يرجع السير جرفاس كروسبى ورفقاه من أسبانيا بعد حمل رسالتها اليه فسوف تبعث الى جلالته برؤوس الدون فالديز وصحبه ، غير مبالية بتقاليد الحـرب وشعائر الأمم وتدابيرها المتبعة مع الاسرى والسجناء .

وساد السكون لحظة وقد جلس الملك صامتا يفكر ، ثم رفع صوته قائلا :

ـ هذه وقاحة لا معنى لها ، وتهديد فارغ لا قيمة له ، ان امرا كهذا لن يكون ، ولن يسمح شعبها البربرى باقتراف جناية بربرية كهذه . ولكنها محاولة منها لتهديدى بالخيالات والاشباح ولكن أنا فيليب أسبانيا لا اهدد بالاشباح .

فأجابه جرفاس بجراة قائلا : لن تشهد اشباحا امامك حتى تسلم اليك تلك الرؤوس يا مولاى .

فلم يكد يفوه بهذه الكلمات حتى بهت الجميع وساد الحجرة صمت رهيب من أثر الدهشة التى استولت عليهم لتلك الجراة العجيبة .

ونظر الملك اليه ثم أشاح عنه بوجهه ، قال برفق :
ـ احسبك انت الذى تكلمت ؟ فمن الذى اذن لك فى الكلام ؟

فأجاب جرفاس بثبات جنان : انى تكلمت حين رايت ضرورة للكلام ..

فعاد الملك يقول بسخرية وتهكم : تقول تكلمت حين رايت ضروريا ؟ الضرورة اذن هى المبرر ، حقا انى اتعلم شيئا جديدا يا سيدى ! وليس مثلى بالذى يمل المعرفة يوما او يسأم التعليم .. ولعل هناك اشياء اخرى تقولها لى مادمت متلهفا هكذا لسماع اقوالك .

وكان الوعيد الذى ينطوى عليه قوله وتم عنه نظراته التعبالية ، مخيفا مرهوبا ، وكان قد دار بعينيه نحو احد سكرتيريه وراح ينادى :

ـ رودريك ! اين أوراقك لتدون لى اجوبته .

وعاد ينظر الى جرفاس قائلا :

ـ ان معك رفقاء كما يقول هذا الكتاب . فاين هؤلاء ؟

قال : فى ميناتاندر ينتظرون رجوعى الى السفينة التى اقلتنى .

قال : واذا لم ترجع ؟

اجاب : اذا لم آكن على ظهر المركب فى اليوم الثالث عشر من نوفمبر فسوف يقلعون بها الى انجلترا ليبلغوا جلالة الملكة انك تفضل أن تتسلم رؤوس رجالك على تنفيذ العدالة التى تقتضيها الفضيلة فى دبارك .

فبلع الملك ريقه ونظر الاب الى الواقف خلفه الى هذا الشاب الجرىء نظرة اشفاق وقال له بالانكليزية ناصحا :

ـ تذكر يا سيدى مع من تتكلم ؟ انى أحذرك لخيرك

ومصلحتك !

فأبدى الملك اشارة لاسكاته والتفت الى جرفاس يسأله قائلا :

ـ وما اسم السفينة التى تنتظرك فى ميناتاندر ؟

فأجاب جرفاس على الفور بتهكم وتحد ظاهر :

ـ تسمى « وردة العالم » ويتسول قيادتها مسيو اوليفر تريسيليان وهو رجل شجاع مغوار ، يعرف اماكن القتال فى البحار ، والسفينة تحمل عشرين مدفعا والاعين عليها ساهرة ليل نهار .

فابتسم الملك لهذا التهديد غير المكشوف ، وقال : سنختبر شجاعة هذا القبطان !

فأجابه جرفاس بقوله :

ـ لقد جربتم ذلك يا صاحب الجلالة من قبل فى رعاياكم فاذا جربوها مرة اخرى كانت التجربة أقسى وأسوأ عذابا . واذا حيل بين السفينة والاقلاع الى بلادها والوصول الى مواحل ديارها فى موعدها عيد الميلاد فسوف تأتى اليك الرؤوس السهمة بمثابة هدية العيد !

وكان الملك قد هدأ فى تلك اللحظة بعد أن عرف فى الحديث ما كان يريد أن يعرفه ، فقال وهو يغير لهجته :

ـ اما انت أيها الكلب الانكليزى الذى لا تقل وقاحة عن المرأة الشريرة التى أوفدتك بهذه المهمة الوقحة مثلكما فسوف تعطيك درسا تتعلمه قبل ان تصرف من حضرتنا .

ورفع يدا راعشة وقال :

ـ خذوه فقلوه . فانى سأطلبه مرة اخرى !

واجتذبه الضابط الى الوراء ليذهب به .. ولكنه ظل واقفا يحتج ويتذمر ، فنظر الملك اليه بسخرية .. واشار اشارة

يده ان خانوه !

فمشى جرفاس محتدما غاضبا وهو عاجز لا يستطيع مقاومة حتى اذا بلغ الباب راح يقول من فوق كتفه بينما كان الحارس يدفعه :

ـ تذكر رؤوس الاسرى وهاماتهم . واعلم انك انت الذى رضيت لهم الهلاك !

فاخـــرج من الحجرة عنوة ليتلقاه الجنود ويقتادوه الى السجن .

الفصل العشرون

ضمير الملك

كان تصرف الملك غريبا غير مالوف منه ، لانه لم يكن من طبعه ولا من عادته أن يتسمت مع عاطفتـــه ويترك الغضب يتملك شعوره بل كان الصبر الفضيلة الوحيدة فيه ، واليها يرجع الفضل فى العظمة التى اكتسبها والثار البعيد الذى بلغه .

لهذا كان غريبا منه أن يغضب تلك الغضبة التى تولته حين قرأ ذلك الكتاب ، وحين سمع كلام ذلك الرسول المتوقح الجرىء .

ولو ان اهانة كهذه وجهت اليه فى وقت غير ذلك الوقت لما سكت عنها ، وقنع بالغضب والانفعال منهـــا ، ولكنه كان يشعر بعجز ، وفقدان حول ، وذهاب سلطـــان ، بعـــد تلك الهزيمة البحرية التى اصابت اساطيله وحطمت سفنه وجواريه المنشآت فى البحر كالاعلام .

على انه وان كان قد ضعف ووهن امره الا انه لم يبلغ به الضعف حد العجز المطلق امام السخرية والضغط والوعيـــد

والاذراء .

لذلك راح يقول لنفسه ان : ستعلم انجلترا أن ملك اسبانيا لا تحركه الذلة ولا يؤثر فيه الوعيد . أما هذا الكلب العقور الذى كان هنا منذ لحظة ورفاقاؤه الذين ينتظرون فى سانتاندر ، هؤلاء الكفرة والملاعين فان ديوان التفتيش سينظر فى شأنهم يا قسيس دييجو هذه المسألة تخصك .

فعادت الحياة تدب فى ذلك القسيس الذى كان واقفا ازاء التاقتة كالصنم أو التمثال ، اذ تقدم ببطء خطوات قليلة نحو الملك وهو يقول بصوت عميق جياش :

ـ لست يا مولاى المقصود بهذا الوعيد ، وانما المقصود به قبل جلالتك هم اولئك السادة المســاكين الذين أبلوا فى خدمتك أحسن البلاء وهم الآن سجناء فى انجلترا ينتظرون وصول الفدية من اسبانيا ثمنا لهلاكهم يا مولاى .

قال الملك وهو يغمز بعينيه الصغراوين :

ـ انهم مهددون فى حياتهم فقط ، ولكنى انا مهدد فى كـــرامتى وشرفى .. وهما كرامة اسبانيا وشرفهـــا سواء بسواء .

فانحنى القسيس على المنضدة الخشبية وهو يقول :

ـ وهل يسلم شرف اسبانيا اذا نفذ هذا الوعيد فى أبنائها الكرام الابرار ... ؟

فحدجه الملك بنظرة قاسية .. ولكن القسيس استطرد قائلا :

ـ ان شرف اسبانيا قد اريق فى تلك المعـــاوة البحرية الخطيرة التى اقدمنا عليها ضد الانكليز ، فهل يرضى جلالة الملك أن يضيف الى الدماء الزكية التى سفكت دم الخادم المخلص العظيم ، دون فالديز ، وهو اكبر مقاتل بقى لجلالتكم من الاحياء .. أم دم ، أوبرتز مركيز فويتساليدا ، .. أو دم ، دون راموز

كاف ، او ..

فقاطعه الملك قائلا : دم اخيك ؟ لعله انكشف سر حماستك .. ؟ مسالة عائلية اذن ؟

ولكن القسيس استرسل غير مكترث :

ـ هذا صحيح ! ولكن اليست هي مسالة عائلية بالنسبة لجلالتك ايضا ؟ اليست اسبانيا كلها هي اسرة الملك وقومه واهله وعشيرته ؟ اليس ببلاؤها واشرافها هم ذوو قرابته وآل بيته الكريم ؟ فمن يكون هذا الانكليزي الوقح الذي كان هنا اللحظة ورفقاؤه الذين يرتقبونه في سانتاندر اذ هم قوربوا او وضعوا في الميزان بجانب اولئك السادات الاشراف الذين يعيشون اسرى في تلك البلاد .

وقد يصح لجلالتكم أن تلقوا بهذا الوغد واصحابه الى محكمة التفتيش لعقابهم بمئاية كفرة وزندقته . فان هذا من حقك . بل من واجبك نحو الملة والدين .. ولكن هل يعوض هذا عن أولئك الاشراف النمانية الذين سيطاح برؤوسهم ويؤتى بهاماتهم وهي تقطر دما فتلقى في حجرك تارا منسك واشتفاء ؟ ؟

وسمع الملك هذا القول فاجفل واضطرب .. وخيل اليه كانما قد وضعت الرؤوس حقا في حجره .. ولكنه لم يبن أن تمالك فقال :

ـ كفى .. انا لا اسلم للوعيد ! !

غير انه لم يسكت عند هذا الحد .. ولكن الكلام الذي فاه به بعد ذلك لم عن حقيقة شعوره .. فقد راح يقول :

ـ ان ذلك الوعيد عبث ولن تستطيع تلك المرأة أن تنفذه لانه سيجلب عليها سخط العالم بأسره .

والتفت الى الاب (الن) فقال : السيف حق فيما اقول . ؟

ولكن الراهب الجزويتي تغادي الجواب الصريح ، اذ قال :

ـ انك يا مولاي ازاء امرأة عنيدة لا تعرف ربا ولا دينا .. امرأة لا توقر شرائع .. ولا تحترم قوانين .

فصاح به الملك وهو لا يزال متشبثا باعتقاده في أن الملكة اليزابيث لن تجرؤ على تنفيذ الوعيد : ولكن عملا كهذا ...

فاجابه الراهب على الفور : لئن كان في الواقع شنيعا فهو ليس اشنع من قتل ملكة اسكوتلندة .. فقد كانت تلك ايضا فعلة لم يكن العالم الاسباني يتعقد انها تجسر على اقترافها

واذ ذاك شعر الملك بصدمة قضت على آماله . وبدا يتخاذل ويتراجع في أعماق سريرته .

ولكنه مع ذلك صاح بالرجلين قائلا انه لن يسلم ولن يقبل هذه الاهانة بحال من الاحوال .

ثم صرفهما من حضرته بجفاء .. فخرجا في صمت وسكون .

وحين خلا الى نفسه راح يرعش من شدة الكمد والغيظ المكظوم وهو يعيد قراءة الكتاب ويتذكر وقاحة الرسول الذي حمله اليه .

ولكنه أخيرا بدأ يفكر في القصة التي أثارت ذلك الوعيد .. وكان قد نسي من شدة غضبه التفكير في هذه الناحية .. فجعل يتساءل في نفسه : كيف نجا الدون يدرو من الموت .. مع ان الاخبار التي وصلت الى مسمع جلالته كانت تؤكد بأن سفينته ، الكونسيسيون ، قد غرقت في البحر بكامل من عليها .

وفي الحال تذكر ما جاء في كتاب الملكة اليه ، وهو أنه نجا بأعجوبة وأواه قوم من الانكليز حتى عاد الى اسبانيا مختطفا فتاة من آهل البيت الذي بر به وأنقذه وحماه من الهلاك ، ولكن

اذا صح هذا فكيف اذن الدون بدرو لم يحضر ليقدم فروض التحية والواجب للملكه على أثر رجوعه الى البلاد ؟

ومن يمكن ان يعرف هذا السر ؟

لا يعرفه غير حال الدون بدرو الكردينال كيروجا رئيس ديوان التفتيش وكبير اساقفة طليطلة !

وفي الحال استدعى الملك سكرتيره الخاص رودريك فاملى عليه بضعة اسطر الى الكردينال يطلب اليه فيها الحضور حالا الى الاسكوريال .

فنفذ السكرتير الامر بان أوفد رسولا على ظهر جواد الى الكردينال في طليطلة لكي يمثل في حضرة الملك بلا ابطاء .

وأراد الملك بعد هذا أن يصرف النظر عن هذه المسألة حتى يحضر الكردينال ، ولكن كلام القسيس دييجو ذى كاف طل يثوار دعلى خاطره ، فليت يتمثل رؤوس أولئك الاشراف الاسرى ملقاة لحى حجره وهى تنظر دما زكيا ، وخيل اليه انه قد رأى من بينهما وجه فالديز الشجاع المغوار الذى خدمه وأخلص اليه ، وكان يمكن أن يعيش ليخدمه ويخلص فى خدمته ، فلم يلبث ازاء هذه الاخيلة والاشباح الشنيعة التكراء ان ارتجف .

ولما مساء اليوم التالى بينما كان جالسا يتناول طعام العشاء وحده كعادته اذ نبىء بان الكردينال كيروجا قد حضر فطلبه فى الحال وتحدث اليه

وقد ارخته نتيجة الحديث فتنفس الصعداء وهدأت مخاوفه ، فقد علم أن الدون بدرو فى السجن التابع لمحكمة التفتيش وان المرأة التى اختطفها سجينة هى كذلك بتهمة الكفر وأعمال السحر والها هى التى غوته واضلته بسحرها فأساء الى الدين وأخطأ خطا يوجب التكفير ، وانه سيكفر عن سيئاته فى حفلة المحرقة التى ستقام فى طليطلة يوم الخميس القادم ، وفى هذه الحفلة سوف تسلم المرأة الساحرة الى

السلطة الزمنية لاحراقها عقابا على سحرها مع سجناء اخرين صدرت عليهم الاحكام من ديوان التفتيش

وختم الكردينال كلمته بقوله انه يرجو ان يشرف جلالته الاحتفال بحضوره

وراح الملك الكردينال : ماضى البيئة التى نشبت فى المرأة اشتغالها بالسحر ؟

وكان الكردينال قد عرف تفاصيل القضية كلها بسبب علاقتها بابن أخته فراح يقص على الملك جميع تلك الدقائق والتفصيلات

وجلس الملك مسندا ظهره الى مقعده مغمضا عينيه نصف اغماضة وقد ارتاح باله كل الارتياح ، اذ وجد العذر الكافى بالنسبة لموقفه وهو أن واجبه نحو الدين يجعل من المستحيل عليه أن يسلم لوعيد الملكة اليزابيث وتذيرها وانه كثيرا ما كانت الاحتجاجات توجه اليه من انجلترا بشأن وقوع رجال من بحارتها فى أيدى رجال محاكم التفتيش وطلب اطلاق سراحهم وردهم الى بلادهم ، فكان يجيب على تلك الاحتجاجات بانه من العبث الالتجاء اليه فى أمر خارج عن حدود سلطته الزمنية فى اسبانيا وانه لا يملك فى المسائل الماسة بديوان التفتيش حق التدخل مطلقا بل لو أنه أساء الى الدين لصح توجيه الاتهام اليه هو كذلك !

ولذلك لم يسمعه الا أن يحمد الله على انه سوف لا يعاتب أو يلام اذا ماتفلت ملكة انجلترا وعيدها فطاحت برؤوس أولئك الاشراف ، لان اللائمة ستقع يومئذ على ديوان التفتيش وحده

هذا هو ما كان الملك يناجى به نفسه ، دون ان يكاشف كيروجا بشىء منه

وفى تلك الليلة نام ملك اسبانيا نوما هادئا هنيئا

الذين سكنت خواطرهم وهدأ بالهم ، وشعروا براحة الضمير ؟ !

الفصل الحادى والعشرون

ضمير الكردينال

عاد الكردينال الى طليطلة مسرعا فتناول أوراق التحقيق فى قضية ابن أخته وقد عاد الى خاطره انه كان يهم حين جاءه رسول الملك يطلبه بأن يستدعى القس جان ارنزوبلا رئيس المحكمة التى نظرت القضية لاستيضاح بضع نقط فيها لا تزال غامضة

فلم يتردد فى استدعائه فجاء القس على الفور ، وحين سأله الكردينال شرح هذه النقط أخذ هذا فى بيان طويل يوضح شكوكه فى مسألة اتهام المرأة باعمال السحر

ثم قال :

ـ ومن المحتمل ان يكون الدون بدرو قد استسلم لفتنة هذه المرأة ذات الجمال الخارق فصدرت منه تلك الافعال والاقوال التى لا ترضى الرب حتى انه من شدة رغبته فى الزواج بتلك الفتاة نسى انها تدين بمذهب خارج على الدين ، ولكن اذا كان هذا خطيرا فان الدون بدرو حين نبه الى خطورته اظهر استعداده بل لهفته على تحويلها من مذهبها الى الدين القويم ، ولم تكن الكلمات التى فاه بها امام المرأة بدافع الحب والتى علق القس لويس عليها أهمية كبيرة ، سوى شكاية عاشق برح به الحب .

وسمع الكردينال هذا البيان فنظر الى القس طويلا ثم قال :

ـ لقد خطرت لى نفس الملاحظة قبل مجيئك ولهذا استدعيتك فهل من نصيحة تدلى بها ؟

فابدى القس حركة تدل على انه يائس لا يعرف مخلصا

فاطرق الكردينال لحظة ثم رفع بصره فقال : ولكن اذا نحن لم نأخذ بتهمة السحر فماذا يكون مصير ابن اختى ؟ لقد ارتكب تجديفا وذنوبا اخرى ولا بد من ان يكفر عنها ومعنى هذا انه قد يدفع حياته ثمنا لذلك التفكير اذا لم يتبين انه لم يكن مسئولا وان المسئولية واقعة على عاتق سواه .

فاجاب القس جوان بشجاعة : وهل يراد منا ان نقع فعلا فى الخطأ الذى اتهمتنا هذه المرأة به ؟ .. أيراد منا ان نبرر اتهامها ؟

فلم يكد الكردينال يسمع هذا حتى نهض من مجلسه غاضبا والتفت يقول :

ـ ماذا تعنى بهذا ؟ هل كنت اقول ما قلته لو كنت اعتقد ان ابن اختى مذنب ؟ أليس يحق لى بالنظر الى ماضيه ان افترض براءته واعتقد انه لا بد من ان يكون قد فعل ما فعله تحت تأثير السحر . هذا هو ما اعتقده فى اعماق ضميرى ولكن هل لاننا لا نملك الوسائل الكافية لتقرير ذلك يصح ان نتركه عرضة للموت ومصادرة املاكه ؟ وتلطيخ سمعة بيته واسرته ؟

فحار القس فى أمره ولم يسعه الا ان يقول :

ـ ما دمنا لا نجد ما يؤكد التهمة فلا نستطيع ان ندين المتهمة . ولست أدرى من اين يمكننا ان نأتى بهذا التأكيد ؟

فصاح الكردينال به فى لهجة رجل يبين شيئا بديهيا لم يكن بحاجة الى بيان :

ـ تسألنى من اين ؟ من المتهمة نفسها ؟

همز القسيس راسه قائلا :

ـ أعتقد أنها لن تسلم ولن تعترف مهما فعلت

فنظر كيروجا اليه طويلا وقال :

ـ أراك الى الآن لم تعمد الى استجوابها بالتعذيب !

فبسط القس يديه وقال فى لهجة من يشعر بانه موضع تهمته :

ـ اذا كنت الى الآن لم ألجأ الى هذه الوسيلة على الرغم من اقتراح عضوى المحكمة وتشديدهما فى وجوبه ، فلم يكن ذلك الا بدافع خوف بل يقيني من انه لن يفيد

فصاح الكردينال به قائلا : لن يفيد ؟

وكانت الدهشة فى صوته بالغة حتى ابتسم القس قائلا :

ـ انك لم تشهد هذه المرأة يا مولاى ولذلك لا يمكنك ان تحكم على مبلغ قوة نفسها ومتانة ارادتها وشدة عزيمتها ، ولكنى انا الذى رأيتها أعتقد انه اذا مزقنا أوصالها تمزيقا فسوف لا نظفر منها بكلمة واحدة ولنفرض أننا عذبناها لنستخلص منها شيئا يدينها بأعمال السحر ثم لم تقل شيئا فماذا يكون موقف الدون بدرو فى هذه الحالة ؟

فعاد الكردينال الى مجلسه حائرا يلعن ابن اخته ويسخط على القس لويس الذى بالغ من غيرته على الدين كل تلك المبالغة ثم قال فى حنق :

ـ اننا أمام أحد أمرين الآن : اما أن ندين هذه المرأة بجريمة السحر أو أن ندين الدون بدرو فنعرضه للموت وضياع أملاكه .. ولكنك تقول لى انه لا يمكن ادانة هذه المرأة بذلك الجرم ؟ ..

قال : هذا ما اعتقده جازم الاعتقاد .

ساد السكوت طويلا

واخيرا التفت الكردينال الى القس فقال وهو يفحصه مليا :

ـ هل حقيقة ان الغاية تبرر الواسطة ؟

فقال القس : ان الجزويت يؤكدون ذلك .

فعاد الكردينال يقول : هذه مسألة تصح للتدليل على انهم لم يخطئوا ، فكر مليا معى فى مسألة ابن اختى هذا ، انه شاب خدم ربه ودينه وملكه بكل اخلاص وولاء فاذا راعينا هذا كله ، أفلا يصح لنا أن نذهب الى انه لم يكن ليرتكب تلك الجنايات ضد الدين لو لم يصب بخبال ؟! وسواء كان هذا الخبال نتيجة سحر استخدم ضده تبعا لاقوال القس لويس ، او بتأثير سحر الطبيعة كما تذهب اليه انت فى تعليلك ، فان هذا قد نستطيع تقريره فيما بعد والقطع فيه . اما الذى يهمنا تقريره الآن فهو ان هذا الخبال موجود . فهل لديك شك فى هذا وانت الذى فحصته واختبرته كما فحصت المرأة الانكليزية ايضا واختبرتها ؟

فأجاب القس جوابا على الفور وبلهجة الصدق :

ـ لا شك عندى مطلقا

فاستطرد الكردينال :

ـ واذن فلا شىء هناك يزعج ضمائرنا لو بخل بواجبنا اذا نحن فى هذه الحالة عكسنا سياق الاجراءات . واذا كانت الاجراءات المألوفة تقضى بان نقريل أولا التهمة الموجهة الى المرأة لكى تقيم الأسباب التى توجب الحكم على الدون بدرو ، أفلا يجوز ـ لقيام هذه الاسباب فى خواطرنا ـ وتحققنا من صحتها فى ضمائرنا ، ان نتغاضى عن نظام الاجراءات فنحكم على الدون بدرو أولا باعتباره غير مسئول عن أعماله لانه وقع تحت سحر تلك المرأة وبهذا يقتصر

الحكم عليه على تطهيره علنا فى الاحتفال الذى سيقام يوم الخميس القادم . قبل ان تقرر ما ستقرره بشأن المرأة نفسها حتى اذا لم تثبت عليها تهمة السحر لعدم وجود الادلة والبينات الكافية ولم يبق لدينا غير الحكم عليها فى تهمة الكفر والمروق من الدين ، لم يعد هناك مجال لاعادة القضية من جديد ضد المدعو بدرو ؟!

وسمع القس جوان قول الكردينال وظل صامتا لحظة ، ثم قال :

ـ لقد فكرت انا ايضا فى ذلك .

فابرقت عينا الكردينال والقى يده فوق كتف القس وصاح به قائلا :

ـ هل خطر لك هذا ايضا ؟ ولكن لماذا .. ولم يتم السؤال !

فهز القس رأسه وزفر زفرة حادة وقال :

ـ لان هناك اعتراضا واحدا عليه ، وهو ان المجال دائما مفتوح فى محاكم التفتيش عادة لاعادة النظر فى اية قضية سبق نظرها .. اذا ما اتضح ان هناك بينات عليه اكثر من البينات التى ظهرت فى وقت محاكمته الاولى التى حكم فيها عليه

فصاح الكردينال به : اعرف هذا .. ولكن هذه القضية بالذات .. من هو الذى سيخطر بباله ان يعيدها للنظر ؟

فتردد القس جوان قبل الجواب ولكنه قال اخيرا :

ـ هناك ضمائر اخرى غير ضمائرنا ياغبطة الكردينال فقد يوحى الضمير الى احد خصوم الدون بدرو ان يطلب تكفيرا كاملا عن جناياته فى حق الدين ، وقد ياتى من يخلفك او يخلفنى فى يوم من الايام فيطلع على الدفاتر والقيودات

فيلحظ هذه المخالفة القانونية ويعمد الى تصحيحها واحقاق الحق !

قال : فى وسعنا ان نحتاط لهذا دون ان نشعر باى ازعاج

اجاب : ولكن لا ينبغى ان ننسى وجود القس لويس فأجفل الكردينال من هذا التذكير ورفع يده من فوق كتف رئيس المحكمة قائلا بدهشة :

ـ اهو المبلغ الذى كان السبب فى كل هذا الاشكال !

فاجابه القس قائلا : ان حماسته اكبر من ذكائه ، وليس عندى خالجة من الشك فى انه سوف يهيج اشد الهياج اذا لم نقرر ان الاتهام باعمال السحر صحيح لانه لا يقبل شكا فى هذه الناحية وسيكون لهذا اول صالح بالاحتجاج

فكاد الكردينال يتميز من الغيظ وصاح قائلا : وما شأن هذا الرجل فى المحكمة ! وهو ليس الا شاهدا لا حول له ولا صوت فى القضية مطلقا ؟

فاجابه القس بقوله : ولكنه المبلغ ، وصوت المبلغ هو الوحيد الذى ليس فى وسع ديوان التفتيش اسكاته ، وقد كان عضو اليمين خلال جلسات القضية كلها مؤيدا له متفقا معه فى وجهة نظره بل اخشى ان يكون عضو اليسار ايضا قد اصبح يتهمنى بأنى لين فى حكمى على الكفرة والزنادقة

فنظر الكردينال طويلا فى وجه القس الرحيم المتلطف وراح يسأله قائلا :

ـ هل تظن ان القس لويس سوف يعترض ويحاول ان ينتقم ؟

قال : هذا ما كنت مترددا فى قوله حتى قلته يا غبطة

الكردينال وانا لا يسعنى سوى افراده ، لانى واثق انه اذا لم يحكم على المرأة بتهمة السحر مع تهمة الزندقة . فسوف يثار من الذين يعتقد انهم غشوة ولم يعملوا برايه . ووجه انتقامه حينئذ هو ان يصر على محاكمة الدون بدرو من جديد

فاستولى الحيرة على الكردينال وشعر بانه فى مازق ضيق ، ولكنه فى النهاية اشار بوجوب المجازفة والالتجاء الى عرض المراة على آلة التعذيب لحملها على الاعتراف قهرا بالهتها الاليمة المذنبة

غير ان القس جوان اطرق قائلا : لكن ذلك ما دمت يا مولاى تريد ذلك ولكنى اؤكد لك ان هذه مجازفة ستقضى على الدون بدرو فى النهاية بلا ادنى شك

فراى الكردينال ان هذا القول سيعود بهما الى المناقشة من البداية ، فلم يسعه سوى صرف القس جوان من حضرته قائلا :

ـ سوف افكر فى الامر مليا . وسادعو الله ان يلهمنى الصواب وافعل انت كذلك .. والآن اذهب فى حراسة الله !!

الفصل الثانى والعشرون
كاهن الملك

فى مساء الاحد تناول الملك فيليب من الفطائر واصناف الحلوى اكثر مما يجب ، واذا به يصحو مبكرا فى اليوم التالى وهو يتصبب عرقا من شدة الضر اذ خيل اليه ان شيئا ثقيلا قد استقر فوق صدره ومعدته وان هذا الشىء هو جماجم الاشراف الثمانية المضرجة بالدم وهى ملقاه فى حجره !

واستوى فى فراشه واطلق صيحة داوية جاءت بخادمه الخاص حانتونيو مهرولا نحوه ، فاذا هو يجده متشنجا مضطربا يأتى بحركات غريبة كمن يطرح بكلتا يديه كومة من الجماجم الدامية من حجره

فاسرع الخادم يبحث فى طلب الطبيب

فلما جاء هذا واراد ان يتحرى اسباب هذه العلة الفجائية عثر باطباق الفطير فهز كتفيه يائسا فقد سبق ان احتج على تناول الملك هذا النوع المغلظ من الاطعمة فكان نصيبه على تلك النصيحة الشتمية والاهانة ووصفه بانه حمار لا يفهم فى الطب شيئا !

ولهذا لم يشأ ان يقول للملك ما قاله من قبل فلا يصيبه غير ما اصابه ، وانما جعل حديثه مع سانتونيو فاشار هذا بان تترك النصيحة للملك فى هذه الحالة لكاهنه الخاص ، فان الكاهن يستطيع ان يلقى فى روع جلالته ان الهم اثم عظيم يغضب الرب ، وان الامتناع عنه حلال ، وان الافراط فيه اذى للروح بقدر ما هو اذى ومضرة للبدن ، واستضحك الطبيب لهذا الاقتراح مشيرا الى ان الملك لم يمتنع عن الم من الآثام الكبرى مخافة من الله ، حتى يجوز ان يخاف من اكل الفطير خشية اغضابه !

ولكن الخادم كان عمليا اكثر من الطبيب اذا ذهب فى ضحى ذلك النهار يبحث عن كاهن الملك وهو القسيس دبيجو دى كاف .. فلما لقيه خبره بما جرى وشرح له سبب الوعكة واعراضها الظاهرة

ولم يدر الخادم ما كان فى نفس القس ساعتئذ ولم يخطر بباله ان الكاهن قد راى هذه المناسبة فرصة صالحة له فقد كان رامون دى كاف عميد الاسرة التى ينتسب القس اليها احد الاسرى الثمانية السجناء فى برج لندن

والذين اصبحوا فى خطر من وعيد الملكة اذا اصر ملك اسبانيا على رفض النزول على ما تريد

وحين جاءه سانتوبو لبستشيره فى مرض الملك كان منشغل الخاطر يفكر طويلا فيما ينبغى ان يلجأ اليه لكى يحمل الملك على التسليم انقاذا لراس اخيه من آلة الاعدام فلم يكد يسمع القصة من سانتوبو حتى ظن ان الله قد استجاب لدعائه طيلة الليلة الماضية لانها فتحت امامه سبيلا لاغراء الملك بقبول التسليم دون ان يظهر ان له غرضا خاصا من وراء مشورته لجلالته ونصائحه

ولكن الصعوبة هى فى ان الملك كان من عادته ان يعترف لكاهنه فى ايام الجمعة فقط من الاسابيع ، وان اليوم كان الاثنين ، وان اليوم التالى وهو الثلاثاء موعد احتفال الحرفة فى طليطلة ، وهو اليوم الذى ستساق فيه المراة الانكليزية التى كانت السبب فى كل هذا الاشكال الى « المحرقة » لتحرق حية ، عقابا على الكفر والزندقة والسحر التى ادينت بها . فاذا جرى ذلك فعلا فلم يعد ثم امل فى انقاذ حياة اخيه من الهلاك

وهكذا تشعب الموقف .. ففى ناحية كان الكردينال متاثرا من الخوف على ابن اخته الدون بدرو .. وفى ناحية اخرى كان كاهن الملك يدافع الحب الاخوى يحثه ان ينفذ القضاء فى المراة الانكليزية فيطاح براس اخيه

ولكن الكاهن لم يكاشف الخادم بهذه العوامل الشخصية .. وانما تظاهر بالاهتمام الشديد بصحة الملك . وامره اليه ان يحمل الملك على ان يرسل فى طلبه .. وقبل أن ينصرف نفحه بهدية طيبة وباركه اظهارا لاعجابه به وتقديرا لاخلاصه واعتماده عليه فيما يتعلق بسلامة الملك وصحته .

وهكذا لبث القس دييجو فى داره ينتظر ان يستدعيه الملك .. بينما ذهب سانتوبو وهو معتزم تنفيذ الفكرة عند اول فرصة تسنح له .

وكان الملك فيليب جالسا يؤشر تاشيراته المستعرة التى لا تنقطع على الاوراق المكدسة بجانبه .. وفيما كان ماضيا فى هذا العمل الميكانيكى المتواصل اذ وقف لحظة عن التاشير فزفر ورفع يده المعروقة الناحلة الى جبينه الشاحب ولكنه لم يلبث ان مدها الى كومة الاوراق القريبة منه ليتناول ورقة اخرى .. واذا به يشعر بأن يدا تقاومه .. فالتفت فوجد سانتوبو واضعا كفه على الكومة وعيناه تنظران اليه باهتمام غريب فصاح جلالته به قائلا :

— ما هذا ! ماذا تفعل !

قال : يا مولاى . ! الا يكفى ما عملته اليوم ؟ تذكر يا مولاى انك كنت منحرف المزاج ليلة امس .. واراك يا صاحب الجلالة متعبا منهوك القوى

فنظر الملك اليه بعينه الصفراء الباردة .. ولكنه خفض بصره فى الحال . ثم قال :

— منهوك القوى ! انا ؟

ولكن هذا الايحاء اثر فعلا فيه فرفع يده عن الاوراق وتهالك فى مقعده واغمض عينيه .. ثم فتح عينيه ثانية وهو يقول :

— سانتوبو . ! ماذا قال الطبيب عن حالتى . ؟

— قال انه يظن انها ناشئة من الاكثار من الفطير .

ولكنى شعرت يا مولاى بانه مخطىء .. لانه لم يكن ثم حاجة الى طبيب ليعرف ماذا يؤلم جلالتك .. وقد قلت للدكتور يا مولاى ان الالم قد آت من معدتك .. ولكن من جهة روحك ! !

فصاح الملك به : مه أيها الاحمق . ! ماذا تعرف أنت عن الروح . ؟

قال : لقد سمعت جلالتك تفوه بكلمات وعبارات معينة فى وسط الامك الليلة البارحة .. وخشيت أن يكون ما قاله القس ديجو هنا يوم الجمعة هو الذى شغل بالك يا مولاى واستولى على خاطرك .. وانه قد يحسن ان نستدعى كاهن سانتا كروز ليداوى الجرح الذى كان سببا فى فتحه .. ولكى يعيد الى روحك يا مولاى السكينة التى هى احوج ما تكون اليها . !

لقد كان هذا وحده كافيا لتذكير الملك بتلك الاشباح التى ما فتئت تتمثل له .. ولكن الملك لم يتبين منه فى تلك اللحظة غير ذكاء خادمه فى تشخيص علته النفسية .. فغمغم بكلام خافت غير مسموع .. وتحامل على نفسه من جديد ومد يده ليتناول الورقة التالية .

وازاء هذه الحركة التى جعلت سانتوبو يأسف على اخفاقه فى المحاولة راح الخادم من خلف جلالة الملك يقلب كومة الاوراق رأسا على عقب بحركة غير ظاهرة ليجعل الورقة التالية التى سيأخذها الملك هى التى كانت آخر الاوراق المكدسة بجانبه .

وكان سانتوبو فى هذه الحركة مدللا على ذكائه ببرهان جديد فقد كان يعلم سر قلق الملك واضطرابه .. وهو كتاب ملكة انجلترا اليه ووعيدها له .. فأراد أن يجدد هذا القلق ليصل الى الغاية التى تآمر عليها مع الكاهن .

فخطر له أن الكتاب الموضوع فى آخر الكومة كان قد وصل فى ذلك الصباح من دوق مدينا سيدونيا الذى كان السبب فى نكبة الاسطول الاسبانى فى غارته على انجلترا .. وقد بعث الدوق به الى الملك يقول فيه انه قد باع احدى

ضياعه ليجمع المال الذى يريده انجلترا فدية لفكاك الاميرال « فالديز » من الاسر .. وانه انما فعل ذلك تضحية منه فى سبيل انقاذ ذلك البطل المغوار ورده الى وطنه الذى خدمه وأحسن اليه .

ومد الملك يده فتناول الورقة التى فوق الكومة المكدسة بجانبه ، وكانت هى ذلك الكتاب ، بتلك الحركة الماكرة التى قام بها سانتوبو الخبيث ، فلم يكد جلالته يقرأ ما فيه حتى رعشت انامله فسقط الكتاب منه وارتمى فى مقعده الرهيب مطبقا جفنيه وراح يهرف قائلا : اللعينة الكافرة ! الزنديقة !! . سانتوبو أنا مريض كما قلت . وشاكف من العمل ، هات ذراعك !

وقام الملك من كرسيه متكئا على سانتوبو ومشى متحاملا يريد مخدعه .

وعند ذلك عاد سانتوبو يذكر اسم ديجو دى كاف مقترحا على الملك ان يدعوه لعله بحاجة الى مشورته الروحية ولكن الملك أسكته فلم يسمعه الا الصمت

ولكن الملك فى تلك الليلة كان مضطربا فى نومه لا يفارقه شبح رأس فالديز ، حتى كان يوم الاربعاء وقد الح الاضطراب عليه فى الليلة الماضية فاصبح من الغداة وهو ينزع الى العمل باشارة خادمه . ولعله كان بعقله الباطنى يشعر بأن اليوم التالى هو ميعاد الاحتفال فى مليطلة وانه اذا تأخر اربعا وعشرين ساعة اخرى فات الاوان ولم يعد يستطيع شيئا

ولهذا صاح اخيرا بخادمه : ادع لى القس ديجو فى الحال ليطرد عنى هذه الاشباح التى كان هو السبب فى ازدحامها على خاطرى !

وقدم الكاهن وهو هادىء ساكن الاوصال فدخل على الملك فى مخدعه وادنى مقعدا من الفراش فجلس ، وبعد ان تبادل الحديث مع الملك فى شأن الصحة طلب الى جلالته ان يعترف له لكى تريح نفسه من اى عبء ثقيل قد يكون هو السبب فى تأخير شفائه من علة البدن

فامتثل الملك وانشأ يعترف ، حتى اذا انتهى من ذلك انشأ الكاهن يقول :

ـ لقد وضح كل شىء يا بنى . فان هناك امرين عظيمين يشتملان فى اعماق نفسك وهما سبب هذه العلة التى اسقمت بدنك وان يؤاتيك الشفاء حتى تتطهر منهما

ان عسر الهضم الذى اصابك نتيجة الم النهم قد اطلق عليك اشباحا مزعجة ناشئة من اثر الكبرياء فاحذر يا بنى داء الكبرياء ، انه شر ما يصاب ابن آدم به . بل لقد كان هو الذى طرد ابليس من ملكوت السماء وهو اشبه شىء برداء خفيف يرتديه المرء ولا يكاد يحس به فى حين يكمن من وراثه جميع آثام الدنيا وشرورها التى تطرده من رحمة الله

فتاوه الملك وتوجع قائلا :

ـ رباه ! افقدر لى ان اذوق طعم الاذلال طيلة الحياة ؟ !

فقاطعه الكاهن قائلا :

ـ ان هذه الاشباح والخيالات قد تمثلت لك فقط فى هذه الايام الاخيرة . فهل تدرى من اين اتت ؟

فصاح الملك به : اتسألنى من اين اتت ؟ من الاسف . من الخوف من الحب لاولئك الاشراف الذين خدمونى واخلصوا فى خدمتى والذين تريد تلك المرأة التى تحكم انجلترا اليوم ان تذبحهم ذبح الخراف !

قال الكاهن : ما لم تطرد عنك الكبرياء وتعد بدك

الى الكاذم

اما اذا انت اصررت على كبريائك وابيت الا ان تظل رافع الراس هوت تلك الرؤوس العالية البريئة على مذبح الكبرياء !

فجعل الملك يتلوى كأنما قد اوجعه الم جسدى . ولكنه ما لبث ان تمالك وقد خطر له شىء رأى فيه سبيلا للخلاص ، وانشأ يقول :

ـ لو اردت ان اعمل لما استطعت . فان الامر ليس فى يدى . ان انا الا ملك اسبانيا . فليس لى على ديوان التفتيش سلطان ولا حق لى فى التدخل فى ملكوت الله . انا الذى تنهمنى بالكبرياء

ولكن الكاهن ابتسم ابتسامة اشفاق وقد التقت عيناه بعينى الملك وقال :

ـ واذا اقتضتك مصلحة اسبانيا وشئون الدولة ان تكف يد ديوان التفتيش فهل تحسب رجاله قادرين على ان ينكروا عليك هذا الحق ؟ الا كن صادقا تجاه ربك ايها الملك فيليب ! الا ترى كيف يخفى رداء الكبرياء المرء من الانام . فهلم يا بنى اخلع عنك هذا الرداء فانه بئس الرداء ، وشر الكساء !

فنظر اليه الملك لحظة ثم اشاح عنه ببصره ، وفى عينيه الصفراوين الم شديد . الم الكبرياء . وجعل يقول :

ـ هذا لا يمكن ابدا ! افاحتقر نفسى واضعها دون منزلتها ؟

فصاح الكاهن به بصوت كأنه نقير الفزع ونهض مادا عنقه فى غضب قائلا :

ـ اتقول هذا بلسانك ؟ اتسأل هل تحتقر نفسك وتضع من منزلتها نعم ، والا وضعك الله دونها واذلك فى

النهاية . ولن تجد مفرا لك من تلك الاشباح . تلك الجماجم التى تقطر دماء ، انها اللحظة تبتسم لك وهى فى حجرك ! نعم انها لتبتسم لك هكذا ولا تزال قائمة على اكتاف اصحابها الاحياء ولكن غدا ماذا تكون ابتسامة تلك الجماجم اذا هى سقطت تحت مقصلة الجلاد ؟ ! لا لشىء سوى أن كبرياءك ابى عليها الحياة افتحسب هذا سيزحزحها عنك ام تراه سيدفعها الى مطاردتك فى كل مكان حتى يذهب لبك فلا يصيبك من كبريائك الا العذاب . عذاب النفس ، عذاب الضمير وانت فى الآخرة من الخاسرين !

فصاح به الملك : وهو يتلوى ويتململ فى فراشه « كفى كفى » ! فلقد مللتنا وقد مزق رداء كبريائه واحنى رأسه وخضع لوعيد الملكة الكافرة .

الفصل الثالث والعشرون

الاحتفال

واعقب تسليم الملك وامتثاله لاغراء الكاهن رد فعل غريب جعله فى عجلة شديدة لتنفيذ امر كان يمكن ان ينفذ بسهولة وراحة منذ ثلاثة ايام ، ولكن ابى عناده الا أن يسلم بهذا التنفيذ قبل موعده بساعات !

فقد استدعى جرفاس من السجن فى الساعة الحادية عشرة من صباح الاربعاء ، بعد ان قضى ثلاث ليال سويا فى محبسه يقاسى يأسا اليما ولا يدرى ماذا يصنع الله به

ولكنه لم يمثل فى حضره الملك ، وانما حضر امام سكرتير جلالته ، وهو رودريك ، وكان الملك قد املى عليه نص كتاب الى رئيس ديوان التفتيش ومهر الكتاب بتوقيعه وجعل معدا للتسليم لجرفاس

وقبل ان يدفع بالجواب الى يده راح السكرتير يذكر

له ان الملك قد عفا عنه ورأى ان العدالة تقضى بان تأخذ مجراها ما دام الظلم قد وقع من أحد رعاياه

وسلمه الكتاب قائلا :

ـ ان المرأة التى يراد اطلاق سراحها بالامر الذى يحويه هذا الكتاب سجينة الآن فى محبس ديوان التفتيش لا بتهمة الكفر فحسب بل بتهمة اعمال السحر كذلك لاضلال الدون بدرو دى مندوسا اولونا حتى انه نسى واجبه نحو ربه وشرفه واختطفها من بلادها وجاء بها الى هذه البلاد . فهى الآن سجينة فى طليطلة والى الآن لم تصب بسوء ولكنها قد صدر عليها أخيرا الحكم بالاحراق فى الاحتفال الكبير الذى سيقام غدا فى طليطلة ، وعليه يطلب جلالة الملك أن يسافر حالا باقصى ما يمكن من السرعة لتسليم كتابه هذا الى الدون جاسبار دى كيروجا رئيس ديوان التفتيش فى تلك المدينة ورئيس اساقفتها فان هذا الكتاب يحوى أمرا صادرا اليه بأن يسلمك السلاذى مرغريت تريفانيان ، كما ان جلالة الملك قد تفضل بالسماح لك بالاقامة اربعة عشر يوما فى اسبانيا على أن تغادرها فى نهاية هذه المدة مصطحبا معك تلك المرأة ، فاذا وجدت بعد هذا التاريخ فى أى أرض اسبانيه كانت النتيجة سيئة للغاية .

فتناول جرفاس الكتاب بيد راعشة ، فقد امتزج سروره لهذه النتيجة بخوف من ان يكون بتكليفه بهذه المهمة قبل موعد الاحتفال بساعات معدودة ، لا غرض منه سوى تعجيزه

وفى فناء القصر لقى ضابطا فى انتظاره ومعه ستة رجال على ظهور الخيل وجواد معد لركوبه . وكانت اسلحته قد ردت اليه فلم يضيع لحظة من الوقت ولم يتلكأ فى الانصراف من الاسكوريال مع الضابط على رأس

ذلك الحرس الصغير

واطلق جرفاس لجواده العنان

فلما اصبح على مسيرة اربعين ميلا من طليطلة قبل له ان الاحتفال سيقام قبل الظهر ، فاشتد اضطرابه حتى لم يشأ ان يستريح فى ذلك الموضع ولو ساعة واحدة كما اشار عليه الضابط الذى يرافقه فى سفره

على انه لم يجد فى « برونت » غير ثلاثة جياد فابى الضابط مواصلة المسير .. ولكن جرفاس اصر على رايه حتى امتنع شارب الضابط من الغضب ولكنه لم يجديدا من الاذعان فالتفت الى جنوده فالقى اليهم امرا لم يسمعه جرفاس فانطلقوا ولكن ما لبث ان عاد احدهم بالجياد الثلاثة ، فامتطى جرفاس جوادا منها ، وركب الضابط آخر ، واخذا معهما جنديا واحدا من الحرس

وانطلقوا فى واد رهيب موحش على ضياء القمر وكان الجو باردا ولم يكن جرفاس مرتديا معطفا بينما كان الآخران متلفعين برداءيهما ولكنه لم يكن يشعر ببرد ولا زمهرير

وفى الطريق تخلف الجندى بسبب كبوة جواد جرفاس .. فابدله هذا بجواد الجندى .. واستطاع هو والضابط ان يبلغا اخيرا بعد مشاق وصعاب « قيلامل » بعد السابعة من صباح اليوم التالى « الخميس » ، ولا تزال امامهما خمسة عشر ميلا او نحوها الى طليطلة .

وهنا ابدى الضابط شكواه مما يحس من الجوع .. وصارح جرفاس بانه لن يتحرك خطوة اخرى حتى يتناول طعامه .. فساله جرفاس عن الموعد الذى يقام الاحتفال فيه .. فاجابه قائلا :

بينما الموكب عادة من دار ديوان التفتيش بين الثامنة والتاسعة

فلم يكد جرفاس يسمع ذلك حتى اشتد به القلق وتزايد اضطرابه .. واجمع نيته على ان لا ينتظر دقيقة واحدة اكثر من الوقت الذى يستغرقه تجهيز جواد جديد لركوبه .. وجاء احد الجنود بالجواد المطلوب .. فترك جرفاس زميله يلعن ويسخط ويثب فوق صهوته وهو يقول : « ابعنى على مهلك ياصاح بعد ان تفرغ من فطورك »

وانطلق بجواده يلتهب الارض لهبا ، وهو يخشى ان يكون قد وصل بعد فوات الوقت . وهكذا انطلق شارد الخاطر لا يحس ولا يبالى خطرا ولم تكد الساعة تؤذن بالتاسعة صباحا حتى كان يدنو من مدينة طليطلة ويشهد حصونها المحيطة بها احاطة السوار بالمعصم .

ولما اقترب من ابواب طليطلة راى زحاما شديدا عندها وقد اشتد الهرج والمرج بسبب حجز الحراس لهم عن الدخول .

ولكنه لم يتردد فى اختراق الصفوف وراح يعلن الحراس انه رسول من قبل الملك .. فنظر هؤلاء شذرا اليه واسترابوا به .. فاخرج الكتاب الذى يحمله وجوازه فابرزهما لهم .. فتراجع كبيرهم محييا يأدب ولكنه مانع فى دخول الجواد مبديا اسباب المنع .

فلم يسمع جرفاس سوى الاذعان .. ونزل عن جواده وسأل الحارس عن اقرب طريق الى قصر الكردينال فاشار الرجل الى الكاتدرائية قائلا له : اذا وصلت بها فاسأل هناك .

ودخل جرفاس المدينة ، فلم يكد يسير قليلا حتى وجد نفسه وسط موجة من الناس تدفعه فى تيارها على

غير ارادته .

ومازال الموج الانسانى يدفع به حتى الى اخيرا على ساحة واسعة فراى فى وسطها قوائم مشنقة على جانبين من جوانبها صفوف متراصة من المقاعد والمتكآت ... ثم يلبث ان وجد نفسه على الجانب الايسر ومن ورائه جندار شاهق . فوقف يهدىء من ثائرته ويتمالك انفاسه اللاهثة وماكاد يفعل حتى شعر بإنزاح يغمر جميع اوصاله .. ذلك الانزاح الطبيعى الذى يعقب التعب الشديد .. والارق الطويل .. والحاجة الى الطعام وعنف المجهود .

على انه تلفت حوله ليرى مخلصا له .. فاذا به يلمح مرتفعا بجانبه لا يكاد يعلو قدمين من الارض . فاستوى فوقه ليستنشق الهواء .. ومن شدة الاعياء قنع بالبقاء لحظة فى مكانه ليستريح من التدافع وسط هذا الموج البشرى العظيم .

وكان الشارع الذى وقف في زاوية منه ليستريح مزدحما بالناس الا فرجة فى وسطه قد تركت خالية يحيط بها سياج خشبى ويصطف حولها حرس مدجج بالسلاح . وقد قامت المشنقة فى وسطها يصعد اليها بمدارج عراض ، وعلى يمينها منبر يواجهه قفص من حديد يحوى مقعدا واحدا من الخشب وفى الناحية الاخرى من قوائم المشنقة اقيم هيكل مغطى بالاكسية الحمرمزية من فوقها صلب بين شموع طويلة مذهبة ، وهناك سرادق صغيرة تعلوه قبة تتدلى منها استار مزركشة قرمزية اللون وفى صدر السرادق منصة قد اقيم فوقها مقعد كبير مذهب كالعرش ، عن يمينه مقعد اصغر منه وعن شماله آخر مثله ؛ وعند ملتقى الاستار شعاران كبيران احدهما يمثل الصليب الاخضر اللون الذى اتخذه ديوان التفتيش رمزا له والاخر

شعار الاسرة المالكة فى اسبانيا .

وكانت النوافذ المطلة على الساحة وفى الشارع الجانبى ملأى بالنظارة ، كما كانت اسطحة الدور والشرفات وهى جميعا مجللة بالسواد كما كانت ثياب اهل الحيثية والمراكز الرفيعة سودا كذلك .

ومالبث جرفاس ان شعر بقلبه يخفق على رئين ناقوس ، وراح يرسل دويا محزنا كرنين أجراس الكنائس فى النعى والجنائز ، فتذكر مرغريت وخيل اليه ان هذا الرنين من اجلها واجل الابرياء والشهداء الذين سيلقون نحبا لحاكم التفتيش . وان هذه الجموع الحاشدة من الخلائق انما جاءت لتشهد مصرعها ومصارع امثالها من الابرياء ، فعجب لنفسه كيف ذهل وشرد منه الخاطر حتى وقف هكذا جامدا فى موضعه غير متنبه الى الدافع الذى جاء به يقطع الارض ويسابق الرياح !

فحاول ان ينزل من فوق المرتفع البسيط الذى علاه وهم بأن يدفع الذين وقفوا امامه ليفسح لنفسه طريقا ولكنه لم يستطع .

وعلى هذه الجلبة التى اثارها جرفاس هرع احد شرطة ديوان التفتيش ليرى ما الخبر ، فلم يكد يدنو من الموضع حتى نظر الى جرفاس شذرا فلاحظ انه مسلح والسيف الى جانبه والخنجر قائم فى منطقته ، وكان حمل السلاح فى اثناء سير الموكب مخالفة للقانون يعاقب مرتكبها بالسجن ، ولم يلبث ان وصل نفر من الشرطة .. فأقبل زميلهم عليهم ليشاورهم فى امر هذا الشخص المسلح فى هذا اليوم الذى لا يبقى حمل السلاح فيه واذا بهم يطلون الى الصف الامامى من النظارة افساح طريق لهم .. فبادر هؤلاء الى الطاعة رغم الزحام الشديد ..

وجاؤوا يشقون الطريق الى حيث كان جرفاس واقفا وابتدره أحدهم وهو فى الظاهر قائدهم بسـاله من هو وما شانه فرد عليه جرفاس بانه رسول من ملك اسبانيا يحمل كتابا منه الى رئيس ديوان التفتيش وهى مهمة عاجلة لا يمكن تأخيرها لحظة واحدة .

فابتسم الرجل ابتسامة احتقار وتبعه الآخرون بضحكات سخرية واستهزاء ..

ولكن جرفاس لم يعبأ بهذا الهزؤ به .. بل اخرج كتاب الملك والجواز الذى معه فوضعهما جانب عين الشرطى الساخر فما كاد هذا يراهما حتى خرس وسكت ووقف لحظة مفكرا ثم دار بعينه الى زملائه يستشيرهم فى الأمر وأخيرا قال :

ـ الموكب قد بدأ المسير من نصف ساعة من دار ديوان التفتيش وخطة الكردينال فى الموكب ومن المستحيل اللحاق به الآن . فيجب ان تنتظر حتى يعود الى القصر على كل حال وعند ذلك نسير بك اليه .

فاضطرب جرفاس وأجاب قائلا ان الأمر مستعجل للغاية لا يمكن تأجيله لحظة واحدة لان الكتاب الذى يحمله يختص بالموكب والاحتفال ذاته .

وفجأة ارتفعت صيحات الجمهور المختشد وتهليلاته الى عنان السماء فأطل الشرطى برأسه على طول الطريق وفعل جرفاس مثله فرأى على ضياء النهار بريق الأسلحة فأدرك ان مقدمة الموكب قد لاحت للابصار .

والتحى على الشرطى بالاسئلة . وكان جرفاس يظن ان المحكوم عليهم سيقف الحكم فيهم هنا وسط الساحة وعلى تلك المشنقة فلما كاشف الشرطى بظنه هذا استضحك الرجل وساله عن جنسيته وطفق يخبره بان محل الاعدام خارج اسوار المدينة وانما اقيمت المشنقة فى الساحة صورية فقط

لكى تعلن امامها الاحكام وتقام الصلوات وتلقى العظات .

وعلم جرفاس ايضا من التفاصيل ان ديوان التفتيش قد اعتاد فى هذه الاحتفالات ان يسوق الجناة على اختلاف اشكالهم ومتفاوت درجات اثمهم ، لاعلان الاحكام عليهم امام الناس وعلى رؤوس الاشـهاد لاحداث العبرة وقذف الرعب فى القلوب للزجر والردع والى هذه الساحة يساق اولا المحكوم عليهم فى ذنوب فاتلة للغفر والغفران والذين رفضوا ان ينزلوا على احكام الدين والعائدون الى المعصية والفسوق بعد التوبة والمغفرة وهؤلاء للعظم الكنيسة من رحمتها وتسلمهم الى السلطة الزمنية لتعاقبهم بالاعدام ، وتتولى هى قصاصهم وبذلك يظل ديوان التفتيش بريئا من سفك الدماء !!

ووقف جرفاس حائرا يتلفت لعله يجد سبيلا الى الوصول الى الكردينال وهو فى الموكب المتقدم على الطريق رويدا حتى كاد يقترب من الساحة ، فاذا على رأسه جنود التفتيش واشراطه وهم جيش من الشباب فى ثياب الجنائز وقد ساروا متكئى البنادق صامتين لا يلتفتون يمنة ولا يسرة ، نحو المقصلة حتى وقفوا صفوفا متراصة ، يتقدمهم جماعة من الشدين وهم يرتلون ترانيمهم المعروفة ، وقد جاء على اثرهم احد رجال التفتيش يحمل العلم بين رجلين يحملان عصى الزيتون والسيف المصلت وهما رمزا الرحمة والعدالة ، وعن شماله سار رئيس فرقة الدومينكان وعن يمينه رئيس فرقة الفنطرة ، ولكل منهما حرس من ثلاثة كهنة ، ومن بعد هؤلاء جاءت جماعات وشيع وطرائق من اشراف المملكة على ظهور الخيل الصافنات وهم فى أعجب الأزياء وراحوا يسيرون مشية مشتى فى روعة تأخذ بالالباب .

وكانت الجماهير واقفة تشهد هذه المناظر واجمة على كان على رؤوسها الطير وافاق جرفاس من ذهوله على حركة محمومة بين جماهير النظارة فاذا به يرى الناس راكعين

جثيا من فرط الرهبة والخشوع حيال مشهد رجل رهيب يبدو كله فى لون قرمزى احمر عليه من الحلل ما يفتن اللب ، ومن الجلال ما تخشع له القلوب ، ومن حوله جمع كبير من الاتباع والحواشى وهو رافع كفه ليبارك الجماهير .

وهكذا من موضع قريب استطاع جرفاس ان يرى الرجل الذى يحمل الكتاب اليه . رئيس اساقفة طليطلة وكردينال اسبانيا العظيم ورئيس المجلس الاعلى والمفتش العام !

ولم يكد يمر فى طريقه حتى استوى الناس وقوفا من ركعتهم وفى تلك اللحظة وقد عرف جرفاس اسمه لم يلبث أن تحفز ليشق لنفسه طريقا اليه ولكن استحال عليه اختراق الجماهير .

وفى تلك اللحظة ارتفعت الصيحات واللعنات ودوت الشتائم والفاظ السخط والسباب ، بسبب اقتراب مقدمة المحكوم عليهم والمذنبين وقد احاطت بهم انطقة من الجنود وحملة القوس والمقاصل والصلبان ، وكانوا نحوا من خمسين حاسرى الرؤوس حفاة الاقدام يكادون يكونون عراة الا من خرقة من قماش اصفر خشن كالخيش ، وقد حمل كل منهم فى يده شمعه غير مضاءة لكى تضاء عند الهيكل حين ينهى تطهيره واستكمال توبته والغفران له .

وكان من بينهم الشيوخ والعجائز والفتيةالاشداء والفتيات النائحات وهم جميعا مطرقو الرؤوس اذلهم هذا العرض الاليم على الابصار مزوعين من هول الصياح الداوى حولهم واللعنات المتناثرة عليهم كالوابل المدرار .

وراح جرفاس يتفحص تلك الوجوه ولم يلبث أن اخذ هيئة من صفوفهم فجأة ، وجه خيل اليه انه قد رآه من قبل ، وجه جميل رقيق ينظر الى الامام وينم عن شدة الالم الذى يعتل فى صدره ، فأمسك جرفاس انفاسه من فرط الذهول والدهشة والعجب ، وفى الحق توارى المشهد القائم

حياله فى خاطره ، واعقبته صورة خيالية مرت بذهنه ، وتمثلت فى ذاكرته ، صورة حديقة من حدائق الورد يجلس بجانب شجرة منها سيد رقيق جميل مرح عابث قد وضع قيثارا فوق حجره ، فجاء هو فانتزع ذلك الالقيثار والقاه بعيدا ، وسمع ذلك الصوت المتهكم وهو يقول له :

— يلوح لى انك لا تحب الموسيقى ياسير جرفاس !

وافاق جرفاس على مشهد الموكب السائر حياله فى طليطلة ، وكان الشخص الذى اثار فى نفسه تلك الذكريات قد اجتازه فى تلك الهنيهة ، وهو يلوح فى اشد عذاب النفس وآلامها ، فلم يلبث ان أحس الرثاء له تخيلا انه انما يسير الى منيته ويدنو من حتفه . وتلا ذلك مشهد جمع آخر ولكن جرفاس لم يعد يحفل بنظام الموكب وفرقه وصفوفه لانه أدرك فجأة أن مرغريت ليست بين المحكوم عليهم فلم يلبث ان شعر بطمأنينة بالغة ولكنها ما عتمت أن جددت قلقه واضطرابه لجهله بما عسى أن يكون قد جرى لها ، حتى ذهل عن الموكب ومشاهده .

غير انه بعد لحظة افاق من ذهلته فلمح الشنقة المعلقة ورئيس الديوان فى مجلس القضاء والمحكوم عليهم مصفوفين عن اليمين وحيالها جلس النبلاء والاشراف والكهنوت على على المقاعد وهناك قسيس قد ارتقى المنبر وراح يعظ الحاضرين .

وتلا ذلك اجراءات الاحتفال مرحلة مرحلة بين هتاف العامة وصيحات الجماهير لم عودة الموكب من حيث أتى .

وما كاد الموكب يمر حتى تشتت الزحام وانفجرت الامواج البشرية من محتجزها الطويل وانكسرت الانطقةالخشبية التى كانت مضروبة حول الساحة من ضغط المتزاحمين .

وعند ذلك شعر جرفاس بيد الشرطى تمس ذراعه وهو يناديه قائلا :

— الآن هيا بنا .. !

الفصل الرابع والعشرون

اللقاء

انتهى الاحتفال كما قدمنا وسيق المذنبون الذين انابوا واصلحوا الى دار التفتيش لكى تتخذ الاجراءات اللازمة فى غداة اليوم التالى لتنفيذ العقوبات التى حكم عليهم بها . أما الذين صدرت الاحكام عليهم بالاعدام حرقا فقد حملوا الى خارج اسوار المدينة عند موضع بجوار شاطىء الناجاس تعتد حياله الرياض والمراعى الناضرة .. حيث اقيم صليب عظيم من حوله اكداس الحطب والعيدان لفداء الثيران التى أعدت للكافرين !

وكان الكردينال قد رجع الى قصره مرتاح البال اخيرا من أمر ابن أخته فان الاجراء الذى اتبع القسيس جوان رئيس الحكمة بوجوب اتخاذه ، قد نجح فى النهاية فصدر الحكم على الدون بدرو قاضى بدفع الفاجنيه غرامه لديوان التفتيش والسير فى الموكب حافيا لبس عليه الا قميصه والحبل فى عنقه واستمرار ذلك يوميا لمدة شهر فى صحن كتدرائية طليطلة .. وفى نهاية الشهر يعتبر انه قد تطهر من ذنبه وكفر عن اثمه وصح ان يسترد اعتباره ويستعيد مركزه .

أما القضية فيما يختص بالمراة فيصبح بعد هذا استمرار النظر فيها طبقا لقواعد محاكم التفتيش واجراءاتها .. فيحكم عليها سواء من حيث اتهامها كساحرة . او اتهامها فقط ككافرة .. بالاعدام احراقا فى النار عند اقامة الاحتفال التالى ، فان هذا الامر لم يعد يهم الكردينال او يشغل منه الخاطر .

ولكن هذا الاستنتاج لم يلبث ان ظهر له متعجلا اذ لم

يمض نصف ساعة على عودته الى القصر حتى جاء القس جوان فى اضطراب وجزع وقلق يلتمس لقاءه .

فلما مثل فى حضرته نباه بان القس لويس قد أخذ يحتج علنا على الاجراءات التى اتخذت فى القضية ويعلن انها غير قانونية ولا متفقة مع أوضاع محاكم التفتيش وشرعيتها فان الحكم على «الدون بدرو» فى تقديره واعتقاده قد جرى على اساس مسائل كان يتحتم ان تظل افتراضية حتى يثبت على المراة اشتغالها حقيقة باعمال السحر ... وانه يريد ان يعرف ما هو الاجراء الذى نعتزم اتخاذه فيما اذ لم يفد التعذيب فى استخلاص الاعتراف من تلك المراة .

وقال القس جوان انه قد حاول تهدئة خاطره مذكرا له بانه يحسن به ان ينتظر ليرى هل سيقع مايخشاه او يتحقق ماهو محتج عليه .. فان هذه الاحتجاجات قبل ظهور اى شىء من قبيل الرجم بالغيب ، او مجرد افتراض وتصور .

ولكن القس لويس استضحك ساخرا واجاب بقوله انه يعتقد ان الحكم الذى صدر على الدون بدرو كان افتراضا ومجرد تصور لمساعدته على الفرار والتخلص من العقوبة الكبرى التى يستحقها .

وقد قال القس لويس هذا فى محضر جمهور كبير من رجال التفتيش حتى انهم تاثروا من قوله وكانت آراؤهم من رأيه .

فاستاء الكردينال كثيرا ، ولكنه رأى من الحكمة ان لافائدة من الاستياء ازاء رجل فى جانبه الحق .. فتكلم ملبا بضع لحظات وهو صامت لا يريد أن ينم بالكلام عن المه وغضبه .

واخيرا حاول الابتسام بلباقة وقال :

— لقد بلغنى الساعة من سيجوفيا أن القس هناك مريض مرضا خطيرا يجب معه تعيين خلف له .. وسأعين القس لويس فى هذا المركز اليوم ، فانه يستحق المكافاة على حميته وحماسته الصادقة ، فليسافر الى سيجوفيا فى الحال .

ولكن هذه الفكرة التى ظن الكردينال انها تحل المشكل روعت القس جوان وأدهشته .. فانثنى يقول :

ـ ولكن القس لويس صبرى فى هذا التعيين محاولة رشوته واعطائه ثمن السكوت .. وبكفى هذا التصور لايقاد نار غضبه وسخطه فيزداد ثورة واحتجاجا .

وشعر الكردينال أن هذا الرأى صحيح فحملق ببصره وظل لحظة حائرا .. ايذهب كل هذا عبثا بسبب عناد هذا القسيس اللعين . ؟ لم يبق امل الا فى شىء غير حمل المرأة على الاعتراف باستعمال وسائل التعذيب .

وفى تلك اللحظة دخل السكرتير مسرعا وبغير استئذان .. فاستاء الكردينال .. ولكن السكرتير بادره بقوله :

ـ لقد جئت يا مولاى فى مسألة من قبل جلالة الملك .

وابلغ الكردينال أن الشرطة قد احضروا رجلا مخفورا لم يشأ نزع اسلحته بدعوى انه رسول من قبل الملك ومعه كتاب من جلالته الى المفتش العام ، وانه يريد أن يسلمه بنفسه . ؟

ودخل جرفاس على الكردينال وهو لا يزال اشعث اغبر من عناء السفر وقد بدا عليه التعب وبلغ منه الاعياء كل مبلغ ، فالحنى عند دخوله وقدم الكتاب . فتناوله الكردينال ونظر الى سكرتيره فقال :

ـ اعطه كرسيا يا بابلو فانه لا يقوى على الوقوف .

فتمالك جرفاس على المقعد مبديا حركة شكر .

وفض الكردينال الرسالة ، وفيما كان يقرأها جعل وجهه ينطلق شيئا فشيئا وتنجاب عنه غمائمه ، ثم اذ فرغ منها التفت الى القس جوان وقد ابرقت عيناه بريق الفرح والاطمئنان ، وهو يقول :

ـ خذ واقرأ . يخيل لى ان الاقدار قد تدخلت لانقاذنا من ورطتنا لقد اصبحت المرأة خارجة عن اختصاص ديوان

التفتيش بأمر ملكى فلا حاجة بنا الى الانشغال بأمرها بعد الآن .

وقرأ القس الكتاب .. وقد رأى مما فيه انه جاء فى احسن المناسبات بل جاء ليبرىء الكردينال من تهمة التحيز لاحد اقاربه .

ولذلك ما لبث الكردينال أن ابتسم ابتسامة رضى واغتباط ، ولمح القس خلال وجه الكردينال فانحنى وامسك عن الكلمات التى كانت متحيرة على شفتيه . وذهب يقول :

ـ اذا صادقت على هذا بالنيابة المفتش العام فان السجينة تسلم فى الحال .

وكانت هذه الملاحظة اليقة كتذكرة من القسيس بان الملك قد تجاوز حدود سلطته الزمنية ، ولكن الكردينال لم يحفل بتلك الملاحظة وانما راح يملى على سكرتيره كلمات التصديق على تسليم السجينة وتناول امر التصديق بعد كتابته فسلمه الى رئيس الحكة ليرفقه بكتاب الملك .

وعند ذلك التفت الى جرفاس فسأله :

ـ من أنت يا صاح وباى صفة تسلمك السجينة ؟

فنهض سر جرفاس من مقعده واجابه على سؤاله ذاكرا اسمه وقائلا انه جاء من انجلترا خصيصا بكتاب من الملكة .

فرفع الكردينال حاجبيه مندهشا . قال : أنت انكليزى اذن ؟ .

وخطر له انه حيال كافر آخر ، ولكنه هز كتفيه هزة غير مكترث اذ حسبه أنه قد تخلص من ورطته فلا مدعاة للتدقيق فى شىء آخر ، واصدر الامر باكرام الرسول واحسان مثواه رشما تصل السجينة من مجبسها بعد اتخاذ الاجراءات اللازمة .

ولم تمض ساعة حتى جاء رجلان من رجال التفتيش يقتادانها من مجبسها وهى فى دهشة من امرها .

ووجدت نفسها فى غير صميرة وهى لاتدرى شيئا ، وفى الحال قبل عليها من ناحية منضدة قائمة فى بهرتها رجل لم تكد تلمحه حتى انقلب المستحيل ممكنا ، والخيال حقيقة والامل واقعا والحلم يقظة .

بل لقد سمعته ينطق باسمها .. وفى صوته وسواس التحابة ، وخرير اجهاشه .. ورأته يتقدم نحوها باسطا ذراعيه اليها .. ولكن عقلها أبى أن يطاوع تلك الخدعة .. ويذعن لهذا الخيال .. واذابها تحس انها فى احضانه وتشعر بذراعيه تطوقانها .. واذا بذلك الشبح ـ الاشعث الاغبر المضطرب البرة .. المشوش الهندام ـ يقبلها .. ويلثم جدائلها ، وعينيها ويطبع على شفتيها حرارة شفتيه .

ولم يعد شبحا او خيالا بعد ذلك فانتزعت نفسها برفق من عناقه وصاحت : جرفاس ! ماذا تفعل هنا !

قال ولم يزد : جئت من اجلك !

قالت وهى تردد كلمته كأنها خالية من كل معنى :

ـ جئت من اجلى ! !

فخطفت على وجه جرفاس ابتسامة حزينة ... وراحت انامله تتحسس شيئا فى طيات صدره .

قال : جاءتنى رقعتك !!!

قالت : رقعتى ! !

اجاب : نعم الرقعة التى ارسلتيها الى فى اورنياك تطلبين فيها الى الحضور . انظرى ها هى !

واخرجها من موضعها الذى كان محتفظا بها فيه .. فاذا هى مطبقة مضغوطة علاها الغبار .

واثنى يقول : ولكن عندما وصلت الى قصر تريفاتيان كنت قد ذهبت .. فتبعتك .. وهاأنذا قد جئت لأعيدك الى موطنك .

قالت والهة شاردة اللب :

الى موطنى ؟ ! الى موطنى . ؟

وكأنما خيل اليها أنها قد بدأت تشم أريج ذلك الموطن العبق الشذى .

قال : نعم كل شىء على استعداد .. وسنذهب الى سانتاندر فى الحال حيث ينتظرنا تريسيليان بسفينته .

ولكن حواسها كانت مضعضعة .. ولبها كان شاردا .. كما كان هو مترنحا من فرط الاعياء .. حتى كاد أن يسقط لولا صولتها العلب الحنون وهى تهتف به .

ـ جرفاس .. جرفاس .. بالك من فتى شهم عجيب . فتماسك وردت اليه قواه .. وشدت هى على عنقه بذراعيها باكية .

فقال متمتما : لقد كنت واثقا انك ستعرفين حبى يوما من الايام .. !

(تمت)

راجعها : عبده